يصدرها حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية



رابندرانات

تاغور

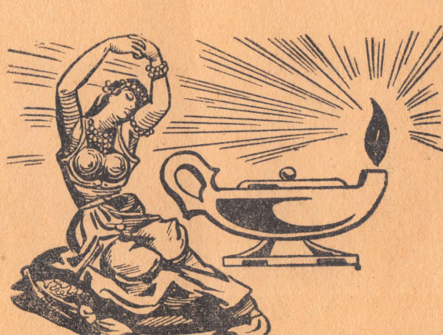
قلوب ضالة

عدد ممتاز

١٢ قرشا

رابندرانات تاغور

قلوب ضالة



THE WRECK

By: RABINDRANATH TAGORE

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار « كتابى »

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب الثانى عشر

قلوب ضالة

تأليف : رابندرانات تاغور

ترجمة : محمد بدر الدين خليل

الادارة : عمارة الجندول ، ١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة « كتـــابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن تسعة وأربعون كتابا ، يضـــاف اليها كتاب جديد أول كل شهر .. وفيما يلي قائمة الكتب التى صدرت :

خطايا الحب وكتب أخرى . قلب عذراء . الهاربة من الجنة . حواء الجديدة . أحدب نوتردام . جريمة حب . عشـــيقة نابليون . مذكرات كيوبيد . صنم تحطم . حديقة الله . عندما تحقد المرأة . لعبة الحب والموت . توبة خاطئة . أيها الربيع ترفق . الشيطان على الارض . ليدى هاملتون . الارملة المرحة . حياة جورج صاند . حياة سارة برنار . رباعيات عمر الخيام . حياة بيتهوفن . حياة موسولينى . كوخ العم توم . الزوج والعشيق . البوهيمية . فتـاة لهـا ماض . ترويض النمرة . فن الحب . الجريمة والعقاب . المنافق . أميرة مصر الامطار . أفروديت . أقنعة الحب السبعة . سالومى . الاعداد : ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦ ـ ٤٧ ـ ٤٨ ـ ٤٩

◆ وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شـارع ٢٦ يوليو (فؤاد الاول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجر البريد المسجل ، ماعدا العددين العاشر والعشرين ، وثمن كل منهما ٢٠ قرشا . والاعداد ١٣ ، ١٦ ، وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نســخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، أما الاعداد الستة الاولى فقد نفـدت ، والادارة مستعدة لشرائها .

◆ الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز : مايوازى ١٤٠ قرشا مصرية وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وأمريكا وفرنسا واستراليا قيمة الاشتراك ١٦٠ قرشا (عن سنة) خالصة أجر البريد ، وفى ألمانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى .

◆ ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة أو بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد Money Order

مطبوعات « كتابى »

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الابيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) ، الخطيئة الاولى ، أوديب ، مدام بوفارى (جزءان) . وثمن كل من الاول والرابع والسابع ٢٠ قرشا ، والثانى والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر ١٢ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص البريد المسجل)

تاجور الأديب المكافح

تقدمة بقلم الكاتب الكبير الاستاذ سلامه موسى

لمناسبة نشر هذه القصة، تفضل الاستاذ الكبير سلامه موسى فكتب هذا التقديم التالى لها ٠٠ وخص «مطبوعات كتابى» بهذه التحية المشكورة :

◆ انها لخدمة جليلة تؤديها مجلة مطبوعات « كتابى » لقرائها باخراج قصة كاملة لتاجور، أديب الهند الاول ٠ فاننا نعرف اسم هذا الاديب العظيم منذ أكثر من ثلاثين أو أربعين سنة، وقد اعتدنا أن نقرأ له مؤلفاته التى ترجمت الى الانجليزية أو الفرنسية ٠ ولكن هذه المؤلفات بقيت مجهولة من قراء اللغة العربية، الا النزر من أشعاره وقصصه القصيرة الذى نقل الى هذه اللغة ٠٠ والذى لم يكن كافيا لأن ينقل الينا صورة صحيحة عن هذا الذهن الهندى الرائع ٠ ومن هنا قيمة هذه القصة التى تنقل « كاملة »، والتى يمكن للقارىء العربى أن يجد فيها طرازا يستطيع أن يحكم به على مكانة « تاجور » فى الادب العالمى

و « تاجور » أديب « عالمى » بمعنى الكلمة، فليست هناك لغة متمدنة تجهل مؤلفاته ٠ وقد نال جائزة « نوبل » العالمية اعترافا بفضله ونبوغه واخلاصه للأدب ٠ وقد تعلم تاجور فى انجلترا وأشرب روح الحضارة الانجليزية واحبها، بل أحب الشعب الانجليزى واللغة الانجليزية ٠ وكان يكتب هذه اللغة كما لو كان أديبا راسخا من أدباء الانجليز ٠ وكان يضيف الى ماحصل عليه من ثقافة أوربية ثقافة شرقية أو بالاحرى ثقافة هندية، لانستطيع أن نقول أنه أحبها وانما نقول أنه فهمها واستخرج مافيها من الدرر، من أكوام الرمال التى تحفل بها كل ثقافة شرقية قديمة٠ ومازلت أذكر كيف فار غضبه ذات مرة فدعا الاقدار الى أن تنكب الهند بحريق عام يحرق معابدها جميعها بلا استثناء !٠٠ كى يعود الهنود بعد ذلك فيستنبطون ديانة جديدة انسانية تعمل للمساواة والاخاء والخير ٠ ولابد أن فكرة « المنبوذين » كانت الباعث الأول لهذه الفورة من الغضب ٠ وأى شىء أبلغ فى ايذاء النفس عند الاديب الهندى من أن يرى بلاده تحترم « التقاليد »، هذه التقاليد التعسة التى كانت تقول بنجاسة الانسان وقداسة البقرة ؟

وقد كان تاجور أوربى الذهن مائة فى المائة ٠ ولذلك اصطدم بغاندى عندما وجده يقاوم الحضارة الاوربية بالعودة الى الغزل القروى ومقاطعة المصنوعات الأوربية ٠ ولكن الحقيقة أن هذا التصادم بين الزعيمين، زعيم الأدب الانسانى وزعيم الوطنية الهندية، كان على غير أساس من الخلاف الصحيح، بل كان خلافا سطحيا، لأن كليهما كان يؤمن بالحضارة الأوربية ٠ ولم تكن معارضة غاندى

لما فى هذه الحضارة من نزعات امبراطورية وشطط انفرادى لتزيد عما كان يقول به تولستوى .

ومع أن تاجور بقى يمارس الأدب الى حوالى ١٩٢٠ من برجه العاجى ، لايكاد يشترك فى الكفاح السياسى الوطنى ، فانه مع ذلك كان يمارس الا دب ، ليس للأدب وليس للجمال ، ولكن للانسانية . ثم ماهو أن رأى الاستعمار البريطانى يشرع فى البطش والافتراس ، فيسفك الدم ويعتقل الاحرار ، حتى هرع الى صفوف الوطنيين يحمل رايتهم وينافح عن الهند المغلوبةويطالب بطرد الانجليز . ولما حدثت مذبحة « أمريتسار » التى وصل فيها الطغيان البريطانى الى أسفل خسته ، مزق عن صدره وسام لقب «سير» الذى كان قد منحه اياه ملك بريطانيا العظمى و « امبراطور الهند » ، وتنازل عن اللقب !

ويمكن أن نقول ان تاجور كان منذ حوالى سنة ١٩٢٠ يكافح فى جبهتين : الاولى ضد تقاليد بلاده الرجعية ، والثانية ضد الاستعمار البريطانى . وهو فى كل ذلك يمارس الادب ويهدف منه الى الانسانية .

سلامه موسى

هذه القصة الممتازة ..

عزيزى القارىء ..

◆ كان من ابرز مظاهر النقص فى اتجاهات دور النشر العربية لنقل تراث الآداب العالمية ، اننا كنا نولى وجوهنا دائما صوب الغرب ، متناسين الشرق ، موطن الثقافات الأولى ، والمنهل الذى ادرك الغرب قيمته وعظمته ، فأقبل يغترف منه ويرتشف .. ولكن «كتابى» فطن - ومنذ مولده - الى هذا النقص ،فحرص على أن يقدم اليك خلال السنوات السابقة نماذج من الشوامخ التى أقام صروحها فلاسفة اليونان وشعراؤها ، وحكماء الهند والصين .. كما قدم لك روائع من الأدب الفرعونى ، والروسى ، والفارسى .. الخ

وهاأنا أخطو نفس الخطوة فى «مطبوعات كتابى» فأتيح لك فى هذا العدد فرصة قراءة قصة طويلة كاملة - وخالدة ! - من الأدب الهندى .. ويالها من قصة .. انها تكفى مبررا فى نظرى لمنح مؤلفها جائزة «نوبل» فى الأدب منذ نحو أربعين عاما ، فهو يسمو فيها الى مرتبة «تولستوى» ، و«هوجو» ، و«ديكنز» !

وبرغم طول القصة ، فقد آثرت أن أضغطها لك فى جزء واحد ، باستعمال البنط الصغير فى أكثر فصولها ، ومع ذلك فقد اضطررت الى زيادة صفحات العدد زيادة اقتضت - لمواجهة نفقاتها - رفع سعره الى ١٢ قرشا .. وقدآثرت هذا الحل على تجزئة القصة الى جزءين ، مادام الجزء الواحد فى حيز الامكان

وتقبل تحياتى

حلمى مراد

قلوب ضالة

قصة طويلة كاملة
لأديب الهند الأكبر
رابندرانات تاغور



تاغور



◆ اذا كان القدر قد اعتاد أن يختار الفلاسفة والمفكرين من الفقراء والمستضعفين ، الا ان الهند شهدت مناسبتين ، حاد فيهما القدر عن هذه العادة : وكانت أولى المناسبتين ، يوم اختار القدر « بوذا » من قصر احد الامراء المالكين فى الهند ، ليكون مبشرا بالحكمة والفلسفة .. ثم كانت المرة الثانية ،حين اختار «رابندرانات تاغور » حفيد الامير « دواركاناث تاغور » ليكون من رسل الأدب والحكمة ..

ولد «تاغور» في (كلكتا) فى ٦ مايو سنة ١٨٦١ .. وبعد أن درس فى احدى المدارس الخاصة بالهند ، رحل الى انجلترا وهو فى السابعةعشرة من عمره ليدرس القانون . ولكنه لم يستسغ هذا اللون من الدراسة ، فعاد الى بلاده ، وتوفر على الكتابة فى مجلات (البنغال) وصحفها ، وما لبث اهتمامه أن اتجه الى أحـوال بلاده ومواطنيه ، فراح يسعى لرفع مستوى الحياة الفكرية والاجتماعية فى الهند ، وأنشأ فى سنة ١٩٠١ مدرسة فذة فى نوعها ورسالتها ، تنكب فيها برامج التربية المألوفة ، ليعنى بالنواحى الروحية والانسانية والقومية

وتوفر على الانتاج الأدبى فى تلك المرحـلة ، ففاز فى سنة ١٩١٣ بجائزة «نوبل» للآداب . وقام بعد ذلك بعدة رحلات فى أوروبا ، كما زار اليابان والولايات المتحدة . وقد وضع تاغور مؤلفاته ـ من اشعار وتمثيليات وروايات ـ بوحى من جمال الـكون ، وادراك وجوه الله ، وحب الأطفال ، والبساطة . وتبدو هذه المعانى فى أجلى صورها فى كل ماكتب

وعندما بلغ الثامنة والخمسين ـ وهى سن تفتر فيها همم الكثيرين ـ وجد فى مجال الفنون ناحية جديدة لنشاطه ، فشغف بالرسم والتلوين ، وأقبل على ممارستها ..

وفى ٧ أغسطس سنة ١٩٤١ ، مات «تاغور» ، عن ثمانين عاما

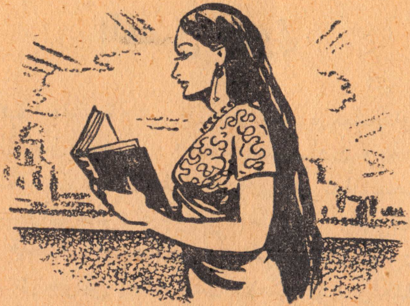
الفصل الاول

• **ما ارتاب** أحد لحظة فى أن « رامش » سيجتاز امتحانه النهائى فى القانون بنجاح ٠٠ فقد اعتادت ربة العلم ، التى ترعى الجامعات ، أن تغدق عليه أوراق زهرتها الذهبية – زهرة « اللوتس » – وأن تمطره بالجوائز العلمية ، وتغرقه فى الشهادات من رأسه الى قدميه !٠٠ وكان من المرتقب أن يعود « رامش » من (كلكتا) الى موطن أهله عقب الامتحان ، ولكنه لم يبد أى تعجل فى حزم متاعه ٠ وكتب له أبوه يأمره بالعودة فورا ، فرد بانه سيعود بمجرد أن تعلن نتائج الامتحان

وكان « جوجندرا » بن « أنادا بابو » (١) زميلا لرامش فى الدراسة ، وجارا له فى السكن ٠ وكان « أنادا بابو » ينتمى الى ملة « البراهمة » ، وله ابنة تدعى «همنالينى» ، تقدمت أخيرا الى امتحان السنة الاولى فى الآداب ٠ واعتاد « رامش » أن يزور الاسرة دوما ، وأن يظهر فى دارها فى موعد تناول الشاى ، بانتظام ٠ على أن الشاى لم يكن الاغراء الوحيد ، اذ ان «رامش» كان يتردد على الدار فى ساعات أخرى ٠ كذلك اعتادت «همنالينى» أن تتمشى على سطح الدار ، لتجفف شعرها بعد الاستحمام ، وهى تقرأ أثناء سيرها ٠٠ واعتاد « رامش » ان يجلس على سطح داره – عند رأس السلم – ممسكا بكتاب ، ليخلو الى الاستذكار فى هذا المكان المنعزل الذى يصلح للاستغراق فى القراءة فى هدوء ٠ ومع ذلك ، كانت ثمة أمور بسيطة تصرفه عن القراءة هناك ، كما يمكن أن نستبين اذا فكرنا فى الامر مليا !٠٠ بيد انه لم يكن قد دار أى حديث عن الزواج بين الطرفين ،

---

(١) « بابو » لقب احترام يقابل « السيد »



اذ كان لدى « أنادا بابو » من الاسباب ما يقعد به عن اثارة الموضوع . فقد كان له صديق شاب يدرس القانون فى انجلترا، وكان السيد الكهل « يضع عينه » على هذا الشاب كمرشح للزواج من ابنته !

وفى عصر ذات يوم ، دار على مائدة الشاى نقاش محتدم، فى حضور شاب آخر من أصدقاء الاسرة يدعى « اكشاى » لم يكن موفقا فى اجتياز امتحاناته، الا أنه لم يكن يقل عن أن شاب مثقف تعطشا الى الشاى وغيره من المكيفات غير الضارة !.. ومن ثم كان يكثر من الظهور على مائدة الشاى فى دار « همنالينى » . وقد قال فى ذلك اليوم ان ذكاء الذكور كالسيف ، وان ثقله كفيل بان يجعله سلاحا بتارا ، ولو لم يكن حده مشحوذا ، فى حين أن ذكاء المرأة كالمبراة ، لا يمكن - مهما تشحذها - أن تؤدى مهمة خطيرة !

وأوشكت « همنالينى » أن تتقبل فى صمت هذا الزعم البعيد عن الصواب ، لولا أن أخاها « جوجندرا » أمعن فى الحط من قدر الذكاء الانثوى ، مما اجتذب « رامش » الى معمعة الجدل ، فانتزع نفسه من صمته ، وأخذ يتغنى بمديح المرأة !.. وكان قد احتسى كوبين من الشاى ، فوق ما اعتاد ، فى غمرة حماسه

للأنوثة ، حين أحضر الخادم رسالة موجهة اليه بخط أبيه ، فما هو أن تأملها ، حتى ارتضى الهزيمة ، بينما كان النقاش فى أوجه ، وتأهب مسرعا للانصراف · وانبعثت عاصفة من الاحتجاج ، فاضطر الى أن يوضح لهم أن أباه قد وصل لتوه قادما من البلدة ، فقالت « همنالينى » لجوجندرا : « سل والد رامش بابو أن يأتى لنقدم له قدحا من الشاى » ·· فبادر « رامش » قائلا : « أرجو أن لا تتعبوا أنفسكم ، اذ يحسن بى أن ألحق به فى الحال »

واغتبط « اكشاى » فى نفسه ، وقال : « قد يأبى السيد الشيخ أن يتناول شيئا هنا ! » ·· وكان يشير بذلك الى أن « أنادا بابو » كان براهميا ، فى حين أن والد « رامش » كان من غلاة الهندوكيين !

★ ★ ★

◆ **استقبل** « براجا موهان بابو » ــ والد « رامش » ــ ابنه بقوله : « يجب أن تعود معى الى البلدة بقطار الصباح غدا ! » ·· فحك «رامش» رأسه ، وتساءل : « هل من سبب للعجلة ؟» ·· فأجابه « براجا موهان » : « ليس هناك سبب معين بالذات» ·· وتطلع « رامش » الى أبيه بنظرة متسائلة ، وهو يعجب من سر تعجله فى هذه الظروف ، بيد أن « براجا موهان » لم ير ثمة ضرورة لان يشبع فضول ابنه !

واذ خرج الأب فى المساء لزيارة أصدقاء له فى (كلكتا) ، جلس « رامش » يكتب له خطابا · وبدأ بالاستهلال التقليدى الذى يليق بمقام الأب : «الى قدمكم اللوتسية (١) الموقرة» ·· بيد أن قلمه أبى أن يمضى بعد هذه العبارة ، رغم أن الشاب راح يحدث نفسه بانه مرتبط بهمنالينى بعهد صامت ، فمن الخطأ أن يخفى هذا العهد المكتوم عن أبيه بعد اليوم · وأخيرا ، كتب عدة خطابات بأساليب مختلفة ، ولكنه انتهى الى تمزيقها جميعا

---

(١) لزهرة « اللوتس » مكانة قدسية لدى الهندوكيين

وفى تلك الليلة ، أوى «براجا موهان» الى مخدعه بعدالعشاء مباشرة ، فصعد « رامش » الى سطح الدار ، وراح يذرعه قلقا ـ كطيف من أطياف الليل ـ وبصره لا يتحول عن بيت جيرانه ٠ ورأى « أكشاى » يخرج فى الساعة التاسعة ، كعادته ، اذ كان يتلكأ فى الانصراف !٠٠ ولم تحن الساعة التاسعة والنصف ، حتى أغلق الباب الخارجى للدار ٠ وفى الساعة العاشرة ، انطفأ ضوء غرفة الجلوس فى مسكن «أنادا بابو» ٠٠ وما حانت الساعة العاشرة والنصف ، حتى غرق البيت كله فى النعاس !

واضطر « رامش » الى أن يغادر (كلكتا) فى ساعة مبكرة من الصباح التالى ، اذ حرص ابوه على أن لا يدع له فرصة للتحايل على تفويت القطار !

الفصل الثانى

• **عندما** بلغ « رامش » البلدة ، تبين أن ثمة عروسا اختيرت له ، وأن تاريخا حدد للزواج !٠٠ اذ كان « براجا موهان » قد تعرض فى شبابه لأيام سوء وضيق ، وكان مدينا بما أحرز ـ بعد ذلك ـ من ثراء ، الى محام يدعى « ايشان » ، من زملاء صباه ٠ وقد قضى « آيشان » نحبه فى سن مبكرة ، وظهر بعد وفاته أنه لم يخلف سوى ديون ، فألفت أرملته نفسها وابنتها الوحيدة ، فى فقر مدقع ٠ وكانت هذه الابنة ـ التى بلغت فى هذه الاثناء سن الزواج ـ هى العروس التى اختارها « براجا موهان » لرامش ٠ ولقد اعترض بعض المشفقين على الشاب ، قائلين ان الفتاة ـ كما علموا ـ لم تكن جميلة ، ولكن « براجا موهان » لم يكن يجيب بغير قوله : « **لست أرى رأيكم ، ففى وسعكم أن تحكموا على زهرة أو فراشة من مظهرها ، ولكن هذا لا ينطبق على الانسان ٠٠ وخليق برامش أن يعتبر نفسه محظوظا ، اذا أثبتت الفتاة انها زوجة صالحة ٠٠ كما كانت أمها !** »

وغاص قلب « رامش » بين جنبيه ، حين سمع الاقاويل عن زواجه المقبل ، فراح فكره يهيم على غير هدى ، محاولا أن يبتكر وسيلة للتهرب ، ولكنه لم يهتد الى وسيلة ما · واخيرا ، استجمع شجاعته ليقول لأبيه : « ليس بوسعى – فى الواقع – أن أتزوج من هذه الفتاة يا أبى ، فأنا مرتبط بوعد مع فتاة أخرى ! »

براجا موهان : « ماهذا القول ؟ هل بينكما خطبة رسمية ؟»

رامش : «لا ·· ليست خطبة بالمعنى الصحيح ·· ولكن ··»

براجا موهان : « هل فاتحت أهل الفتاة ؟·· وهل اتفقتم ؟»

رامش : « الواقع اننى لم أتحدث فى الموضوع ، وانما ·· »

براجا موهان : « اذن ، فلم تتكلم ؟!·· ليهدأ بالك ، ما دمت لم تقل شيئا حتى الآن ! »

وألقى « رامش » قذيفته الاخيرة ، بعد صمت قصير ، اذ قال: « لسوف أسىء الى الفتاة التى أعنيها ، اذا أنا تزوجت من سواها ! » ·· فأجاب « براجا موهان » : « ولكن ذنبك يكون أكبر ، اذا أنت رفضت الزواج من العروس التى اخترتها لك!»

★ ★ ★

• **ولم يشأ** « رامش » أن يمضى فى الجدل · فقد ايقن بانه لم تعد امامه سوى فرصة واحدة ·· تلك هى أن يقع حادث ما يحول دون هذا الزواج · وكان العام الذى يعقب تاريخ القران « منحوسا » ، لاتعقد فيه زيجات – وفقا لتنبؤات الفلكيين – فعلل النفس بأن يقع مايمنع الزواج فى اليوم المحدد له ، فيتحتم تأجيله عاما على الاقل !

وكانت هذه العروس تقيم فى بلد ناء ، لا سبيل إليه الا عن طريق النهر ، فى رحلة تستغرق ثلاثة أيام أو أربعة ، اذا سلك المرء اقصر السبل خلال المسالك المائية (الترع) التى تربط بين القنوات الرئيسية · فبعد أن حسب « براجا موهان » حساب أى طارىء قد يعترض جماعته فى رحلتها ، اختار يوما

للبدء بها ، يسبق موعد القران بأسبوع كامل

وظلت الريح مواتية طوال الطريق ، فقطعوا المسافة الى (سيمولغاتا) فى أقل من ثلاثة أيام ٠ ومن ثم كانت أمامهم أيام أربعة قبل موعد الزواج ٠ والواقع أن السيد الشيخ كان يسعى الى غاية أخرى من وراء الوصول المبكر ٠ فقد كانت أم العروس تعيش فى شظف ، وطالما رغب فى أن تبرح موطنها وتنتقل الى قريته ، حيث يستطيع أن يكفل لها عيشا رغيدا ، فيسد بذلك ما كان لصديق صباه من دين فى عنقه ٠ الا أن العرف كان يمنعه من أن يعرض على السيدة مثل هذا الاقتراح، اذ لم تكن بينهما أية رابطة من روابط النسب ، أما الآن ، وازاء الزواج المرتقب ، فقد سعى ليعرض عليها الامر ، آملا فى قبولها ٠ ولما لم يكن قد بقى من أسرتها سوى ابنتها الوحيدة هذه ، فقد وافقت أم العروس على ما عرض عليها من أن تشغل مكان الأم لزوج ابنتها الذى حرم أمه فى صغره ٠ بل لقد تشبثت بالفرصة قائلة : « لتقل الشائعات ما تقول ، فان مكانى الطبيعى بجوار ابنتى وزوجها ! »

وقضى « براجا موهان » الايام السابقة على الزواج فى تدبير الاجراءات لنقل اثاث السيدة الى مقرها الجديد ٠ وكان قد اصطحب معه بعض قريباته ليساعدنها ، رغبة منه فى أن ترافق القوم عند عودتهم بالعروس ٠٠

* * *

◆ **وعقد** القران فى الموعد الذى حدد له ٠ غير أن « رامش » تعمد أن لا يردد الصيغة الشرعية كما ينبغى أن تردد فى مثل هذه المناسبة !

وعندما حانت اللحظة التى يحل فيها لكل من العروسين أن يرى الآخر للمرة الأولى ، أغمض عينيه ، ونكس رأسه ٠ وظل صامتا عندما خلا الى عروسه فى غرفة العرس ٠ بل انه رقد طيلة

الليل موليا ظهره للفتاة ·· حتى اذا تنفس الصباح ، بادر الى مغادرة الحجرة !

واذ انتهى الاحتفال ، بادر القوم الى الرحيل ، فأفرد للنساء قارب ، وللشيوخ آخر،وللعروسين والشبان ثالث ، كما خصص قارب للموسيقيين الذين عزفوا فى حفلة الزفاف ، والذين أخذوا يغالبون السأم بعزف بعض المقطوعات من آن لآخر خلال الرحلة!

وكان الحر لا يطاق فى ذلك اليوم ، والسماء صافية ، ولكن ضبابا كابيا أخذ يرين على الأفق · وبدت الاشجار على الشاطىء ساكنة ، لا تكاد تهتز ورقة منها · وسبح المجذفون فى عرقهم ·· وقبل أن تغيب الشمس ، قالوا لبراجا موهان : « لا بد لنا من أن نربط القوارب الآن الى الشاطىء يا سيدى ، فليس ثمة مكان نرسو فيه لعدة أميال بعد هذه البقعة ! » ·· ولكن «براجا موهان» كان تواقا الى أن يقطع الرحلة فى أقصر مـدة ممكنة ، فقال : « لا داعى لأن نقف هنا ، فلسوف يظل القمر مشرقا طيلة النصف الاول من هذا المساء ·· فلنذهب الى (بالوهاتا) ونرسو هناك ·· وسوف أجزل لكم العطاء ! » ·· ومن ثم واصل الرجال التجذيف

وكانت ثمة منطقة رملية الى أحد جانبى النهر ، يتصاعد منها هواء مشبع بالحرارة التى اكتنزتها الرمال طيلة النهار ·· والى الجانب الآخر ، فضاء غير مأهول · وأشرق القمر خلال الضباب الداكن ، وقد احتقن لونه حتى بدا كعينى رجل ثمل ! ·· ولم يكن فى صفحة السماء أثر للسحب ، حين بدد السكون الشامل فجأة ، ودون ما انذار ، هزيم كقصـــف الرعد ·· والتفت المسافرون خلفهم ، فاذا عمود من الاغصان المهشمة ، والاعشاب، والقش ، والغبار ، والرمال ، ينتصب فجـأة ، كما لو كانت تثيره مكنسة هائلة خفية ·· ثم يندفع نحـوهم فى اجتياح · وتعالت صرخات جزعة : « اهدأوا ! ·· اسـكنوا ! اثبتوا فى أماكنكم ! اثبتوا ! الرحمة ! الغوث ! »

ولن يقدر لأحد أن يعرف ما حدث بعد ذلك ٠٠ فقد انقض على القوارب اعصار مدمر رفعها عن الماء ، وقلبها رأسا على عقب ٠٠وان هي الا لحظة ، حتى كانت المراكب قد اختفت من الوجود!

الفصل الثالث

• **انقشع** الضباب المعتم ، وأسبغ ضوء القمر على البطاح الرملية ، المترامية ، غلالة ناصعة البياض ٠ ولم يظهر على صفحة النهر أثر لأى قارب ، بل ولا لأية موجة !٠٠ وساد النهر والشاطىء هدوء كتلك السكينة الشاملة التى يخلعها الموت على شخص أضناه العذاب !

وعندما استعاد «رامش» رشده ، ألفى نفسه ملقى على حافة جزيرة رملية ٠ وانقضى بعض الوقت قبل أن يتذكر ما حدث ، واذ ذاك عاودته رؤى النكبة كلها ـ وكأنه فى حلم محموم ـ فقفز واقفا على قدميه ٠ وكان أول ما ساوره ، هو أن يستبين ما أصاب أباه وأصدقاءه ٠ فراح يحملق فيما حوله ، ولكنه لم ير أى أثر لانسان حى ، فى أى مكان ٠ وأخذ يسير على حافة الماء باحثا ،دون جدوى ٠وبدت الجزيرة فى بياض الجليد، وقد استلقت بين فرعين من نهر (بادما)العظيم ـ أحد روافد نهر (الجانجز) ـ كما يستلقى الطفل بين ذراعى أمه ٠ واجتاز «رامش» الجزيرة من أحد جانبيها الى الجانب الآخر ٠ وما أن شرع فى البحث ، حتى لمح شيئا يشبه الغلالة الحمراء ، فغذ الخطى اليه ، واذا فتاة شابة ترقد كالميتة على الرمال ، وقد التفت فى ثوب عرس قرمزى !

وكان «رامش» على دراية بوسائل اسعاف الغرقى ، فأخذ يبذل قصارى جهده ـفترة طويلةـ ليرد تنفس الفتاة الىطبيعته ، رافعا ذراعيها الى ما فوق رأسها ، ثم مخفضا اياهما الى جانبيها، حتى تنفست أخيرا ، وفتحت عينيها ٠ وكان الانهاك قد استبد



برامش فى هذه الاثناء ، فظل بضع دقائق عاجزا عن التقــاط أنفاسه ، وبالتالى ، عن سؤال الفتاة ٠ كما أنهـــا لم تكن قد استردت بعد وعيها كاملا ، على ما لاح له ، اذ أنها لم تكد تفتح عينيها حتى عادت تغمضهما فى اعياء ٠ على أن « رامش » اطمأن الى أن أنفاسها أخذت تتتابع فى يسر ٠ وظل برهة طويلة جالسا ، يتأملها فى ضوء القمر الشاحب ٠ كان المنظر المحيط بهما أغرب منظر يشهده شابان عروسان فى أول لقاء حقيقى لهما ! ٠٠ فقد كانت البقعة مقفرة ، معزولة بين الارض والسماء ، وكأنها تقوم بين الحياة والموت !

وساءل « رامش » نفسه : « **منذا الذى قال ان « ســوسيلا » ـ عروســه ـ لم تكن مليحة ؟** » ٠٠ وكان ضوء القمر قد غمر المكان ببهاء زاه ، وبدت السماء كرقعة شاسعة لا حدود لها ٠ على أن كل روعة الطبيعة بدت لعينى « رامش » مجرد اطار خلق ليحيط بالوجه الصغير ٠٠ وجه النائمة ! ٠٠ ونسى كل شىء ، وراح يقول لنفسه : « لشد ما أنا مغتبط ، لأننى لم أحاول أن أنظر اليها فى غمرة الزفاف وضجيجه ٠٠ ما كان بوســـعى اذ ذاك أن أراها كما أراها الآن ٠٠ **ثم اننى اذ رددتها الى الحياة ، أصبحت ذا حق عليها يفوق كل الحقوق التى يكسبنى اياها ترديد**

الطقوس والصيغ المأثورة للزواج ٠٠ فاننى بترديد هذه الطقوس أجعلها زوجتى أمام الناس ، فى حين أننى الآن قد فزت بها كهبة عزيزة غالية من القدر الكريم ! »

★ ★ ★

◆ **وما لبثت** الفتاة أن استردت رشدها ، فاستوت جالسة ، وشدت ثوبها المتهدل حول جسمها ، وأرخت قناعها على وجهها ٠ وسألها «رامش» : «أتعرفين ما الذى جرى لمن كانوا فى القارب؟»، فهزت رأسها دون أن تنبس ببنت شفة ٠ وعاد «رامش» يقول : « هل لك فى أن تبقى وحدك بضع دقائق ريثما أذهب للبحث عنهم ؟ » ٠٠ ولم تجب الفتاة ، ولكن جسمها المنكمش قال فى بيان أبلغ من الكلام : «لاتدعنى هنا وحدى !» ٠٠ وفهم «رامش» ضراعتها الصامتة ، فوقف وأخذ يجيل النظر فيما حوله ، ولكنه لم يلمح ما ينم عن أثر لحياة فوق الرمال المتلألئة ، المترامية ٠ وراح ينادى كلا من أصحابه باسمه ، وبأعلى صوته ، دون أن يتلقى جوابا ٠ فلما تبين أن لا ثمرة لجهوده ، جلس ثانية ٠ وكانت الفتاة قد دفنت وجهها فى راحتيها ، تحاول أن تكبح دموعها ، غير أن صدرها راح يعلو ويهبط متهدجا

وأوحت اليه غريزة خفية بأن كلمات العزاء ـ فى حد ذاتها ـ لن تجدى فى التسرية عن الفتاة ، فاقترب منها ، وأخذ يربت رأسها وعنقها فى لطف ٠ ولم تعد تقوى على احتباس دموعها ، فانفجر حزنها قويا ، فى سيل من الشهقات المتلاحقة ٠ وتدفقت الدموع من عينى «رامش» اشفاقا عليها ٠ وعندما تمالكا نفسيهما، كان القمر قد اختفى ، فبدت لهما الصحراء المقفرة فى الظلام كحلم رهيب ، ولاحت الرمال البيضاء كطيف مستلق فى الدياجير ٠ وأخذ النهر يلمع هنا وهناك ـ تحت ضوء النجوم الواهن ـ كجسد حية رقطاء ، فأمسك « رامش » بيدى الفتاة ـ وكانتا رخصتين ، أثلجهما الخوف ـ واحتواهما بين راحتيه ، واجتذبها

برفق اليه . ولم تقاوم ، اذ سلبها الخوف كل شعور عدا الرغبة فى أن تأنس الى صحبة انسان . وفى الظلام الدامس ، وجدت الحمى الذى كانت تنشده ، فى صدر «رامش» المتهدج ، الدافىء . ولم تكن الظروف ملائمة للاستحياء أو الدلال ، فاستكانت فى اطمئنان الى ذراعيه اللتين ضمتاها اليه

وغابت نجمة الصباح ، ودب الشحوب فى سماء الشرق خلف النهر ، ثم احمر لونها . وكان «رامش» يرقد على الرمال فى نوم عميق ، بينما توسدت العروس الشابة ذراعه ، واستلقت الى جواره غارقة فى النعاس . وما لبثت شمس الصباح أن ترامت على أعينهما فى رفق ، فنهضا من نومهما . وظلا برهة يحملقان فيما حولهما بدهشة ، ثم تبينا فجأة أنهما وحيدان ، طرحهما الموج على الجزيرة المنعزلة ، بعيدا عن موطنهما

الفصل الرابع

● **لم يمض** وقت طويل ، حتى انتشرت الاشرعة البيضاء على صفحة النهر .. أشرعة قوارب صيد السمك . ونادى « رامش » أحد هذه القوارب ، واستعان بمن كانوا فيه من صيادين على استئجار قارب للعودة به الى قريته ، كما اتصل قبل الرحيل بالبوليس ، للبحث عن رفاقه الذين تخلى عنهم الحظ

وعندما بلغ مرساة السفن فى قريته ، علم أن البوليس عثر على جثث : أبيه ، وحماته ، وعدد من أقاربه ، وانه قدر لبعض النوتية أن ينجوا . أما من عدا هؤلاء ، فقد اعتبروا مفقودين . وكانت جدة « رامش » قد بقيت فى بيت الاسرة ، فاستقبلت حفيدها وعروسه بالعويل ، كما ساد النحيب دور كل أولئك الذين كانوا فى موكب العرس ، فلم تطلق المقذوفات النارية ، ولا تعالت الصيحات والهتافات ترحيبا بالعروس عند وصولها

٠٠ ولا احتفل بها أحد ، بل ان القوم كرهوا ـ فى الواقع ـ رؤيتها !

وكان « رامش » قد عقد العزم على أن يبرح وزوجته القرية بمجرد انتهاء مراسم دفن الموتى ، ولكنه لم يستطع أن ينقل قدما ، قبل أن يسوى شئون أبيه ٠ وسألته الثكالى من نساء الاسرة أن يسمح لهن بالحج ، فاضطر الى اتخاذ التدابير لذلك أيضا ٠ ولم يكن ـ فى سويعات راحته من هذه الامور المحزنة ـ ليغفل مطالب الحب ، فان عروسه لم تكن تلك الطفلة التى صورتها له الانباء والاقاويل ٠ بل ان نساء القرية تجنين فزعمن أنها تجاوزت سن الزواج المألوفة ٠ ولم يجد حامل «الليسانس» الشاب عونا فى الكتب ، يبصره بأساليب الهوى ! ٠٠ **على أنه أحس بشعور غريب يدفعه الى الحسناء الصغيرة ٠٠ بل ان ذهنه الذى اعتاد أن يفكر على أسس من المنطق لم يقو على مقاومة فتنتها ! ٠٠ وتمثلها فى خياله زميلة المستقبل وشريكته٠وتوالت أمام عينيه ـ فى أحلامه ـ الرؤى التى تظهرها فى مختلف نواحى الحياة : عروسا عذراء ، وخليلة معبودة ، وأما فاضلة طاهرة لأولاده !٠٠ وكما يقيم الرسام للصورة المثالية ـ أو الشاعر للقصيدة الكاملة التى يبتدعها خياله ـ عرشا فى فؤاده ، ويروح يضفى عليها كل اعزاز ، ويقف عليها كل ولاء ، فان « رامش » بوأ هذه الفتاة الهيفاء ، الصغيرة القد ، عرش خياله ، كبهجة لفؤاده ، وبشير بالفرح والرخاء فى داره !**

الفصل الخامس

◆ **قضى** « رامش » ثلاثة أشهر تقريبا فى تسوية شئون أبيه ، وفى تدبير كل الاجراءات للحج الذى رغبت فيه عجائز الأسرة ٠ وبدأ بعض الجيران ـ فى تلك الاثناء ـ يقدمون تحياتهم

للعروس الشابة ٠ وأخذ الرباط العاطفى ـ الذى كان يشدها الى « رامش » ـ يزداد توثقا على مر الايام ، فاعتاد الزوجان الشابان أن يبسطا الحصائر على سطح الدار ، وأن ينفقا الامسيات تحت السماء ٠ وأصبح « رامش » يستحل لنفسه بعض المداعبات ، فيفاجئها من خلف ظهرها ، ويضع يديه على عينيها ، ويجـذب رأسها الى صدره ٠٠ فاذا غلبهـا النعاس فى أوائل الليل قبل العشاء ، تعمد أن يوقظها بمفاجأة مزعجة ، معرضا نفسـه للوم والعتاب ! ٠٠ وفى احدى الأمسيات ، أمسك بشعرها المعقوص، فنثره فى مداعبة ، وقال : « لسب أحب يا سوسيلا هذا الشكل الذى عقصت عليه شعرك اليوم ! » ، فاعتدلت الفتاة فى جلستها قائلة : « اسمع ٠٠ لماذا تصرون جميعا على أن تدعونى سوسيلا؟»

وحملق فيها « رامش » مأخـوذا ، حائرا ، لا يدرى ما الذى كانت تعنيه بهذا السؤال ، بينما استرسلت هى قائلة : « **ان تبديل اسمى لن يغير من حظى ٠ لقد كنت منحوسـة مذ كنت طفلة ، وسأظل منحوسـة ما حييت !** » ٠٠ وانبثق فى فؤاد « رامش » شعور من خيبة الامـل ، وغاض الدم من وجهه ٠ وتسلط عليه فجأة يقين بأن هناك ثمة خطأ جسيما ٠٠ خطأ ما لم يكن يدرى كنهه ، فقال : « لماذا تقولين انك سيئة الحظ طيلة عمرك ؟ »

ـ لقد مات أبى قبل أن أولد ٠٠ ولم أكن قد بلغت الشـهر السادس من عمرى حين لحقت به أمى ٠ ولقد قضـيت وقتا من أسوأ الاوقات فى دار خالى ٠ ثم بوغت بأنك جئت من مكان ما ، وأعجبت بى ، فلم ينقض يومان حتى تزوجنا ٠٠ وانك لتعلم ما جرى بعد ذلك !

واستلقى « رامش » على حشيته حائرا ٠ وكان القمر قد بزغ، ولكن شعاعه بدا فى عينيه فاقد البهاء ٠ وأوجس من أن يوجه الى الفتاة سؤالا آخر ، بل انه حاول أن يطرح عن ذهنه ما سمع، وأن يعتبره حلما ، أو وهما ! ٠٠ وهبت نسمة دافئة من الجنوب،

لطيفة كزفرة المســـــتيقظ من نعاس ·· وشرع طائر من طيور « الوقواق » يصدح فى ضوء القمر بأنغام رتيبة ·· وانبعث من القوارب الراسية فى المرفأ القريب ، غناء النوتية · واذ تبينت الفتاة سكون «رامش» لكزته فى رقة، متسائلة : « هل نمت؟» ·· فأجابها : « لا » ، ولكنه لم يزد · وما لبثت الفتاة أن استسلمت للنوم فى دعة !

واذ ذاك استوى « رامش » جالسا ، وراح يتأملها ·· ولكنه لم ير على جبينها أثرا للسر الذى خطه القدر · ترى ، كيف تسنى لمثل هذا النحس البغيض ـ الذى أشارت اليه ـ أن يستتر وراء حسن كهذا ؟

الفصل السادس

◆ وما لبث « رامش » أن أيقن أن الفتاة لم تكن الزوجة التى عقد عليهـــا قرانه ! على أنه لم يكن من السهل أن يكتشف ممن كانت قد اقترنت · وعن له مرة أن يسألها فى لباقة ، فقال : « ما الذى خطر لك حين رأيتنى للمرة الأولى عند عقد قراننا ؟ » · فأجابته : « اننى لم أرك ·· اذ لم أوجه اليك بصرى طيلة الوقت »

رامش : « أولم تسمعى اسمى على الأقل ؟ »

الفتاة : « انما سمعت عنك للمرة الأولى فى اليوم السابق لزفافنا ، فقد كانت زوجة خالى تتعجل الخلاص منى ، الى درجة شغلتها عن أن تذكر لى شيئا ·· ولو اسمك ! »

رامش : « لقد علمت ـ بهذه المناسبة ـ انك تعرفين القراءة والكتابة ، فهل تراك قادرة على كتابة حروف اسمك ؟ » ·· وقدم لها ورقة وقلما ، فصاحت فى استهجان : « لعلك تحسبنى أجهل حروف اسمى ! ·· انه فى الواقع ســـهل الهجاء » ، وكتبت بحروف كبيرة : « سريماتى كمالا ديبى »

رامش : « والآن ، اكتبى اسم خالك ! »

وكتبت « كمالا » : « سريجوكتا تاريني تشاران تشاتوباديای » ، ثم تساءلت : « أترانى أخطأت ؟ » ·· فأجابها : « لا ·· ولكن ، هلا كتبت اسم قريتك ؟ »··



فكتبت : « دوبابكور » . وبمثل هذه الحيلة لم يلبث « رامش » أن جمع عددا من البيانات عن حياة الفتاة . على أنه ظل رغم ذلك أبعد ما يكون عن الغاية التى كان يسعى اليها من وراء أسئلته ، ومن ثم عكف على تدبير خطة يتصرف بمقتضاها فى المستقبل . كان الاحتمال الغالب أن زوجها غرق . ولو أنه اهتدى الى أهل هذا الزوج ، وارسل اليهم « كمالا » ، فمن المشكوك فيه أن يقبلوها بينهم . ولم يكن من الانصاف أن ترد الى دار خالها . ثم ، كيف يتلقاها المجتمع ، اذا ما ظهر أنها كانت تقيم كل هذا الوقت مع رجل غير زوجها ، كزوجة له ؟ .. وأين اذن تجد المأوى والرعاية ؟ .. ولو افترضنا أن زوجها كان حيا ، فهل من المحتمل أن يرغب فى استعادتها .. أو أن يقدم على ذلك ؟!

وشعر «رامش» بأنه اذا أقدم على أى تصرف من هذا القبيل ، لألقى بالفتاة فى عرض بحر لا أول له ولا آخر ، وليس لها فيه من هاد ولا دليل ! .. وما كان بوسعه أن يستبقيها معه بأى اعتبار ، سوى اعتبار أنها زوجته ، كما لم يكن بوسعه أن يسلمها الى أى امرىء آخر . ومع ذلك ، فما كان له أن يعيش معها كزوج يعيش مع زوجته ! .. وأصبح من واجبه أن يمحو الصورة الفاتنة التى رسمها لهذه الفتاة ، كشريكة لحياته المقبلة ، رغم أنه أبدع فى رسمها ، وأسبغ عليها ألوانا وضاءة مزجها له الحب !.. كذلك لم يعد فى الامكان أن يقيم معها فى قريته . أما بين الحشد الزاخر من السكان الذين تكتظ بهم (كلكتا) ، فلن يكون أكثر من فرد مغمور .. ولعله يستطيع هناك أن يهتدى الى حل . ومن ثم انتقل بكمالا الى (كلكتا) ، وأقام معها فى مسكن ناء عن ذاك الذى كان يشغله من قبل

ووجدت « كمالا » فى الانتقال تجربة مثيرة .. فما أن استقرا فى مسكنهما

يوم وصولهما ، حتى لزمت النافذة ! .. كان السيل الآدمى الذى يتدفق دون انقطاع تحت بصرها ، كفيلا بأن يثير فى نفسها فضولا لا سبيل الى اشباعه . وكان « رامش » قد استأجر لخدمتها امرأة ثيبا لم تكن طرقات (كلكتا) بالجديدة عليها ، ومن ثم أخذت ترمق عجب « كمالا » وكأنه لون من النزق ، وما لبثت ان هتفت بها : « ما الذى يدهشك فى هذا المنظر ؟ .. أو لن تنهضى للاغتسال ؟ .. ان الوقت يمضى سراعا ! »

وكانت المرأة مكلفة بخدمتهما طيلة النهار ، على أن تنصرف فى المســاء الى دارها ، اذ عز عليهما أن يجدا خادما تبيت معهما . وقال « رامش » لنفسه :«لم أعد أملك أن أنام مع « كمالا » ، ولكن ، كيف تقضى الصغيرة لياليها وحيدة فى مكان لم تألفه ؟ » .. وما أن انصرفت الخادم عقب العشاء - فى الليلة الأولى - حتى قاد « رامش » كمالا الى مخدعها ، وقال : « يحسن بك أن تأوى الآن الى فراشك ، وسألحق بك بعد أن أفرغ من القراءة ! » .. وفتح كتابا ، وتظاهر بالقراءة .. وكانت « كمالا » متعبة ، فلم تلبث أن نامت .. وأفلحت الحيلة فى الليلة الأولى ! وكذلك عمد « رامش » فى الليلة التالية الى اسلام « كمالا » الى السرير وحيدة . وكان الحر شديدا ، فنشر ملاءة على أرض الشرفة المتصــلة بالمخدع ، وقرر أن يقضى ليلته هناك . وظل فترة طويلة مستغرقا فى التفكير ، مستروحا النسمات ، ولكنه ما لبث - حوالى منتصف الليل - أن استغرق فى السبات . غير أنه انتبه من نومه فى نحو الساعة الثانية أو الثالثة صباحا ، على شعور أوحى اليه بأنه لم يكن وحيــدا .. كان ثمة من يجتلب له النسمات بمروحة ! .. وفى شرود النائم ، جذب الفتاة نحوه قائلا بصوت أثقله النعاس : « ألا اذهبى فنامى ياسوسيلا ، ودعى الترويح عنك ! » .. ولكن الخوف من الظلام زين لكمالا أن تستكين الى حضن « رامش » ، وسرعان ما استغرقت فى نوم هادىء

واستيقظ « رامش » مبكرا فى الصباح ، فأجفل مأخوذا ، اذ كانت « كمالا » نائمة وقد طوقت عنقه بذراعها اليمنى ! .. كانت قد فرضت نفسها عليه ، فى ثقة عذبة مفعمة بالاغراء ، فتوسدت صدره . واغرورقت عيناه وهو يتأمل الفتاة النائمة .. كيف يجرؤ على أن يفك الانشوطة الناعمة التى طوقت بها الفتاة عنقه فى اطمئنان ؟ .. وتذكر أنها تسللت الى جواره فى الليل ، لتروح مستجلبة له الهواء . وأرسل زفرة حارة ، وأخذ يتحايل حتى تخلص من عناقها فى رفق ، ثم نهض

★ ★ ★

◆ قرر « رامش » - بعد تفكير طويل ، قلق - أن يلجأ الى حــل مؤقت للمشكلة ، بأن يلحق « كمالا » بمدرسة داخلية للبنات . ومن ثم شرع يزين لها

الفكرة،فسألها:«هل تحبين أن تزدادى علما يا كمالا؟»٠٠فتطلعت اليه الشابة بنظرة قالت بلغة أفصح من الكلام : « ما الذى ترمى اليه ؟ » ٠٠ فاخذ يسهب فى الحديث عن فوائد التعلم ، وما فى الدراسة من متعة ٠ وما كان أحراه بأن يوفر على نفسه الكلام ، اذ كان كل ما قالته « كمالا » هو : « حسنا ، اذن فعلمنى ! » ٠٠ فقال «رامش» : «سألحقك بمدرسة!» ، فهتفت فى عجب : « مدرسة !٠٠ أوتذهب فتاة كبيرة مثلى الى المدرسة ؟! » ٠٠ وابتسم اذ أسندت احتجاجها الى السن ، ثم قال : « ان ممن يذهبن الى المدرسة من يكبرنك فى السن كثيرا ! »

ولم تجد « كمالا » ما تقوله بعد ذلك ٠ وفى أحد الايام ، استقلت عربة مع « رامش » الى المدرسة ، فاذا بها مؤسسة كبيرة ، لا يكاد المرء يحصى من كن فيها من فتيات ، منهن من يكبرن «كمالا» ومنهن من يصغرنها !٠٠ ووكلها «رامش» الى رعاية ناظرة المدرسة ، حتى اذا هم بالانصراف ، تحركت وكأنها تبغى أن تصحبه ، فقال لها : « الى أين تنصرفين ؟ ٠٠ لسوف تمكثين هنا ! » ٠٠ فسألته فى صوت مرتجف : « أولن تمكث أنت الآخر؟ » ٠٠ قال : «لست أملك البقاء!» ٠٠ عند ذاك أمسكت « كمالا » بيده ، وقالت : « اذن ، فليس لى أن أبقى أنا الاخرى٠٠خذنى معك ! » ٠٠ فقال وهو يخلص يده من يدها : « لا تكونى غبية يا كمالا ! » ٠٠ وأفحم هـــذا التأنيب « كمالا » ، فلم تحر كلاما ، وسمرت فى مكانها كالمأخوذة وقد بدا وجهها مسرحا لاختلاجات مؤثرة ٠ وأسرع « رامش » الى الخروج بقلب أثقله الألم ٠ على أنه ـ رغم تعجله ـ لم يستطع أن ينسى منظر ذلك الوجه الجميل ، الصغير ، المرتاع !

الفصل السابع

◆ اعتزم « رامش » بعد ذلك أن ينصرف الى ممارسة المحاماة أمام محـاكم (آليبور) فى (كلكتا) ٠ على أنه كان فاتر الهمة ، اذ كان ينقصه الحافز الذى يدفعه الى العمل فى سبيل غاية معينة ، والى تذليل كل العقبات التى تعترض طريق المحامى الناشىء ٠ وبدأ يكثر من المشى على غير هدى ـ أو لغير ما غاية ـ عند جسر (هوراه) ، أو حول (ميدان الكلية) ٠ وكان قد شرع يفكر فى القيام برحلة الى المناطق الشمالية الغربية ، حين تلقى رسالة من « أنادا بابو » ، حولت اليه من بلدته ٠ وكان الشيخ الجليل قد كتب له : « طالعت فى صحيفة«الجازيت» نبأ نجاحك ، فآلمنى أن لا أسمع هذا النبأ منك شخصيا ٠ ولقد انقضى أمد طويل لم نحظ فيه بأخبارك ٠ فمن واجبك أن تخفف من قلق أصدقائك القدامى ، ولذا نرجو أن تكتب الينا عن صحتك ، وعن موعد حضورك الى كلكتا » ! ٠٠ وما

نرانا نخرج عن الموضوع اذاذكرنا هنا أن الشاب الآخر الذى كان يدرس فى انجلترا ـ والذى كان « أنادا بابو » يضع عينه عليه كزوج لابنته ـ كان قد أتم دراسته ، وسمح له بممارسة المرافعة أمام المحاكم ، وعاد الى الهند فتزوج من شابة ثرية !

وساور الشك « رامش » ـ فترة طويلة ـ فيما اذا كان من حقه ، بعد كل ما جرى ، أن يجدد علاقته بهمنالينى على النسق الذى قامت عليه فى الماضى . اذ ما كان له ـ فى حاضره ـ أن يميط اللثام عن حقيقـــة علاقته بكمالا ، مهما تكن الظروف . فقد كان يشفق على الفتاة البريئة مما يعرضها له هذا التصرف من فضيحة وخزى فى نظر المجتمع . ومع ذلك ، كان من واجبه ، اذا شاء أن يستأنف علاقاته الأولى مع « همنالينى » ، أن يبوح لها بكل شىء !.. على أنه ـ فى أى الحالين ـ لم يجد من الكياسة أن يبطىء فى الرد على خطاب « أنادا بابو » ، ومن ثم كتب له : « أرجو أن تغفروا لى عدم زيارتى لكم ، فقد حالت دون ذلك ظروف فوق ارادتى » !.. وتعمد اغفال ذكر عنوانه الجديد . وفى اليوم التالى ، ابتاع الزى التقليدى للمحامين ، وظهر لأول مرة فى محكمة (آليبور)

وفى ذات يوم ، راق لرامش أن يقطع بعض الطريق على قدميه ، وهو عائد من حى المحاكم . واذ هم بأن يستأجر عربة لتقله الى البيت ، سمع صوتا مألوفا لديه ، يهتف فى عجب : « أبت .. هاهو ذا رامش بابو ! » .. وانبعث صوت رجل يصيح : « قف أيها الحوذى .. قف ! » .. ووقفت عربة على مقربة من المكان الذى وقف فيه « رامش » . فقد كان « أنادا بابو » وابنتـــه عائدين من نزهة استغرقت نهارهما فى حدائق حيوان (آليبور) ، ومن ثم كان هذا اللقاء.وما أن وقع بصر «رامش» على «همنالينى»فى العربة ..«همنالينى» بوجهها السمح اللطيف ، وزيها ، وشعرها المنسق على ذلك النمط الذى ألفه ، والقرطين الكبيرين ، والأساور الذهبية المحيطة بمعصميها .. ما أن وقع بصر « رامش » على كل هذا ، حتى اجتاحت صدره موجة من الانفعال العاطفى هزت كيانه هزا !

وهتف « أنادا بابو » : « هذا اذن رامش ! .. أى حظ أتاح لنا أن نلقاك هكذا فى الطريق ! .. لقد كففت الآن عن الكتابة الينا ، وحتى عندما كتبت لم تعطنا العنوان .. الى أين أنت ذاهب الآن ؟ .. هل أنت ذاهب لتأدية مهمة خاصة ؟ » .. فأجاب « رامش » : « لا .. انما انصرفت لتوى من المحكمة »

ـ اذن ، تعال فتناول الشاى معنا

وكان قلب « رامش » مفعما بالشوق ، ولا مجال فيه للتردد ، فصـــعد الى العربة ، وجلس وهو يغالب الحياء والاحجام بجهد جبار . وسأل « همنالينى » عن صحتها . وبدلا من أن تجيبه ، سألته : « لماذا لم تنبئنى بنجاحك ؟ ».. ولم يسعفه ذهنه بجواب ، فاكتفى بأن قال : « لقد علمت أنك الاخرى نجحت » .. وضحكت « همنالينى » قائلة : « اذن ، فأنت لم تنسنا تماما ! حسنا ، ان هذا

يبشر بشيء من الطمانينة ! » .. وساله « انادا بابو » : « واين تقيم الآن ؟ » .. فقال « رامش » : « في حي داردجيبارا » .. واذ ذاك قال الشيخ الجليل : « ولماذا ؟.. ان مسكنك القديم في حي (كالوتولا) كان ملائما ! » .. وحدقت « همناليني » في « رامش » باهتمام ، مشوقة الى سماع جوابه . ولم تغب هذه النظرة عن « رامش » ، بل لقد أحس بالعتاب الذي انطوت عليه ، فقال متلعثما : « أجل .. لقد اعتزمت أن أعود اليه ! »

★ ★ ★

◆ وكان « رامش » موقنا بأن « همناليني » قد أقامت من نفسها حكما عليه ، ومن ثم وجد نفسه أمامها مذنبا ، وكأنما كان تغيير مسكنه جريمة خطيرة ! .. وأثار الشعور بالذنب في نفسه شجنا مؤلما ، وعجز ذهنه عن أن يلهمه حجة واحدة للدفاع عن تصرفه . على أن هذا التحقيق دار في صمت ـ مؤقتا ـ وتعمدت « همناليني » أن تثبت بصرها على الطريق مشيحة عنه . حتى اذا ثقل الصمت ولم يعد لرامش قبل باحتماله ، تطوع لأن يذكر لها طرفا من سبب تغيير مسكنه، قائلا : « ان لي قريبا يقيم بالقرب من (هدوا) ، ولذلك اقمت في (داردجيبارا) حتى أكون على اتصال به ! » .. ومع أن هذا لم يكن كذبا خالصا ، الا أنه بدا تبريرا ناقصا ، يثير الاستنكار .. كأنما لم يكن حي (كالوتولا) قريبا من حي (هدوا) بحيث يتيح له أن يطمئن من آن الى آخر على قريب له بعيد النسب !

وظلت « همناليني » تحدق في الطريق ، فراح « رامش » المسكين يعصر ذهنه بحثا عن شيء يقال . وما لبث أن تساءل : « ما أخبار جوجن ؟ » .. ولكن الجواب جاءه من « أنادا بابو » ، اذ قال : « لقد أخفق في الامتحان النهائي للقانون ، فذهب الى الريف لتغيير الهواء » ! .. واذ بلغت العربة غايتها ، فعل المسكن المألوف والاثاث فعل السحر في نفس « رامش » ، فأرسل زفرة عميقة ، امتزج فيها الارتياح والحسرة بشكل عجيب ! .. وجلس دون أن ينبس ببنت شفة . وفجأة ، قال « أنادا بابو » : « لعلها أعمال هامة تلك التي حملتك على البقاء طويلا في قريتكم ؟ » .. فقال « رامش » : « لقد مات أبي .. » . ولم يتم عبارته ، اذ صاح الشيخ : « أحق هذا ؟ .. وكيف كان ذلك ؟ »

ـ كان عائدا الى القرية في قارب على نهر (بادما) ، حين هبت عاصفة مباغتة، فانقلب به القارب ، وكان من بين الذين غرقوا .

واكتسح هذا النبأ ما كان بين « رامش » و « همناليني » من فتور ، كما تجرف الريح السحب من السماء ، فلا يلبث أن يسودها الصحو . وقالت « همناليني » لنفسها في أسف : « لكم أخطأت في حق رامش بابو.. كان مشغولا بحزنه على فقدان أبيه ، وبما ترتب على ذلك من متاعب . ولعله لا يزال حزينا حتى الآن .. ولكنا اعتبرناه مذنبا ، ولم يخطر لنا قط أن انشغاله عنا قد يكون

راجعا الى متاعب عائلية أو أعباء من هذا القبيل ! » .. ومن ثم تحولت تغدق رعايتها على الشاب اليتيم ! .. فلما لاحظت أنه لم يصب شيئا مما قدم مع الشاي ، قالت : « أرى انك لست فى صحة طيبة .. يجب أن تعنى بصحتك ! »، ثم التفتت الى « أنادا بابو » قائلة : « يجب أن يتناول رامش بابو عشاءه الليلة معنا ياأبت ! » .. فقال السيد الكهل : « بالتأكيد يا ابنتى ! »

★ ★ ★

وفى تلك اللحظة ، وصل « اكشاى » . وكان ظهور « رامش » غير المرتقب صدمة ساءته ، بعد أن ظل زمنا بغير مزاحم أو غريم على مائدة الشاى بدار « أنادا بابو » . بيد أنه تمالك نفسه ، وهتف فى حبور : « ما هذا ؟ .. أأنت هنا يا رامش بابو ! .. ألا ترى أنك قد نسيت وجودنا تماما ؟ » .. فاكتفى «رامش» بابتسامة واهنة . ولكن «اكشاى» مضى فى حديثه : «عندما رأيت كيف حملك أبوك على الرحيل ، أيقنت انه ولابد سيعتقلك الى أن يتم تزويجك .. فهل استطعت أن تفر من هذا المصير ، بعد الذى جرى ؟ » .. ورمقته « همنالينى » بنظرة ناقمة عقدت لسانه . واذ ذاك قال « أنادا بابو » : « لقد رزىء رامش فى أبيه يا اكشاى » .. ونكس « رامش » رأسه ، ليخفى الاصفرار الذى كسا وجهه فجأة، عند ذكر الزواج . وسارعت «همنالينى» تسرى عنه ، وهى محنقة على « أكشاى » لتحرشه به ، فقالت : « اننى لم أطلعك بعد على مجموعة صورى الجديدة ، يا رامش بابو » .. وأحضرت « الالبوم » فوضعته على المائدة امام « رامش » ، وشرعت تحدثه عن الصور . وانتهزت الفرصة لتقول له بصوت خافت : « أظنك تقيم وحيدا فى مسكنك الجديد يا رامش بابو ؟ » ، فأجاب : « أجل .. وحدى »

– حسنا ، يجب أن تنتقل باسرع ما تستطيع الى مسكنك القديم المجاور !

– نعم ، سأنتقل اليه يوم الاثنين القادم مهما يحدث !

فاستدركت قائلة فى تخابث : « الواقع اننى سأحتاج الى معونة منك – بين آن وآخر – فى دراسة الفلسفة ، لاحصل على « بكالوريوس الآداب » .. واغتبط « رامش » لهذه الفكرة !

الفصل الثامن

وقبل أن يمضى وقت طويل عاد « رامش » الى مسكنه القديم . ولم يبق اثر للغيوم التى خيمت على علاقاته بهمنالينى . بل انه اعتبر كأحد ابناء البيت ، فكان يشترك فى الدعابات العائلية ، ولم يفته قط الحضور فى أية

مناسبة من المناسبات التى كانت الاسرة تحتفل بها . وكان طول استغراق « همناليني » في الاستذكار قد شف جسمها ، حتى كان المرء يخال أن النسيم يوشك أن يقصف عودها !

وكانت « همنالينى » ـ قبل عودة « رامش » ـ كثيرة التحفظ والصمت ، حتى ان أصدقاءها كانوا يحجمون عن الالحاح عليها بالحديث ، خشية أن تردهم فى جفاء . على أن الايام القلائل التى تلت عودة « رامش » الى مسكنه القديم أحدثت تطورا مدهشا فى مظهرها ومسلكها .. فحلت محل صفرة خديها حمرة خفيفة ، واصبحت عيناها ترقصان طربا مع كل كلمة تنطق بها . ولقد مرت عليها فترة كانت ترى فيها أن من الطيش ـ بل من الاجرام ـ أن تبدى اهتماما كبيرا بالثياب. ولكن أحدا لم يقدر له أن يدرك سر ما طرأ عليها اليوم من تطور فى هذا الصدد ، فما كانت لتفضى بدخيلة نفسها الى أحد . اما « رامش » ، فكان كالعهد به دائما ، محرجا ، مرهف الضمير ، كمن يخشى أن يصدر عنه ما يؤاخذ عليه ! .. كان الشعور بالمسئوليات يثقل جسمه وعقله ، على السواء . وما كان ليحيد عن عاداته ولو تغير نظام الكون !.. كان أشبه بالفلكى ، لابد من أن يقيم مرصده وكل أدواته على أسس وقواعد ثابتة ، رغم أن الكواكب تمضى فى أفلاكها طليقة ، حرة من كل قيد !.. وكان لا يحفل ببهرج الدنيا وضجيجها ، ليستغرق فى كتبه وما كانت تتضمنه من فلسفات . على أن وميضا من الخفة والمرح ـ اللذين لم يكن له بهما عهد ـ أشرق اليوم فى ظلام مسلكه المتزمت . ومع انه ظل يجد عناء فى ترويض نفسه على القاء النكات والفكاهات ، الا أنه أصبح لا يتورع عن أن يبدى تقديره للملحة الطيبة ، أو الدعابة البريئة . واذا كان شعره قد ظل محروما من المعاجين والطيب ، الا أنه لم يكن قط زرى الثياب .. ولاح أن جسده وعقله اصبحا أكثر نشاطا ومرحا !

الفصل التاسع

• **تفتقد** (كلكتا) ـ أكثر من أية مدينة أخرى ـ كل تلك المعالم التى أعتاد الشعراء أن يرسموها للبيئة التى تليق بالعشاق من الشباب . فالبساتين المزهرة، والاشجار الوارفة ، والخمائل الملتفة فى أوراق النباتات الزاحفة ، وانغام طائر « الوقواق » الصداح .. كل هذه معالم لا وجود لها فى (كلكتا) ، ومع ذلك فان « الحب » الساحر يأبى أن ينسحب منهزما من المدينة الحديثة

الخالية من الخضرة والجمال . ومنذا الذى يستطيع أن يتعقب هذا الاله – أصغر الآلهة وأقدمها معا – فى جولاته ، وهو ينساب بقوسه وسط حركة المرور الزاخرة ، متسللا خلال مركبات الترام الفولاذية الجدران ، ومتواريا عن عين رجل الشرطة ذى العمامة الحمراء ؟! .. فلقد كان « رامش » و «همنالينى» يسكنان بيتين من بين مجموعة من بيوت حى (كالوتولا) تواجه حانوت اسكافى ، وتجاور متجر بدال ، ومع ذلك انساب غرامهما فى سرعة ويسر ، وكأنهما كانا يقيمان فى خميلتين شاعريتين ! .. ولم يضر «رامش» فى شىء أن تقضى الظروف بان تكون لقاءاتهما حول مائدة « أنادا بابو » العتيقة ، الصغيرة ، ذات الغطاء الملطخ ببقع الشاى ، بدلا من أن تكون حول بحيرة تتناثر على سطحها



زهور اللوتس ! .. وما قدر لأى فتى ريفى – من العشاق الذين تصورهم الاساطير – أن يداعب الحمل الوديع الذى تعتز به حبيبته ، بمثل ذلك الوجد الفياض الذى كان « رامش » يبديه وهو يتحسس عنق القط الذى كانت « همنالينى » تعتز به ! .. وكان القط اذا ما قوس ظهره ، ونهض متمطيا ، بدا لعينى الشاب المفتون أجمل المخلوقات التى يكسوها الفراء !

كذلك كانت «همنالينى» قد أهملت الحياكة والتطريز ، عندما

وقفت كل سنيرها على الاستعداد للامتحان . ومن ثم قضت وقتا في تلقى بعض الدروس على يدى احدى صديقاتها . على أن « رامش » كان يرى فى التطريز عملية غير لازمة ، وغير جديرة بأى اهتمام جدى .. فقد كان فى وسعه أن يلتقى بهمنالينى فى ميدان الأدب وأحاديثه ، أما فيما يتعلق باشغال الابرة ، فلم يكن له ثمة مجال لارتياد ميدانها ! .. وكان لا يفتأ يهتف بحبيبته فى شىء من العتاب : « فيم شغفك بالتطريز فى هذه الايام ؟ .. انه ملهاة اولئك اللائى لا يجدن عملا يفضله ! » .. فكانت « همنالينى » تبتسم فى صمت ، وهى منهمكة فى ايلاج الخيط فى ثقب ابرتها

وخطر لاكشاى يوما أن يقول فى سخرية لاذعة : « ان رامش بابو يزدرى كل شىء فى الدنيا له نفع ! .. أنه قد يتخذ من أى فيلسوف أو شاعر الها معبودا ، ولكن ما درج عليه من استهانة بكل شىء ذى قيمة ، لا يلبث أن يحيد به عن الاستغراق فى العبادة ! » .. وأثار هذا القول ثائرة « رامش » ، فتأهب لجدال حامى الوطيس ، بيد أن « همنالينى » اعترضته قائلة : « لماذا تحفل دائما بالرد على ما يقال يا رامش بابو ؟ .. ما أكثر ما فى الدنيا من لغو لا قيمة له ! » .. وانحنت تحصى عدد الغرز التى صنعتها ابرتها ، ثم عادت تدس الابرة بانتباه خلال الحرير ..

ودخل « رامش » ذات يوم حجرة مكتبه ، فاذا على مائدة الكتابة كراسة من ورق النشاف ، فى غلاف من حرير مزين بزهور مطرزة . وفى أحد الاركان ، نقش الحرف « ر » ، بينما نقشت زهرة « اللوتس » فى ركن آخر بخيط من القصب . ولم تساور «رامش» الحيرة طويلا ، فما لبث أن فطن الى شخصية صاحبة الهدية ، والى الباعث الذى حملها على تقديمها ،فتسارعت دقات قلبه . وتلاشى كل احتقاره لاشغال الابرة ، فانقلب فى لحظة الى متحمس لهذه الاشغال ، متأهب للدفاع عنها أمام كل

انسان ۰ واذ ضم كراسة ورق النشاف الى صدره ، بدا مستعدا لان يعترف بخطأه ، ولو لأكشاى نفسه !۰۰ وفتح الكراسة ، فوضع فيها قطعة من الورق ، وراح يكتب : « **لو انني كنت شاعرا ، لارسلت لك نسخة من أشعارى ۰۰ أما وأنا كما تعرفين ، فانى عاجز عن أن أقدم لك ما يتكافأ مع هديتك ۰ لقد حرمت نعمة البذل ، ولكن ثمة نعمة فى الأخذ ۰۰ ان ما تعنيه هذه الهدية غير المرتقبة ، لهو سر بين الاله العليم ونفسي ! ۰۰ والهدية ذاتها قد ترى وتلمس ، أما عرفانى للجميل فشىء لا يرى ولا يلمس ، وانما يكفيك أن أذكر لك اننى سأظل الى الابد مدينا لك ــ رامش** » ۰۰ وتلقت « همنالينى » الرسالة ، ولكنها و « رامش » لم يشيرا اليها بعد ذلك قط !

★ ★ ★

◆ **وأقبل** فصل الامطار ۰۰ والامطار تدخر فوائدها عادة للريف ، أما لاهل المدن ، فهى ليست نعمة مشتهاة ، اذ تتجه الجهود باسرها الى تفادى البلل ، وفى سبيل هذا يغلق أصحاب الدور نوافذهم ، ويعززون سقوفهم ، ويرفع عابرو الطرق المظلات فوق رؤوسهم ، وتسدل ستائر مركبات الترام ۰۰ ومع ذلك يظل الجميع يخوضون فى الماء والوحل طيلة الوقت ۰ هذا ، بينما يستقبل النهر ، والجبل ، والغابة ، والحقل ، مقدم المطر ، بصيحات الترحاب ، وكأنه صديق حميم ۰۰ ولكم نرى المطر فى أبهى آياته ، فى بيئته الطبيعية !۰۰ فعندما تتحد أصوات السماء والارض لتحية السحب المطيرة ، يغيب كل نغم ناشز ! ۰۰ والعشاق الشبان يرحبون بالمطر كالجبال! فاذا كان انهماره لم يزد « أنادا بابو » سوى نهم ، الا انه لم يقو على أن يغرق روحى « همنالينى » و « رامش » !۰۰ وكثيرا ما كان المطر يحول دون ذهاب « رامش » الى المحكمة ، اذ اخذ يهطل بغزارة يوما بعد يوم ، الى درجة كانت تدفع « همنالينى » الى أن تقول لرامش وهو يتأهب للانصراف من دارهم بعد تناول الشاى : « كيف

تستطيع أن تعود الى دارك فى مثل هذا الجو يا رامش بابو ؟ »
•• فيجيب رامش فى استحياء : « هذه مسألة بسيطة ••
سأستطيع ذلك بطريقة ما ! » •• فتقول « همنالينى » مستحثة:
« ما الجدوى من أن تبتل وتصاب ببرد ؟ •• من الافضل أن تمكث
لتتناول العشاء معنا » !

ولم يكن « رامش » بالذى يخشى على صحته ، فمما لاحظ
أصدقاؤه وأقاربه انه عرضة للتأثر بالبرد بسهولة • ومع ذلك،
فقد أخذ ينصاع بسرعة مدهشة لما كانت تمليه عليه «همنالينى»
فى الايام الممطرة ، وأصبح السير تحت المطر ـ ولو الخطوات
القلائل التى تفضى به الى داره ـ يعتبر تهورا آثما ! •• وعندما
كانت السماء تبدو اكثر اكفهرارا وانذارا بالسيل من المألوف ،
كان « رامش » يدعى الى غرفة « همنالينى » ليشترك فى الفطور
أو العشاء ، حسب الوقت ! •• وكانت « همنالينى » لا تخشى على
جهازه الهضمى من الاكل خشيتها على صدره من البرد ! ••
وهكذا، راح الشابان يقضيان أيامهما ـ يوما بعد اخر ـ متدثرين
بعواطفهما ! •• ولم يفكر « رامش » مطلقا فى نتيجة هذا كله ،
ولكن « أنادا بابو » فكر فيه ، كما وجده أصدقاؤه وأقاربه
مادة لاحاديثهم ! •• فان ما أوتيه « رامش » من وعى بالامور
الدنيوية ، لم يكن يعادل ما أوتيه من لباقة وبلاغة • وقد أسدل
افتتانه بهمنالينى ستارا كثيفا على نظرته الى شئون الحياة
الاجتماعية ، فلم يفطن الى ما ينبغى أن يكون بعد هذا الانسياق
للهوى ! •• وكان « أنادا بابو » يتفرس فى وجهه كل يوم ،
مستطلعا ، متسائلا ، فلا يتلقى الجواب المرتقب !

الفصل العاشر

• لم يكن صوت « أكشاى » بالرخيم ، ولكن أى ناقد ما كان
ليتردد فى أن يسأله المزيد اذا ما غنى وهو يعزف على قيثارته !

٠٠ ولم يكن « أنادا بابو » شديد الشغف بالموسيقى ، بل انه ما كان ليزعم ذلك ولو على سبيل المجاملة ، الا انه أوتى وسائله الخاصة التي كان يلجأ اليها اذا ما رأى أن محبى الموسيقى قد أسرفوا فى ارضاء ميولهم على حسابه٠ فاذا سأل أحد «أكشاى» أن يمضى في الغناء من جديد ، تدخل « أنادا بابو » قائلا : « ما ينبغى لك هذا فى الواقع ٠٠ انكم لترهقون المسكين لمجرد أنه يجيد الغناء ! » ٠٠ وكان « أكشاى » يرد فى لباقة : « هذا صحيح يا أنادا بابو ، فلا تأبه لهم ٠٠ ولكن ، من الظالم ومن المظلوم فى هذا الارهاق ؟ » ٠٠ فيقول الشخص الذى سأله أن يغنى : « هذا ما سنقرره بعد أن تجود علينا بأغنية أخرى ! »

واكفهرت السماء بعد ظهر ذات يوم بسحب ثقال ، وأخذ الليل يقترب دون أن يكف المطر عن الانهمار ٠ وحال السيل دون انصراف « أكشاى » ، فاقترحت «همنالينى» عليه أن يغنى، وشرعت فى ضبط أوتار « بيانو » صغير (من ذلك النوع الذى يسهل نقله ، والذى نستخدمه في البنغال) ، فضبط «آكشاى» بدوره أوتار قيثارته ، ثم انطلق يغنى مقطوعة هندوكية ٠ ولم تكن لغة الاغنية مألوفة للسامعين ، ولكن غموض الكلمات لم يضايقهم في شيء ٠٠ فان أتفه الاشارات ترضى النفوس ، اذا ما كانت المشاعر فى أوج جيشانها ٠ وكان المعنى العام للاغنية واضحا : كانت السحب المطيرة ترسل قطراتها ، والطواويس تصيح ، وثمة عاشق ينوح من أجل حبيبته ! ٠٠ وكان «أكشاى» يحاول أن يبث أغنيته ما كان يعتلج في فؤاده من مشاعر لا يجسر على البوح بها ، ولكن محاولته لم تنجح الا فى تحريك عواطف شخصين آخرين ، كانا على مقربة منه ٠٠ فاذا قلبان يخفقان فى تجاوب ، ويغوصان فى لجج اللحن ! ٠٠ ولم يعد فى الدنيا شيء يلوح لهما تافها أو قاتما ، وانما بدت الدنيا لهما مسفة فى غلالة من ضباب وردى ٠٠ وكأنما اجتمع كل ما خفقت به قلوب البشر من وجد ــ منذ الخليقة ــ ثم اخذ ينهمر على هذين العاشقين ،

ويتغلغل في كيانيهما بكل ما كان يحتويه من لذة وعذاب ، ومن حنين وأسى !

ولم ينقطع المطر ٠٠ ولا الغناء ! ٠٠ ولم يكن على «همنالينى» سوى أن تقول : « لا تسكت يا أكشاى بابو ، بل أسمعنا أغنية ثانية » ، فينطلق « أكشاى » ـ دون أى تمنـــع ـ فى أغنيـة جديدة !٠٠ وعزف فيما عزف ، وهـــو يغنى ، لحنا كأفواج من سحب قاتمة مدلهمة ، يمرق البرق خلالها٠ لكن اللحن كان رغم ذلك يثير كوامن الشجن فى القلب البشرى !٠٠ وكان الليل قد اكتهل عندما انصرف « أكشاى » الى داره فى تلك الليلة ٠ واذ تأهب « رامش » للانصراف ، رمق « همنالينى » لحظـة ، وكأنه يتأملها خلال صدى انغام الاغنية ٠٠ واستقبلت « همنالينى » نظرته بنظرة حالمة ، اذ كان سحر اللحن قد اسـتولى عليها !٠٠ وكان المطر قد كف لحظة عن التساقط ، ولكن،ما أن عاد «رامش» الى داره ، حتى عاد الماء ينصب انصبابا

* * *

● ولم ينم « رامش » فى ليلته ٠ وكذلك جلست «همنالينى» فى ظلام مخدعها طويلا ، تنصت بوعى شارد الى وقع قطـــرات المطر ، وكلمات الاغنية الاولى تتردد فى أذنيهـا ٠ حتى اذا كان الصباح التالى ، قال « رامش » لنفسه : « آه !٠٠ ليتنى أجيـد الغناء !٠٠ ما كنت لأحجم عن النزول عن أية موهبة من مواهبى فى مقابل هذا ! » ٠٠ ولكنه كان يدرك أن أى لـــون من ألوان التدريب لا يمكن أن يجعل منه مغنيا ، وان كان فى وسعه أن يتعلم العزف على أية أداة موسيقية ، على الاقل !٠٠ وتذكر أنه فى احدى المناسبات ، وجد نفسه وحيدا فى قاعة الجلوس فى دار « أنادا بابو » ، فأجرى القوس على أوتار القيثارة ٠٠ وكانت هذه الجرة الواحدة ، كافية لان تجعله يهفو الى تعلم الموسيقى ! ٠٠ على أن اله الموسيقى راح يلومه فى عنف ـ فى أحـلامه ـ ويوحي اليه بان الاتجاه الي اجادة العزف علي القيثارة أمر لاينبغي

أن يطمع فيه ، ومن ثم خفف من غلوائه ، واشترى معزفا (بيانو) صغيرا ، وضعه فى غرفته ، ثم أوصد الباب ، وشرع يجرى عليه أصبعه في حذر · ولم يطل به الوقت حتى تبين أن « البيانو » الصغير أقل اجهادا وتطلبا للبراعة من القيثارة !

وعندما ظهر فى دار «أنادا بابو» بعد ذلك ، بادرته «همنالينى» مجاملة . « سمعنا بالامس شخصا يعزف على « البيانو » الصغير فى مسكنك ! » ·· وكان « رامش » قد ظن أنه باغلاق البــاب يصبح بمنجى عن الاسماع ، ولكنه تبين أن ثمة شخصا مرهف السمع ، التقط الاصوات التى انسابت خــلال بابه المغلق !·· واضطر الى أن يعترف باستحياء ، فقالت « همنالينى » : « لا جدوى من أن تحبس نفسك ، لتقوم بمحاولات يائسة على أمل أن تعلم نفسك ·· بل الافضل أن تأتى فتتدرب هنا ، اذ اننى على دراية بأصول العزف بعض الشىء ، وسيكون فى وسعى أن أؤدى لك بعض العون ! » ·· فقال رامش : « اننى ثقيل الفهم، وسيكون تدريبى من أشق المهام عليــك ! » ·· قالت : « بل لسوف أعلمك كل ما أعرف ، مهما تكن خجولا ! »

وسرعان ما ظهر أن « رامش » لم يكن مغاليا فى التواضع ، حين وصف نفسه بانه ثقيل الفهم فى الموسيقى · فقد كان من العسير عليه أن يثير فى نفسه أى ميل اليها ، رغم معونة مدربته الحسناء !·· أفرأيت رجلا لا يعرف السباحة ، يهوى فى بركة ، فيروح يضرب الماء بيديه وقدميه فى جنون ؟·· هذا المثال يدلك على مدى تخبط « رامش » ، وان كان الماء فى هــذه الحال غير عميق ، اذ لم يتجاوز ركبتيه !·· لم تكن لديه أضأل فكرة عن حركة أية أصبع ، وكان يدق نغما ناشزا فى أى مقطع دون أن يفطن ، إذ كان انسجام الانغام وتنافرها سواء لديه !·· وكان يخرق كل أصول العزف دون أن ينتبه قط ، فاذا صاحت همنالينى: « ما الذى تفعله ؟·· هذا خطأ ! » ، أسرع الى اصــلاح خطأه بخطأ آخر !·· على أن صاحبنا « رامش » الصــلب الرأى ،

دؤوب ، لم يكن بالذى ينفض يديه من أية مهمة بسهولة٠ وكما تمضى آلة تمهيد الارض (وابور الزلط) فى طريقها متثاقلة ، غير حافلة بما تهشم وتسحق تحتها ، كذلك راح « رامش » يدق – فى غير ترفق ، ولا انتباه – على مفاتيح آلته الموسيقية التعسة! ٠٠ وكانت « همنالينى » تضحك من اخطائه، بل كان هو الآخر يضحك منها ٠٠ **وكانت مقدرته الفائقة على ارتكاب الاخطاء تروق للجانب الضاحك من ادراك « همنالينى » !٠٠ فللحب مقدرة على أن يستخلص المتعة والبهجة من الاخطاء ، ومن عدم التناسق ، ومن العجز !٠٠** وكما انحب الأم ينساب فياضا كلما أخطأ طفلها الخطو ، وهى تعلمه المشى ٠٠ كذلك كان انعدام أى ذوق أو ميل موسيقى لدى « رامش » مبعث متعة خفية لدى « همنالينى » !

ولقد قال « رامش » مرة ، أو اثنتين : «بديع جدا ان تضحكى منى هكذا ، ولكن ٠٠ ألم تكونى تخطئين بدورك عندما كنت تتعلمين العزف ؟ » ٠٠ فكانت تجيب : « كنت أخطىء بالتأكيد ، ولكننى أصارحك يا رامش بابو بان اخطائى لم تكن لتقاس طلقا بأخطائك ! » ٠٠ ولم يعقه شيء من هذا ، بل كان يضحك م يبدأ من جديد ٠ ولم يكن «أنادا بابو» – كما أسلفنا – بالذى يعقه شيئا فى الموسيقى ، ولكنه كان يتكلف الاصغاء أحيانا ، نيرهف السمع ، ثم يقول : « قولى ما شئت فى عزفه ، ولكن « رامش » أوشك أن يكون أستاذا ! »

همنالينى : « أستاذ فى النشاز ! »

أنادا بابو : « لا ، لا ٠٠ لقد تحسن كثيرا عما كان حين سمعته لاول مرة ٠ وثقى بانه لن يلبث أن يغدو عازفا لا بأس به، اذا هو ثابر على المران ، فليس هناك من سبيل للاجادة سوى المران المتواصل ٠٠ وما أن يحفظ « النوتة » حتى يغدو الطريق ممهدا امامه ! »

ولم يكن ثمة وجه للاعتراض على مثل هذا القول ٠٠ فقد اعتادت الاسرة أن تتلقى فى احترام وصمت ، ما يضعه الشيخ الجليل من قواعد وقوانين !

الفصل الحادى عشر

♦ تشبه عطلة « البوجا » فى (البنغال) ، عطلة عيد الميلاد لدى الانجليز ، فتعطل الاعمال لعشرة ايام او ما يقرب من ذلك ، ويلتئم شمل الاسرات ٠ وكان « أنادا بابو » — فى خريف كل عام تقريبا — ينتهز فرصه أجور السفر التى تخفض بمناسبة موسم العطلات هذا ، فيرحل الى (جوبولبور) للاستجمام وتغيير الجو ، مصطحبا ابنته ، فيقيمان فى ضيافة شقيقة له ، كان زوجها من موظفى الحكومة هناك ٠ وكان « أنادا بابو » ينظر الى هذه الرحلة السنوية كفرصة لتقوية جهازه الهضمى !

واقبل شهر سبتمبر ، فاقترب موعد العطلة ، وشغل « أنادا بابو » بالاستعداد للرحلة ٠ وكان غياب « همنالينى » كفيلا بان يعطل دروس العزف ، لذلك حرص « رامش » على أن يفيد من أكبر قسط من الوقت الباقى قبل سفرها ٠ وفى ذات يوم ، قالت « همنالينى » فى سياق الحديث : « أعتقد أن فى تغيير الجو نفعا كبيرا لك يا « رامش بابو » ، فان الرحيل عن (كلكتا) — ولو لأمد قصير — كفيل بان يفيدك ! » ٠٠ ورأى « أنادا بابو » أن الاقتراح معقول ، فقد عانى « رامش » — كثيرا — من الحزن والحداد ، ومن شأن الترحال أن يشفيه من اكتئابه ٠ وقال الشيخ : « من المؤكد أن تبديل الهواء الذى تعيش فيه لبضعة أيام شى رائع ٠٠ أتعرف يا « رامش » اننى لاحظت أن الانسان لا ينتفع من الذهاب الى الريف أو الى سواه ، الا فى الايام القلائل الاولى ٠٠ فان شهية الانسان تتفتح خلال الاسبوع الاول ، فيأكل

برغبة ونهم ، ولكن الامر لا يلبث بعد ذلك أن يعـود الى ما كان عليه ، بلا اختلاف ، فيعاوده شعوره القديم بمتاعب المعـدة ، والحموضة ، وما الى ذلك ، كلما أكل ! »

همنالينى : « هل رأيت (تربودا) يا رامش بابو ؟ »

رامش : « لا ٠٠ لم أرها قط »

همنالينى : « خليق بك أن تراها ٠٠ أليس كذلك يا أبت ؟ »

أنادا بابو : « اسمعى ٠٠ لماذا لا يأتى رامش معنا ؟ لسـوف يبدل الجو ، ويشهد فى الوقت ذاته صخور الرخام ! »

ورؤى أن هذا النفع المزدوج أمر ضرورى لشفاء « رامش » ، فلم يجد سبيلا الى المعارضة ٠ وخيل اليه فى ذلك اليوم أن كيانه كله يسبح فى الهواء ٠ ولكى يهدىء من خفقان قلبه الصاخب ، أغلق باب مسكنه خلفه ، وتحول الى معزفه ٠ وضاقت نفسـه بالتزام الاصول والدقة ، فراحت أصابعه تتراقص ـ كالمجانين ـ على مفاتيح المعزف ، مرسلة عاصفة من الانغام الثـائرة ، غير المنسجمة !٠٠ **كان التفكير فى قرب فراقه لهمنالينى قد أسلمه من قبل الى الهموم ، أما الآن ، فان الفرح الطاغى اخرجه عن طوره ، فلم يحفل بكل ما تعلم ـ بعد عناء ـ من أصول العزف !**

* * *

• **وقطع** عليه استرساله ، طرق على بابه ، وصوت يصيح : « كف يا رامش بابو ، بحق السماء !٠٠ ما هذا الذى تفعله ؟ » ٠٠ واحتقن وجه « رامش » غيظا ، وفتح الباب ، فولج «أكشاى» قائلا : « ألا ترى يا رامش بابو انك بالاغراق فى رذيلتك الخفية هذه ، تعرض نفسك للعقاب اذا مثلت أمام نفس المحكمة التى تترافع فيها ؟ » ٠٠ فضـحك « رامش » قائلا : « أقر بأننى مذنب ! » ٠٠ وعاد « أكشاى » الى الحديث ، فقال : « لدى أمر أريد أن أحدثك فيه يا رامش بابو ، اذا لم تر مانعا » ٠ وارتقب « رامش » حديث « أكشاى » فى صمت ، وهو يعجب مما قـد

يكون عنده • وما لبث « أكشاى » أن قال : « لعلك قد عرفت بعد كل هذه المدة ، أن سعادة همنالينى ليست بالمسألة التى أستهين بها ؟ » •• ولم يجب « رامش » بنعم أو بلا ، وانما ظل صامتا ينتظر ما بعد هذه المقدمة • وما لبث « أكشاى » أن قال : « اننى كصديق لأنادا بابو أرى من حقى أن أسألك عن نواياك ازاء همنالينى ؟! »

وأحس « رامش » بنفور من الكلمات ، ومن اللهجة التى قيلت بها ، بيد انه لم يشأ - ولم يستطع - ان يجيب بجفاء ، وانما رد فى هدوء قائلا : « هل هناك ما يوحى اليك بان لدى نوايا سيئه ؟ » •• فقال « أكشاى » : « اسمع •• انك تنتمى الى أسرة هندوكية ، وقد كان أبوك هندوكيا • وما صحبك الى القريه ليزوجك ، الا لانه كان يخشى أن تتزوج هنا من احدى بنات الاسرات البراهمية •• اننى اعرف ذلك ! » •• وكان « أكشاى » يعرف ذلك بالفعل ، وهو الذى وشى به الى الشيخ الجليل ، والد « همنالينى » !•• وظل « رامش » لحظات لا يقوى على التطلع الى وجه « أكشاى » ، بينما استانف هذا حديثه : « أفتظن ان وفاة أبيك المفاجئة قد جعلتك حرا تفعل ما تشاء ؟ •• عندما كانت رغبته ••• »

وهنا قطع عليه «رامش» استرساله وقد نفد صبره : «اسمع يا أكشاى بابو •• اذا كان لديك أى موضوع آخر تتطوع فيه بنصحى ، فالى بهذا النصح وسوف أنصت لك •• أما علاقتى بوالدى ، فليست من شانك فى شىء ! » •• فقال أكشاى : « حسن جدا •• لندع هذه الناحيه •• انما الذى ابغى معرفته هو : هل تعتزم الزواج من همنالينى ؟ وهل أنت فى وضع يمكنك من هذا؟!» •• وكانت هذه الطعنات المتتالية أكثر من أن يتحملها « رامش » ، رغم هدوء طبعه ، فقال : «اسمع، ياأكشاى بابو •• قد تكون صديقا لأنادا بابو ، ولكنى واياك لم نبلغ من

الود حدا يسمح لك بان تتكلم بهذه الطريقة ٠٠ فهلا تكـرمت وتحولت عن هذا الموضوع ؟ »

أكشاى : « اذا كان تحولى عن الموضوع معناه اغفال المسألة كلها ، وتركك تمضى ـ الى ما لا نهاية ـ فى الاستمتاع بالحيـاة التى تحياها ، دون ما حساب للعواقب ، لما ملكت أن أقول شيئا ٠٠ ولكن المجتمع ليس مجرد ساحة صيد لمن هم على شاكلتك ممن لا يحفلون بالعواقب ٠ وربما كانت لديك اسمى الحوافز ، كما انك قد لا تحفل مطلقا بما تقوله الدنيا عنك ، **ولكنك جدير بان تدرك أنك معرض لان تدعى الى تقديم حساب عن تلاعبك ـ دون وازع ـ بفتاة فى مثل وضع همنالينى ٠٠ هنـاك من سوف يناقشونك الحساب ، واذا كنت تعتزم أن تثير فضيحة حول قوم تحترمهم ، فامض فيما انت ماض فيه من مسلك ! »**

رامش : « أشكر لك نصيحتك ، وسأقرر ـ حين يحلو لى ـ المسلك الذى ينبغى على أن أسلكه ، بمحض رغبتى ، فلا تشغلن بالك بالامر ٠٠ ولا داعى لان نمضى فى هذا الحديث ! »

أكشاى : « يسرنى ان اسمع هذا يا رامش بابو ، فشد ما يريح بالى أن أعرف أنك ستفكر فى الامر ، وتقرر مسلكا تنتهجه ، وان كان خليقا بك أن تسرع فى هذا التفكير !٠٠ على اننى لن أمضى فى مناقشتك فى هذا الصدد ، فاغفر لى أن قطعت عليـك تدريباتك الموسيقية ، وارجو أن تعود اليها ، فاننى لن أثقـل عليك ! » ٠٠ واسرع « أكشاى » منصرفا !

على أن « رامش » لم يعد يشعر بميل الى العزف ، وانمـا استلقى على حشية ، وقد عقد راحتيه تحت رأسه ، وغفل عن الزمن ، وعن الساعات وهى تنصرم تباعا ٠ ولا يعلم غير السماء أى قرار انتهى اليه ، ولكنه ولا شك رأى لزاما عليه أن يسعى لفوره الى بيت جاره ، وان يحتسى قدحين من الشاى !

* * *

• **وهتفت** همنالينى حين رأته : « أمـريض أنت يا رامش

بابو ؟ » ٠٠ فأجاب رامش : « ليس هناك ما يستحق أن تشغلى به بالك ! » ٠٠ وهنا تدخل « أنادا بابو » قائـــلا : « لا بد ان جهازك الهضمى يعانى بعض الاختلال ٠٠ انه مجرد اضطراب فى الصفراء٠٠ألا جرب قرصا واحدا من الاقراص التىأتناولها!» ٠٠ فابتسمت « همنالينى » وقطعتعليه حديثه قائلة : «حسبك يا أبت!٠٠انك تريد من كل أصحابك أن يتناولواهذهالاقراص، مع اننى لم أر واحدا منهم قد أفاد منها ! »

أنادا : « بل الارجح أن أحدا لم يضار منها ٠٠ لقد تبينت بالتجربة أن أى نوع آخر من الاقراص التى تعاطيتها لم يفدنى قدر ما افادتنى هذه ! »

همنالينى : « انك ما شرعت مرة فى تناول نوع جديد مـن الاقراص الا واعتبرته ـ خلال الايام الاولى ـ خير الانواع ! »

أنادا : « انكم لا تصدقون ما أقول ٠٠على رسلكم اذن!٠٠ ألا اسألوا أكشاى عما اذا كان قد انتفع من علاجى أو لم ينتفع !»

وتحولت « همنالينى » عن الموضوع ، لمجرد ذكر « أكشاى » ٠٠ غير أن « الشاهد » أقبل فى تلك اللحظة ، وكأنما سـاقه القدر ليؤدى الشهادة دون ايعاز ، اذ كان أول ما قاله ، مخاطبا « أنادا بابو » : « عليك اليوم ان تعطينى أحد تلك الاقـراص ، فقد أفادتنى اعظم فائدة ، وانى لأحس اليوم بانى عـلى خير ما يرام ! »

فرمق « أنادا بابو » ابنته فى انتصار وزهو !

الفصل الثانى عشر

• **كان** «أنادا بابو»على استعداد لانيحبذ انصراف «أكشاى» بمجرد تناوله القرص ، ولكن « أكشاى » ـ من ناحيته ـ لم يبد أية رغبة فى التعجيل بالانصراف ، بل ظل يرمق « رامش » من

ركن عينه فى غير رضى . ولم يكن «رامش» حريصا على أن يراقب نظراته ، ولكنه – مع ذلك – لم يتمالك أن لاحظ تلك النظرات غير الراضية ، فأحس بانها تقض هناءته !

وكانت « همنالينى » تتحدث – طيلة الوقت – عن الرحلة المرتقبة الى (جوبولبور) ، اذ كان موعدها قد اقترب . وكانت قد عقدت عزمها على أن تنتهز أول زيارة لرامش ، كى تحدثه عن المشروعات التى رسمتها لعطلة العيد ، ولتتشاور معه بصدد الكتب التى يحملانها معهما ليقرآها فى أوقات فراغهما . ومن ثم فانهما كانا قد اتفقا على أن يبكر « رامش » فى الحضور ، فان تأخره حتى موعد الشاى ، يترك مجالا لأكشاى – أو أى زائر آخر تسوقه المصادفة – كى يعكر عليهما حديثهما الخاص ! ..

ولكن الظروف شاءت أن يتأخر «رامش» فى الحضور .. بل لقد تأخر عن موعده المألوف فى كل يوم ، فلما وصل أخيرا ، بدا مشغول البال ، مهموما . وأحست «همنالينى» باكتئاب لمنظره ، فتحينت الفرصة لتقول له بصوت خافت : « لقد تأخرت اليوم كثيرا ! » .. وبدا « رامش » شارد الفكر ، اذ مضت هنيهة قبل أن يجيب قائلا : « اجل .. أظننى كذلك »

وكانت « همنالينى » قد بذلت عناية خاصة بمظهرها – فى ذلك اليوم – مرتقبة تبكيره كما اتفقا . فنسقت شعرها ، وتأنقت فى ملبسها قبيل العصر ، ثم جلست تنتظره ، وعيناها لا تتحولان عن الساعة . وراحت تعلل نفسها بأن ساعة «رامش» متأخرة عن الوقت ، وانه لن يلبث أن يفد . فلما خاب فألها ، انتقلت الى جوار النافذة ، وانهمكت فى التطريز وهى تغالب القلق ، وزاد الطين بلة ، ذلك الوجوم الذى كان يلوح على «رامش» عند وصوله ، والذى شغلت به عن محاولة تبرير تأخره . وخيل اليها أنه نسى تماما وعده لها بالحضور مبكرا . ومن ثم كانت فترة تناول الشاى ، فى ذلك اليوم ، من أثقل الاوقات

على نفس « همنالينى » • فلما قدر لها أن تنتهى أخيرا ، بذلت الفتاة جهدا فى تبديد الشرود عن بال « رامش » •• وكانت ثمة كتب على مائدة لصق الحائط ، فحملت هذه الكتب ، متظاهرة بنقلها الى خارج الغرفة •• وأيقظت حركتها «رامش» من اكتئابه ووجومه ، فاذا هو الى جوارها ، يتساءل : « الى أين تنقلين هذه الكتب ؟ •• ألم نتفق على أن ننتقى اليوم ما سوف نأخذه معنا منها ؟ »

وارتجفت شفتا « همنالينى » ، وقمعت ــ بعناء ــ الدموع التى وثبت الى عينيها ، ثم قالت فى صوت مرتجف : « لا بأس •• ليس بوسعنا أن نقوم الآن بالاختيار ! » •• واسرعت صاعدة الى مخدعها ، فألقت بالكتب على أرض الغرفة !•• وزاد فرارها هذا من غم « رامش » وكربه • وقال « أكشاى » وهو مغتبط فى قرارة نفسه : « انك لا تبدو فى حال طيبة يا رامش بابو ! » ، فغمغم « رامش » بكلمات لم يتبينها أحد •• ولكن « أنادا بابو » التقط ما ذكره « أكشاى » عن صحة « رامش » ، وقال : « لقد حدست هذا ــ فى نفسى ــ حين رأيته ! » •• وهنا استطرد « أكشاى » قائلا ، وهو يضحك فى قرارة نفسه : « ان أمثال رامش بابو يرون من مظاهر الضعف أن يولوا صحتهم أى اهتمام •• انهم يعيشون فى آفاق الفكر ، فاذا اختل جهازهم الهضمى ظنوا أن من المشين لهم أن يتحروا السبب ! »

وشرع « أنادا بابو » فى القاء محاضرة عن انتظام الهضم ، وكيف أنه ضرورى للفيلسوف ، كما هو لأى انسان آخر • وجلس « رامش » بين الرجلين ، متحملا المضض من حديثهما فى صمت • وما لبث « أكشاى » أن قال : « نصيحتى لك يا رامش بابو أن تتناول قرصا من أقراص « أنادا بابو » ، وأن تأوى الى الفراش مبكرا!» ، فقال رامش باقتضاب : « بل أريد أن اتحدث الى « أنادا بابو » فى أمر أنتظر الفرصة لمفاتحته فيه ! » ••

وهنا نهض « أكشاى » عن مقعده ، واستأذن من رب الدار في الانصراف ، قائلا : « عجبا لك ! ٠٠ كان خليقا بك أن تنبئني مبكرا ٠٠ ان « رامش بابو » يجلس الساعات وهو يكتم ما بنفسه ، ثم يلقيه على رأس المرء بعد فوات الأوان ! »

وما أن خرج ، حتى ثبت « رامش » بصره على مقدمة حذائه ، وشرع يقول : « لقد كان من حظى يا « أنادا بابو » أن حظيت بالتردد على دارك ، وبأن أعامل كفرد من الأسرة ٠٠ وليس بوسعى أن أبين لك مدى اعتزازى بهذا ! » ٠٠ فأجاب « أنادا بابو » : « هذا صحيح ، فأنت صديق ابني « جوجن » ، ومن الطبيعي أن نعاملك كأخ له ! » ٠٠ وأحس « رامش » بشيء من الارتباك ، كراقص بدأ في الرقص ثم نسى الخطوة التالية ، فقال « أنادا بابو » يسرى عنه الحرج : « الواقع اننا المحظوظون ، اذ ظفرنا بشاب مثلك يا رامش نعتبره ابنا لنا ! » ٠٠ ولكن هذا لم يلهم « رامش » شيئا ، فاستطرد « أنادا بابو » قائلا : « لعلك أدركت أن الاقاويل أصبحت تقرن اسمك باسم همناليني ٠٠ والناس يقولون ان على الفتاة أن تختار أصدقاءها في حذر فائق ، اذا ما أدركت سن الزواج ٠ ولكنني أرد على ذلك قائلا : « انني أثق برامش كل الثقة ، فهو رجل ، وما أحسبه يغرر بنا ! »

رامش : « انك تعرف كل شيء عني يا أنادا بابو ، فاذا رأيتني أهلا لهمناليني ، ف ٠٠٠ »

أنادا : « لا تزد ٠٠ الواقع أن ذهني اتجه الى هذا بالفعل ، ولولا انك كنت في حداد على أبيك ، لفاتحتك انا في الامر ٠٠ اما الآن ، فلم يعد ثمة داع لارجاء الموضوع يا بني ٠٠ ان الناس يتقولون ، ولابد لنا من أن نقضى على مثل هذه التقولات في أقرب وقت ممكن ٠٠ ألا ترى هذا ؟ »

رامش : « الرأى رأيك ٠٠ على ان لابنتك القول الفصل في هذا ، بطبيعة الامر »

أنادا : « هذا حق ، ولكنى أعتقد اننى أعرف ما سوف يتجه اليه رأيها .. ولسوف نبحث الامر في صباح غد ،على أية حال، ونتخذ فيه قرارا حاسما »

رامش : « أخشى أن أكون قد استبقيتك طويلا ، فيحسن بى الآن أن أستأذن في الانصراف »

أنادا : « بل ابق لحظة .. ألا ترى من الخير أن يتم القــران قبل رحيلنا الى جوبولبور ؟ »

رامش : « يخيل الى أن المدة الباقية لا تتسع ! »

أنادا : « صحيح أنه لم يبق أمامنا سوى عشرة أيام ، ولكن في وسعكما أن تتزوجا فى يوم الاحد القادم ، فيظل لدينا يوم أو يومان لنستعد للرحيــــل . ولعلك تدرك يا رامش اننى لا أستحثك على العجلة استغلالا لموقفك ، ولكنى فى الواقع أتعجل الامر ، حتى أتفرغ للاهتمام بصحتى ! »

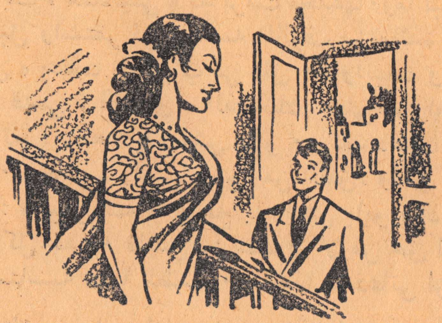
وأقر « رامش » قوله ، وابتلع حبة من أقراص « أنادا بابو »، ثم انصرف !

الفصل الثالث عشر

◆ **كانت** عطلة مدرسة « كمالا » قد اقتربت ، ولكن «رامش» اتفق مع الناظرة على أن تبقى الفتاة بالمدرسة خلال تلك العطلة. وفى الصباح التالى لحديثه مع « أنادا بابو » ، استيقظ مبكرا ، وذهب الى المحكمة . وما أن انتهى من قضاياه ، حتى ســـلك احدى الطرق غير المأهولة ، المفضية الى (الميدان) .. أهم ساحات (كلكتا) . وواصل تفكيره أثناء مشيه ، فانتهى الى أن من الخير أن ينبىء « همنالينى » بكل شىء عن « كمالا » قبــل الزواج ، على أن يشرح الموقف بأسره لكمالا فيما بعد . وبذلك يتسنى له تفادى أى سوء تفاهم . بل ان « كمالا » لن تلبث أن تجد في « همنالينى » صديقة ، وأن توافق على الاقامة مــع

الزوجين الشابين · وتوقع أن تثير اقامة ثلاثتهم معـــا بعض الأقاويل ، اذا استقروا بين من يعرفونهم ، ومن ثم قرر«رامش» أن ينزح مع الشابتين الى مدينـــــة (حظريباغ) ، وان يمارس المحاماة هناك

وما أن وصل « رامش » الى الحى الذى يقيم فيه ، حتى اتجه الى دار « أنادا بابو » ، فصادف « همنالينى » على السلم · وكان



مثل هذا اللقاء ـ فى الظروف العادية ـ فرصة ينتهزانها ليندمجا في حديث ودى · اما فى هذه المرة ، فقد تضرج وجه «همنالينى»، وأشرقت على وجهها بسمة خفيفة كأولى خيوط الفجـــــر ، ثم أسرعت بالانسحاب وهى تغض بصرها !·· ورجع « رامش » الى مسكنه ، وراح يجرى اصابعه على معزفه الصغير ، محاولا أن يوقع اللحن الذى دربته « همنالينى » على عزفه · ولكنه مالبث أن مل العزف ، فتحول الى أحد دواوين الشعر · ولكنه أحس بأن الشعر الذى يرقى الى آفاق غرامه السامية لم يخلق بعد!·· كذلك خيل لهمنالينى ـ فى ذلك النهار ـ انها تطير غبطة · ولم يحن منتصف النهار ، حتى كانت قد فرغت من أعمالها المنزلية، فاعتكفت فى مخدعها وانصرفت الى التطريز والحياكة ، وقـــد

تألق محياها الوادع باشراقة من هناءة روحية شملت كل كيانها، وكأنما اطمأنت الى مصيرها فى الحياة !

وقبل موعد الشاى المعتاد بفترة طويلة ، طرح « رامش » عنه ديوان الشعر ، وتحول عن معزفه الصغير ، واسرع الى دار «أنادا بابو» . وكانت «همنالينى» – فى الظروف العادية – تخف اليه دون ما تلكؤ . ولكنه ألفى الغرفة خالية ، فى عصر ذلك اليوم ، اذ كانت « همنالينى » قد لزمت مخدعها . وما لبث « أنادا بابو » أن أقبل واستقر فى مجلسه المألوف من مائدة الشاى . وظل « رامش » يتلفت الى الباب فى قلق .. وانبعث وقع قدمين، ولكنهما كانا قدمى « أكشاى » الذى بادر يهنىء « رامش » فى ود بالغ ، هاتفا : « أهلا يا رامش بابو .. لقد ذهبت اليك فى مسكنك!» .. وخامر « رامش » شىء من القلق، ولكن «أكشاى» ضحك قائلا : « ليس ثمة ما يزعج يا رامش بابو ، اذ لم أكن أنتوى سوى كل خير .. فليس من شك فى أن من حق أصدقائك أن يهنئوك بمناسبة النبأ الطيب .. وهذا ما دعانى لزيارتك»!

ونبه هذا القول « أنادا بابو » الى غياب « همنالينى » ، فناداها ، ولكنه لم يتلق جوابا ، ومن ثم صعد الى الطابق العلوى يبحث عنها .. وصاح بها : « ما هذا يا هيم (اسم التدليل لهمنالينى) ؟ ... الا تزالين عاكفة على أعمال حياكتك؟ .. ان الشاى معد ، و « رامش » و « أكشاى » هنا » .. فقالت وقد تضرجت وجنتاها بحمرة خفيفة : « أرجو أن ترسل لى الشاى هنا يا أبت ، اذ لابد لى من أن أفرغ مما فى يدى ! »

– هكذا انت دائما يا « هيم » !.. ما أن تبدى اهتماما بشىء، حتى تنسى كل ما عداه . فعندما كنت تتأهبين للامتحان ، لم تكونى ترفعين أنفك عن كتابك . وها أنتذى تنصرفين الآن الى الحياكة ، فتأبين أن تفعلى أى شىء آخر . لا ، لا .. هذا لا يليق مطلقا !.. هيا !.. لا بد أن تهبطى فتتناولى الشاى معنا !

وأوشك أن يجرها جرا على درجات السلم ، حتى لانت أخيرا. واتجهت الى مائدة الشاى مباشرة ، وتظاهرت بالانهماك فى صبه فى الاقداح ، دون أن ترفع بصرها لتحيى الضيفين ،فهتف بها « أنادا بابو » : « ما هذا الذى تفعلينه يا « هيم » ؟ لماذا تضعين سكرا فى قدحى وأنت تعلمين أننى لا أتناوله اطلاقا ؟» . وضحك « أكشاى » وبدأ يمازحها قائلا : « انها لا تستطيع أن تكبح سخاءها اليوم ، فهى توزع الحلوى على كل انسان ! » .. ولم يطق « رامش » أن يسمع « أكشاى » يرضى روحه الساخرة على حساب « همنالينى » ، فقرر أن يحذف اسمه من قائمة أصدقائهما بمجرد زواجهما !

وبعد أيام قلائل ، كانت مائدة الشاى تجمعهم مرة أخرى ، حين قال أكشاى : « خليق بك أن تبادر الى تغيير اسمك يارامش بابو » .. على أن تظرفه المتكلف لم يزد « رامش » الا كراهية له ، فسأله فى جفاء : « ولماذا ؟ » ، فقال « أكشاى » وهو يبسط أمامه احدى الصحف : « اليك النبأ .. لقد اوعز طالب يدعى « رامش » الى طالب آخر بأن يؤدى عنه الامتحان ، منتحلا شخصيته ، وبذلك قدر له أن ينجح . ولكن أمره افتضح فى النهاية ! » . وكانت « همنالينى » تدرك أن « رامش » ليس سريع البديهة فى الرد على الدعابات الواخزة ، فآلت على نفسها أن تتولى الرد . ومن ثم كظمت غيظها ، واصطنعت اللطف وهى تقول : « اذا كان هذا قياسا ، فخليق بكل « أكشاى » أن يكون نزيل السجون ! » .. وصاح أكشاى : « واها لك ! .. أحاول أن أقدم نصيحة ودية ، فاذا بك تعتبرينها اهانة . حسنا ، سأفضى اذن بما عندى .. انكم لتعرفون أن اختى الصغرى « سارات » ، تتردد على المدرسة العليا للبنات . ولقد جاءتنى ليلة أمس قائلة : « أتعرف أن زوجة رامش بابو فى مدرستنا؟ »، فقلت لها : « يالك من غبية! .. أوتظنين أن ليس فى الدنيا من

« رامش » سوى صديقنا ؟ » . واذ ذاك قالت : « أيا كان ذلك الشخص ، فانه غير حفى بزوجته .. ان كل الفتيات سيرحلن الى أهلهن في عطلة العيد، ولكنهاعتزم أن يبقى زوجته بالمدرسة. يا للمسكينة !.. انها لا تكف عن البكاء ! » .. عندئذ قلت لنفسى : « هذا لا يصح ..كم من أناس خليقون بأن يظنوا ما ظنته سارات بسبب الاسم ؟ »

وقهقه « أنادا بابو » قائلا : « الحق انك مجنون يا أكشاى ! .. كيف يغير « رامش » اسمه لمجرد ان « رامش » آخر ترك زوجته تبكى فى المدرسة ؟ » .. غير أن « رامش » امتقع فجأة، واسرع يغادر الغرفة ، فصاح أكشاى : « ماذا جرى يا رامش بابو ؟..الى أين تذهب ؟ ..هل أسأت اليك ؟ ما أظنك تؤول قولى على أننى أرتاب فيك ! » .. وهتف « أنادا بابو » : « لماذا كل هذا؟ » .. ولدهشته،انبثقت الدموع من عينى «همنالينى»، فصاح : « ما هذا يا « هيم » ؟ .. ما الذى يبكيك ؟ » .. قالت منهنهة : « ما كان يليق باكشاى بابو أن يقول هذا يا أبت !.. كيف يهين ضيفا فى دارنا ؟ » .. فقال الشيخ : « انما كان أكشاى يمزح ، فلماذا تحملان كلامه على هذا المحمل ؟ » .. فقالت « همنالينى » وهى تندفع صاعدة الى غرفتها : « اننى لا أطيق هذا اللون من المزاح ! »

* * *

◆ **وكان** « رامش » قد حرص ـ منذ عودته الى (كلكتا) ـ على أن لا يدخر وسعا للبحث عن زوج « كمالا » ، فكتب الى خالها ، المدعو « تارينى تشاران » . وقد وافاه الجواب فى اليوم التالى للحادث السالف ، اذ كتب اليه « تارينى تشاران » يقول انه لم يسمع أى نبأ عن « نالينا كشا » ـ زوج كمالا ـ منذ النكبة التى حاقت بموكب العرس . واذ كان « نالينا كشا » طبيبا يمارس مهنته في (رانجبور) ، فان « تارينى تشاران »

تحرى عنه هناك ، ولكنه لم يعثر على أى نبأ عنه ، فضلا عن أنه لم يكن يدرى شيئا عن موطن أسرته٠٠ومن ثم استبعد «رامش» أن يكون زوج « كمالا » على قيد الحياة !

وتلقى « رامش » فى اليوم ذاته عدداً من الخطابات ٠ فقد سمع بعض أقاربه نبأ زواجه المرتقب ، فكتبوا يهنئونه ٠وطالبه بعضهم بأن يقيم وليمة حافلة ، بينما عتب عليه البعض الآخر – على سبيل المزاح – أن كتم عنهم أنباءه طوال هذه المدة ٠وفيما كان يطلع على هذه الرسائل ، أقبل خادم من لدن « أنادا بابو »، يحمل اليه رسالة ، فخفق قلبه فى عنف ، اذ تبين الخط الذى كتبت به !٠٠ كان خط « همنالينى » ٠ وقال لنفسه : « لم يكن يسعها سوى أن ترتاب فى أمرى ، بعد الذى قاله « أكشاى » ٠٠ وها هى ذى قد كتبت الى لتطمئن ! » ٠٠ وفض الخطاب ، فاذا به جد موجز : « كان أكشاى بابو سمجا الى درجة فظيعة بالامس ٠ لماذا لم تأت فى هذا الصباح ؟ لقد ارتقبتك ٠ لماذا تحفل بما قال أكشاى بابو ؟ انك لتعلم أننى لا أعير حماقته أذنا ٠ لابد أن تبكر فى الحضور اليوم ،ولن أتولى حياكة شيء ، فى انتظارك ! » ٠٠ **ولمس « رامش » خلال هذه السطور القلائل مدى الالم الذى عاناه قلب « همنالينى » الرقيق ، فترقرقت الدموع فى عينيه ٠ لقد كانت تصبو من صميم فؤادها الى أن تريق من عواطفها بلسما على جرحه ، ولابد أن هذه الرغبة لازمتها طوال ليلها ، فلما لم يتح لها ارضاؤها فى الصباح ، لم تعد تقوى على كبح لهفتها ، فنفثتها فى هذه الرسالة ٠٠ كان الامر جليا !**

* * *

● **وكان** قد رأى فى أمسه أن لابد له من أن يصارح « همنالينى » بحقيقة موقفه فورا ، ولكن الحديث الذى صدر عن « أكشاى » جعل السبيل الى المصارحة شاقا ، لأنها ستبديه فى

مظهر المجرم الذى ضبط متلبسا ، فحاول التماس المبررات ! .. فضلا عن أنها ستعزز موقف « أكشاى » ، وفى هذا هوان لرامش ! .. وخطر له أن « أكشاى » حدس – ولابد – أن زوج « كمالا » رجل آخر يحمل اسم « رامش » ، والا لما سكت كل هذه المدة ، ولما اقتصر على اثارة الشكوك ، بل لعمد الى اعلان الامر من فوق قمم البيوت! .. ودعت هذه الخواطر كلها «رامش» الى ان يسعى ليتجنب المتاعب مؤقتا ، بدلا من أن يخوضها !

واذ بلغ هذا القرار ، حمل اليه البريد رسالة جديدة ، ما أن فضها حتى ألفاها من ناظرة مدرسة البنات ، وقد كتبت تقول له ان « كمالا » حزنت أبلغ الحزن لما قرره من بقائها فى المدرسة خلال العطلة ، ومن ثم فان ادارة المدرسة لا يسعها أن تتحمل مسئولية بقائها ، وسترسلها اليه ، فعليـــه أن يستقبلها فى داره ! .. وكان موعد هذه العودة يوم السـبت ، فى حين أن زواجه كان مقررا يوم الاحد ! .. وقطع عليه حبل تفكيره فى هذه الازمة ، صوت « أكشاى » وقد أقبل يقول : « ألا اصفح عنى يا رامش بابو ! .. لو خطر لى أنك ستعتبر مثل هــذه الدعابة العادية اهانة ، لآثرت الصمت . ان الناس لا يكرهون المزاح الا اذا انطوى على شيء من الحقيقة ، أما وهذه الدعابة لا تقوم على أى أساس ، فلست أدرى ما الذى ساءكم جميعا .. ان « أنادا بابو » ينحى على باللوم منذ قلتهـا ، و « همنالينى » لا تخاطبنى .. وقد ذهبت لزيارتهما فى هذا الصباح ، فبارحت هى الحجرة بمجرد دخولى .. لماذا يتملككم كل هذا الغضب منى ؟ »

– لست فى حل من أن أوضح لك الامر فى الوقت الحاضر ، فأرجو أن تعفينى .. فضلا عن أن لدى بعض المشاغل

– آه ! .. تدابير العرس ! .. لعل رجال الموسيقى يطلبون بعض أجرهم مقدما .. أراك مشفقا على وقتك من أن يتبدد ، لذلك لن أثقل عليك .. فى رعاية الله !

وما أن أنصرف « اكشاى » ، حتى أسرع « رامش » الى دار « أنادا بابو » ، فاذا « همنالينى » فى غرفه الجلوس تنتظر ، وقد توقعت أن يبادر الى هذه الزيارة المبكرة • وكان القماش الذى تطرزه ملقى على المائدة ، بينما استقر المعزف الصغير على مقربة منها •• كانت تتطلع الى ان تنعم ببعض الموسيقى ، ولكنها فى الواقع لم تكن تبغى النوع العادى من الموسيقى •• فهناك نوع آخر من الموسيقى لا تسمعه سوى الروح •• وقد تاقت الى هذا النوع ! •• وترافصت على شفتيها ابتسامة واهنة حين دخل « رامش » الحجرة ، ولكن هذه الابتسامة تلاشت حين بادرها قائلا : « أين أبوك ؟ »

– فى حجرته • لماذا ؟ أتريده فى أمر ما ؟ لن يلبث أن يهبط لتناول الشاى

رامش : «لابد لى من أن أراه فورا ، لامر هام لايحتمل ارجاء!»

همنالينى : « حسن جدا •• ستجده فى غرفته »

وخرج « رامش » • وساءلت الفتاة نفسها : أحقا هو أمر هام ، عاجل ؟ •• أمر يرجأ من أجله كل ما عداه ؟••حتى الحب يضطر الى الانتظار ، ريثما يفرغ من هذا الامر ؟!•• وخيل لهمنالينى أن صباح الخريف المشرق يتنهد فى أسى ، وهو يرى الابواب الذهبية توصد دون ذخيرته من الفرح والسرور !•• ونحت مقعدها بعيدا عن المعزف الصغير ، وجلست الى المائدة تطرز •• ولكن ابرة أخرى ، خفية ، راحت تخز قلبها •• واستغرق « رامش » فى مهمته أمدا طويلا ، فبدأ « الحب » يقلق ويتضرع !

الفصل الرابع عشر

◆ عندما دخل « رامش » غرفة « أنادا بابو » ، وجد رب البيت مستسلما الى اغفاءة فى مقعده ، وصحيفته على وجهه • على انه سرعان ما استيقظ مجفلا حين

سعل « رامش » ، فأشار الى الصحيفة ، وشرع يحدث ضيفه عما ورد فيها من أنباء ازدياد الوفيات بسبب انتشار وباء الكوليرا فى المدينة ٠٠ ولكن « رامش » اتجه الى هدفه مباشرة ، فقال : « اننى أرجو تأجيل عقد القران لبضعة أيام ، اذ لدى مهمة عظيمة الأهمية ! »

وطارت أنباء الوفيات فى (كلكتا) من رأس « أنادا بابو » أمام هذا التصريح المثير للدهشة ، فحملق فى « رامش » متسائلا : « ما الذى تعنيه يا رامش ؟ ٠٠ لقد أرسلت الدعوات ! »

— تستطيع أن تكتب اليــوم الى المدعوين تنبئهم بأن الزواج أرجىء الى يوم الأحد بعد التالى

— انك تذهلنى يا رامش !٠٠ ان ارجاء أمر كهذا ليس فى سهولة ارجاء اية قضية فى المحكمة ٠٠ فليس من الميسور أن تطلب التأجيل وتجاب اليه لمجرد انه يروق لك ٠ ثم ما هذا العمل العظيم الأهمية الذى يدعوك للتأجيل ؟!

رامش : « انه جد هام وعاجل ، وليس بوسعى ارجاؤه ! »

وتهالك « أنادا بابو » فى مقعده كشجرة أسقطها اعصار ، ثم قال : « ليس بوسعنا نحن ارجاء القران !٠٠ يالفكرتك من بديعة ٠٠ رائعة !٠٠ حســنا ، بوسعك أن تفعل ما يحلو لك ، وانى أترك لك أن توضح الامر لأولئك الذين دعوناهم ٠ واذا سألنى أحد ، فسأقول له : لا أدرى شــيئا عن الامر ٠ ان الزوج أدرى بشئونه ، وسيخبركم عن الموعد الذى يروق له أن يتزوج فيه ! »

وظل « رامش » يحدق فى الأرض ، بينما استطرد « أنادا بابو » قائلا : «هل فاتحت همنالينى فى الأمر ؟ » ٠٠ فأجاب « رامش » : « لا ٠٠ انها لم تعرف بعد شيئا عنه ! »

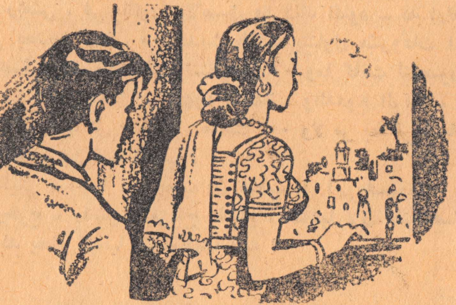
أنادا : « بل يجب أن تعرف فورا ٠٠ فان الزواج يعنيها كما يعنيك ! »

رامش : « رأيت ان أنبئك أولا »

فصاح « أنادا بابو » مناديا : « هيم ! ٠٠ هيم ! » ٠ واقبلت « همنالينى » قائلة : « نعم يا أبت ! ! » ، فقال لها : « ان رامش يقول ان لديه عملا هاما ، ووقته لا يتسع للزواج فى الآونة الحاضرة ! » ٠٠ وامتقع وجه « همنالينى » ، واتجهت عيناها الى وجه « رامش » فى تساؤل ٠ وما كان اى مجرم فوجىء ملطخ اليدين بالدم ، ليشعر ببعض ما خالج « رامش » اذ ذاك من شعور !٠٠ ما توقع أن يزجى النبأ الى « همنالينى » بمثل هذا الأسلوب الجاف ، فحدثته مشاعره بمدى الصدمة التى ترتبت على مثل هذا الاعلان غير المتلطف ٠ على أن السهم لا يرتد الى قوسه اذا ما انطلق!٠٠ وقد ايقن «رامش» أن السهم اصاب قلب «همنالينى»٠ ولم يعد من سبيل الى تخفيف الحقيقة القاسية ، اذ لم تكن هنــاك حيلة ازاء الواقع الذى يفرض تأجيل الزواج !٠٠ لقد كان لدى « رامش » عمل هام ، يأبى

أن يفضى به ٠٠ هذه هى الحقيقة ، فكيف تصاغ فى قالب ألطف ؟٠٠ وما لبث « أنادا بابو » أن التفت الى ابنته قائلا : « حسن ٠٠ الشأن شأنكما ، وعليكما أن تنظرا فيما ينبغى فعله ! »

ورفعت « همنالينى » عينيها بنظرة تشبه شعاع الشمس الغاربة ، حين يترامى على صفحة سماء مكفهرة ، وقالت : « لست أدرى عن الأمر شيئا يا أبت ! » ، وبادرت مغادرة الحجرة ، فالتقط « انادا بابو » صحيفته ، وتظاهر بالانصراف الى المطالعة ، ولكنه فى الواقع كان يقدح ذهنه ٠ وظل « رامش » ساكنا ، دقيقة او اثنتين ، ثم نهض فجأة وخرج ٠ وما أن ولج قاعة الجلوس الكبيرة ، حتى ألفى « همنالينى » تقف عند النافذة ، وهى تحدق فى الطريق صامتة ٠ كان ثمة سيل من الآدميين يتدفق فى كل شارع وحارة ، تدفق النهر اذا ما فاض ، وقد أشرقت وجوه الناس جميعا ، ارتقابا لعطلة العيد



وتردد « رامش » اذ فكر فى الوقوف بجانبها ٠ وجمد لحظة عند الباب ، وأخذ يتأمل الفتاة الواقفة بلا حراك ، يلفها ضوء الخريف المنساب من النافذة التى قامت كاطار أحاط بصورة قدر لها أن تلصق بذاكرته فلا تغيب عنها !٠٠ كانت أدق ملامحها واضحة : قوس خدها الرقيق ، وخصلات شعرها المعقوص ، والشعيرات الخفيفة المحيطة بعنقها ، وبريق القلادة الذهبية ، وانسدال ثوبها فى أناقة عن كتفها اليسرى ٠٠ كل هذه الدقائق طبعت على صفحة ذهنه السقيم آثارا لا تمحى ! ٠٠ وما لبث أن سعى نحوها وئيدا ٠٠ ولكنها لم تفطن الى حبيبها ، بل راحت تمعن فى تأمل المناظر التى كانت تتوالى على الطريق٠ وارتجف صوت « رامش » وهو يبدد الصمت قائلا : « أرى لزاما على أن أسألك صنيعا !»

وأحست « همنالينى » برنة الألم فى صوته ، فالتفتت اليه،وهتف «رامش»: « لا تفقدى ايمانك بى ! ٠٠ طمئنينى الى انك لن تفقدى الثقة فى ٠٠انني لأشهد

السماء على انى ساظل أهلا لثقتك ! » •• وكانت تلك هى المرة الأولى التى يغفل فيها كل تكلف في الحديث تقتضيه المجاملة ! •• ولم يجسر على أن يضيف كلمة الى ما قال ، وانما نشر الدمع غلالة على مقلتيه ، فتأملته « همناليني » في اشفاق. وحين تفرست في وجهه ، ذاب قلبها وانساب دمعها على وجنتيها • وهكذا التقت نظرات الحبيبين خلال الدمع ، وهما يقفان متجاورين لدى النافذة ، في عزلة عما حولهما • ومع انهما لم ينبسا بكلمة ، الا ان سكينة مطمئنة هبطت على قلبيهما ، فتذوقا في عذوبتها طعم النعيم !

وبدد « رامش » الصمت بزفرة حرى ، ثم قال : « افتدرين لماذا رجوت تأجيل الزواج ؟ » • فهـزت « همنـاليني » رأسـها •• لم تشـأ أن تعرف ! •• وعاد « رامش » يقول : « سأنبئك بالقصة كلها بعد زفافنا ! » •• وبعث ذكر الزفاف حمرة واهنة الى وجنتي الفتاة ! ••كانت « همناليني » ـ وهى تتأهب لاستقبال رامش ، في باكورة الأصيل من ذلك اليوم ـ قد ارتقبت بقلب مغتبط ان تحظى بحديث زاخر •• حديث خافت يتناول مشروعات المستقبل ، ويعرض صورا مصغرة للسعادة التى تنتظرهما •• وما كانت لتتصور مطلقا انهما سيتبادلان في دقائق قلائل ، العهود الخالدة ، والدموع المراقة ، وانهما لن يتحدثا ، بل سيقفان جنبا الى جنب في صمت !•• ولا مر بخاطرها ما في راحة البال ، والثقة المطلقة ، من نعيم للقلب !

وقالت « همناليني » أخيرا : « يجب ان تذهب الى أبى فـورا ، فهو ولابد مستاء ! » •• وخرج « رامش » مرتاح الخاطر ، متأهبا لأن يفتح صدره ، غير حافل بأية طعنة قد يحلو للدنيا أن توجهها اليه !

الفصل الخامس عشر

◆ تطلع « انادا بابو » في لهفة وقلق الى « رامش » ، اذ عاد الى الغرفة ، فقال الشاب : « اذا أسلمتنى قائمة المدعوين فسوف أكتب لهم جميعا اليوم عن تعديل التاريخ »

ـ اذن ، فأنت مصمم على التأجيل ؟

ـ أجل ، فليس من حيلة في ذلك !

أنادا بابو : « حسنا ، اسمع يا بنى •• تذكر انني انفض يدى من الأمر كله •• عليك أن ترتب كل شيء بنفسك ، فانى اربأ بنفسى عن ان اجعلها أضحوكة • واذا كنت تريد أن تجعل من موضوع الزواج لونا من ألعاب الأطفال ، فليس لرجل في مثل سني أن يزج بنفسه في الأمر • هاك قائمة بأسماء من دعوت •

لقد أنفقت مبلغا كبيرا من المال ، وسيذهب أكثره دون ما جدوى ، ولكنني لن أقبل أن أبدد نقودي هباء ! » .. فأكد « رامش » استعداده لأن يتحمل كافة النفقات، وأن يقوم بكل التدابير . حتى اذا هم بالانصراف ، قال « أنادا بابو » : « هل استقر رأيك على المكان الذى ستمارس فيه المحاماة بعد الزواج يا رامش ؟ .. ما أظنك ستبقى فى (كلكتا) ؟ »

رامش : « لا ، بل أرجو أن أوفق الى مكان ملائم فى الشمال »

أنادا بابو : « فى الشمال ؟ .. هذه فكرة طيبة .. فلا بأس بمدينة (ايتاواه) مثلا ، اذ أن جوها من أنسب الاجـواء للجهاز الهضمى ! .. لقد قضـيت مرة شهرا فى ربوعها ، فوجدت أن بوسعى أن آكل هناك ضعف ما آكل هنا . ولعلك تدرك يا بنى أن الفتاة هى ابنتى الوحيدة، وأن أحدنا لن يسعد بعيدا عن الآخر، وهذا ما يحملنى على أن أسألك أن تختار مقرا يلائم الصحة ! »

أما وقد أساء « رامش » اليه بالتأجيل ، فقد رأى « أنادا بابو » أن يستغل الفرصة ليملى بعض مطالب تروق له . وما كان « رامش » ـ فيمـا اعتراه من اضطراب البال ـ ليتردد فى أن يوافق على النزوح الى أبعد البقاع وأوعرها ، بل الى أقصى قمة تغيب فى الضباب .. ومن ثم قال : « بديع جدا ، سـأنضم الى محامى ايتاواه ! » .. وخرج بعد أن أخذ قائمة أسماء المدعوين.وما أن انصرف، حتى أقبل « أكشاى » ، فعلم من « أنادا بابو » أن « رامش » قد أرجأ زواجه أسبوعا

أكشاى : « أحق هذا ؟..ليس له أن يرجىء ! كيف يفعل والموعد بعد غد؟»

أنادا : « ما كان له أن يفعل ذلك .. ان الناس العاديين لا يقدمون على مثل هذا التصرف ، ولكن كل شىء جائز لديكم يا رجال اليوم ! »

وتظاهر « أكشاى » بالاستياء والوجوم ، بينما انطلق ذهنه يعمل فى سرعة . ثم قال أخيرا : « انك تغمض عينيك عن كل الاحتمالات ، حين تخال أنك وجـدت زوجا صالحا لهمنالينى . خليق بكل أب أن يستوثق من كل أمور الرجل الذى سيعهد اليه بابنته بقية عمرها . ما ينبغى أن تستغنى عن الحذر ، ولو ازاء ملاك يهبط من السماء ! »

أنادا : « اذا لم يكن شاب ـ مثـل رامش ـ بمنجى عن الريب ، فليس فى العالم شخص يمكن الركون اليه ! »

أكشاى : « هل أدلى اليك بسبب للارجاء ؟ »

فقال « أنادا بابو » وهو يفرك يديه : « لا ، لم يدل الينا بسبب . كل ما قاله ، حين سألته ، هو أن لديه عملا هاما » .. فأشاح « أكشـــاى » ليخفى ابتسامة خبيثة ، وقال : « اذن ، فلعله كاشف ابنتك بالسبب ؟ »

أنادا : « اظنه فعل »

أكشاى : « ألا يحسن بك أن تدعوها وتستوثق منها ؟ » .

فقال « أنادا بابو » : « أجل ! » ، ثم صاح مناديا « همنالينى » ، فلما أقبلت ورأت الشخص الذى كان معه، تعمدت أن تجلس خلف أبيها ، بحيث لا يتاح لأكشاى أن يرى وجهها . وسألها « أنادا بابو » : « هل أبدى لك رامش سببا لارجاء الزواج ؟ » .. فهزت « همنالينى » رأسها ، قائلة : « لا ! » .. وعاد يسألها : « أولم تسأليه ؟ » .. فقالت : « لم أسأله ! » .

أنادا بابو : « يا له من أمر عجيب ! .. ويا لكما من زوجين ! .. انه يأتى فيقول : « ان وقتى لا يتسع للزواج » ، فتبادرين قائلة : « لا بأس ، لنتزوج فى أى يوم آخر » .. ثم تهملان الموضوع ! » .

وتظاهر « أكشاى » بالانحياز الى صف « همنالينى » ، فقال : « لا تنس ان المرء ينبغى أن لا يلح على شخص يبين بوضوح انه غير راغب فى ابداء أسبابه ! .. ولو كان السبب مما يمكن الافضاء به ، لباح لكما به « رامش » من تلقاء نفسه ! » .. واحتقن وجه « همنالينى » غيظا ، وقالت : « لا أحب أن أسمع رأى طرف ثالث فى هذا الموضوع ، فأنا شخصيا مقتنعة بالأمور فى أوضاعها الراهنة ! » . وأسرعت تغادر الحجرة

واكفهر محيا « أكشاى » ، ولكنه اغتصب ابتسامة ، وقال : « هكذا الدنيا .. اذا حاولت أن تؤدى لصديق خدمة ، كان التقريع جزاءك !.. ان هذا يوضح لك ان الصداقة أمر لا قيمة له . على أننى أرى من واجبى كصديق أن أعرب عن ارتيابى فى « رامش » ، ولو كرهتمونى وأسأتم الى من أجل هذا .. فليس لى أن أقف مكتوف اليدين اذا رأيت المتاعب تتهددكم .. انها نقطة ضعف فى نفسى !.. وعلى أية حال ، فسوف يحضر « جوجندرا » غدا ، فاذا سمع القصة كلها ، ولم يجد ما يدعوه للقلق من أجل اخته ، فلن أنبس ببنت شفة ! » .

وأدرك « أنادا بابو » ان هذه كانت اللحظة المناسبة ـ من الناحية النفسية ـ ليسأل « اكشاى » عما يعرفه من مسلك « رامش » . ولكن الذى يحاول أن يخرق سرا غامضا ، قد يفتح ثغرة لاعصار يجتاحه هو ! .. وكان الشيخ المسن يكره هذا بطبعه . ومع ذلك ، فانه لم يتمالك أن قال : « انك كثير الوساوس يا أكشاى ! .. اذا لم يكن لديك دليل ، فلماذا ... ؟ » .. وكان « أكشاى » قديرا على كبح زمام نفسه ، ولكن هذا التعريض أثاره ، فانفجر قائلا : « اسمع يا أنادا بابو .. انك تستفز كل حوافز الشر فى نفسى ! .. انك توحى باننى أكن للزوج المرشح لابنتك ضغينة ، واننى أثير الريب حول رجل برىء . اننى لست من البراعة بحيث أحذق تعليم السيدات الفلسفة ، ولا أزعم لنفسى القدرة على الحديث معهن فى الشعر .. ما أنا الا انسان عادى ، ولكننى كنت دائما محبا ومخلصا لك ولأسرتك . واذا لم أكن ندا لرامش بابو فى شىء ، الا أننى

افخر بانى ما كتمت عنك شيئا ما • اننى قادر على ان اتملكك وانال منك ماطمع فيه ، ولكننى لا اجسر على ان اسرق بيتك •• ولسوف تعرف غدا ما ارمى اليه!»

الفصل السادس عشر

• اقبل الليل قبل ان يفرغ « رامش » من ارسال جميع الخطابات • وما لبث أخيرا أن أوى الى مضجعه ، ولكنه لم يستطع ان ينام • فقد أخذ تياران من الأفكار يتدفقان على ذهنه : أحدهما صاف ، والآخر عكر •• تماما كنهرى (الجانجز) و (الجومنا) ! •• واختلط التياران فأقضا مضجعه ، ومن ثم راح يتقلب يمنة ويسرة لفترة من الزمن • ولم يلبث أن طرح عنه الغطاء و هب واقفا، ثم سار الى النافذة وأطل خلالها • كانت المنازل القائمة على أحد جانبى الطريق منزوية فى الظلال ، بينما كانت زميلاتها القائمة على الجانب الآخر تسبح فى فيض من أشعة القمر الزاهية • وظل « رامش » واقفا ، مستسلما لأفكاره • ونفضا عنه أوشاب الوسط المادى المحيط به ، وما يسود هذا الوسط من كفاح وعدم استقرار ، فخيل اليه أن نفسه تنطلق محلقة فى عوالم لا نهاية لها ولا حدود ، حيث الخلود ، والطمأنينة الشاملة ! •• وتمثل فى خياله رؤى : الميلاد والموت ، العناء والراحة ، البداية والنهاية ، وهى تتوالى دون انقطاع على مسرح اللانهاية ، على انغام الموسيقى السحرية اللادنيوية ، المنبعثة من جوف الصمت والسكون ، دون أن يبدو لموكبها نهاية وراء أستار هذا المسرح ! •• ومن هذه اللانهاية التى لا نور فيها ولا ظلام ، ابصر « رامش » بتوامين عاشقين – رجل وامرأة – يبرزان الى هذه الدنيا التى كانت تبدو لعينيه تحت أضواء النجوم ! •• وكان التوأمان : هو ، و « همناليني » !

وصعد الهوينا الى سطح الدار ، فاتجهت عيناه الى بيت « أنادا بابو » • لم يكن يعكر السكون أى صوت • وكان ضوء القمر والظلال يؤلفان نسيجا نشراه على جدران البيت ، وتحت الاجزاء البارزة منه ، وفى زوايا الأبواب والنوافذ ، وعلى حافة السطح •• ما كان أبهاه من منظر ! •• كان يقيم فى هذا البيت غير الشامخ – فى قلب المدينة الهاجعة – كائن رائع ، تقمص فى تواضع جسد طالبة ! •• ولقد كانت المدينة الكبيرة تزخر بأفواج من أمثال « رامش » •• من محامين ، وطلبة ، وأجانب ، ومواطنين ، فلماذا اختير هو بالذات ، من بين هذه الأفواج ، ليؤثر دون الآخرين بالسر القدسى ؟ •• لماذا اختير هو بالذات – دون سواه – ليقف فى النافذة مع هذه الفتاة ، جنبا الى جنب ، وفى اشعة شمس الخريف المحتضرة ، يشهدان معا الخلائق تطفو فى بحر لا نهاية له من الأسرار

الخفية ، البهيجة ؟! .. كانت معجزة ، وأية معجزة ! .. معجزة غيرت أعمق اغوار نفسه ، كما ابدلت الكون المحيط به !

ومضى يذرع سطح داره ، حتى اكتهل الليل ، وتوارى القمر خلف البيت المقابل جانحا الى المغيب . وجثمت الظلمة على الارض ، وان ظلت القبة الزرقاء تتالق بوهج الضياء الذى عانقها مودعا ! .. وارتعشت أوصال « رامش » لفرط البرد ، وداهمه خوف مباغت اعتصر قلبه .. كان عليه ان يخوض المعركة فى غده .. فى ميدان الحياة ! .. ولم يتغضن فى وجه السماء خط واحد ينم عن هم ، ولا تثنت غلالة ضوء القمر تحت اية حركة تشى بالقلق ، ولا عكرت سكون الليل نامة ، بل ان الحركة الأزلية الدائبة ، التى تنتظم الكون بكواكبه التى لا عداد لها ، لم تنل من السبات الشامل الذى ران على الوجود ، فاذا كل شىء قد أخلد الى راحة مطمئنة ، عدا الانسان فى كفاحه القلق ! .. فان الحيـــاة الانسانية تمضى فى صراع لا يهن مع الطوارىء غير المرتقبة !

كانت الطمأنينة الأبدية - طمأنينة اللانهاية السرمدية - تقف فى جانب ، والصراع الأبدى الدنيوى يقف فى الجانب الآخر .. فكيف تظل الحالان على قيد البقاء ، جنبا الى جنب ؟! .. وعلى الرغم من العقبات والمتاعب التى كانت تشغل بال « رامش » ، فانه راح يفكر ويستنتج ، محاولا أن يفسر هذا اللغز الذى استعصى على كل حل ! .. لقد كان من حظه ، أن آثره القدر بلمحة راى فيها طيف « الحب » فى السكينة السرمدية التى لا حد لها .. السكينة التى تشمل احشاء الخليقة والكون ! .. وها هو ذا فى جوف الليـــل يشهد « الحب » فى ارتباطه بالدنيا ، يمضى متعثرا ، ويداس بالأقدام فى زحمة الحياة وتدافعها .. [illegible] العـ[illegible]ين تمثل الحقيقة ، وأيهما من نسج الوهم والخيال ؟!

الفصل السابع عشر

◆ عاد « جوجندرا » - شقيق همناليني - من الريف بقطار الصباح فى اليوم التالى .. يوم السبت السابق على الأحد الذى كان محددا لزواج « همنالينى ». ومع ذلك ، فانه لم يلمح - وهو يقترب من البيت - أية اشارة تنم عن الاحتفال المقبل ، فلا عقود من الاوراق الخضراء معلقة فى الشرفة .. بل ولا شىء عـــلى الاطلاق يميز البيت عن غيره من البيوت الكئيبة ، المغبرة ، التى كانت تجاوره . وحدس - وهو موجس - انه لن يلبث أن يسمع عن مرض مفاجىء ، بيد أنه حين اندفع الى داخل الدار ، لم يلمح ما يشى بشىء من هذا القبيل ، بل وجد طعاما مهيأ له ، بينما جلس ابوه الى المائدة يقرأ صحيفته ، وامامه قدح من الشاي ،

احتسى حوالى نصفه • وهتف « جوجندرا » وهو يلج الغرفة : « هل هيم بخير ؟ »

أنادا بابو : « انها فى خير حال »

جوجندرا : « وما أنباء الزواج ؟ »

أنادا بابو : « سيعقد فى يوم الأحد بعد القادم »

جوجندرا : « ولماذا أرجىء ؟ »

أنادا بابو : « يحسن بك أن تسأل صديقك • كل ما قاله لنا « رامش » ، هو أن لديه عملا هاما ، وأن الزواج لا يمكن أن يعقد يوم الأحد ! »

وسخط « جوجندرا » ـ فى نفسه ـ على ما أبداه أبوه من تساهل ، وقال : « أرى أنكم تهملون كل شىء يا أبت ، عندما لا أكون هنا •• أى عمل هام هذا الذى تعلل به ؟ •• انه يمارس مهنة حرة ، كما أنه لم يعد ذا أقارب يتقيد بهم •• واذا كان قد تورط فى مأزق أو عمل ، فلست أرى ثمة ما يمنعه من أن يفضى اليك بالأمر • فلماذا سكت عن مناقشته ؟ »

ـ انه لم يهرب من المدينة ، على أية حال ! •• فخليق بك أن تذهب وتناقشه بنفسك

وأفرغ « جوجندرا » فى جوفه كوب شاى ، ثم اندفع خارجا ، فصاح « أنادا بابو » : « انتظر يا جوجن •• فيم هذا التعجل منك ؟ انك لم تأكل شيئا ! » •• ولكن « جوجندرا » كان قد غادر الدار ، واندفع الى البيت المجاور ، ووثب مجتازا درجات السلم ، مناديا : « رامش ! •• رامش ! » • ولكنه لم يعثر على أثر لرامش ، رغم أنه بحث عنه فى غرفة النوم ، وحجرة الجلوس ، وعلى سطح الدار ، وفى الطابق الارضى • وبعد أن طاف بأعلى البيت وأسفله ، عثر على الحارس فسأله عن مخدومه • وكان الجواب : « لقد رحل مبكرا !» •وعاديسأله: « ومتى يعود ؟ » •• فأخبره الحارس بأن « رامش » حمل معه قدرا من الثياب ، وقال انه قد لا يعود قبل أربعة أيام أو خمسة •• أما أين ذهب ، فهذا ما لم يكن الحارس يعرفه !

وعاد « جوجندرا » الى مجلسه من المائدة فى داره ، وهو عابس مهموم ، فسأله « أنادا بابو » : « أى حظ أصبت ؟ » •• وقال الابن محنقا : « ما الذى تتوقعه ؟ •• ها هو ذا رجل يوشك أن يتزوج من ابنتك ، ومع ذلك فانك لا تهتم بتصرفاته وتنقلاته ، رغم أنه يسكن المنزل المجاور ! » •• فقال « أنادا بابو » : « لقد كان فى داره ليلة أمس » •• فصاح جوجندرا : « ومع ذلك فانك لم تكن تعلم بأنه راحل ، ولا حارس داره يعلم أين ذهب ! •• ان فى الأمر ما يريب • لست مرتاحا يا أبت لهذه الظواهر ، فكيف تتقبل الأمر بمثل هذا الهدوء ؟ » •• وازاء هذا اللوم ، بدأ « أنادا بابو » يفطن الى الموقف ، فتساءل وهو يبدى المظهر الجدى الذى يتطلبه الظرف : « ترى ما معنى هذا ؟ »

* * *

◆ والواقع ان « أنادا بابو » تساهل فى الليلة السابقة مع « رامش » ، فتركه ينصرف دون ان يناقشه الحساب · ولكن الشاب ـ من ناحيته ـ لم يفطن الى هذا التساهل لجهله بمثل هذه الأمور ، فظن ان مجرد الاعتذار بان لديه عملا هاما يضطره الى ارجاء الزواج ، كان كافيا ·· كان عذرا يتيح له كامل الحرية فى التصرف !

وتساءل « جوجندرا » : « اين همنالينى ؟ » ، فاجاب « أنادا بابو » : « لقد تناولت الشاى فى هذا الصباح مبكرة عن الموعد المعتاد ، ثم صعدت الى غرفتها» ·· وهتف « جوجندرا » : « يا للمسكينة ! ·· ما اراها الا فى حزن بالغ من مسلك رامش الغريب ، وهذا هو السر فى انها تتفادى مقابلتى ! » ·· وصعد الى الطابق العلوى ليسرى عن أخته خجلها وهمها · وكانت « همنالينى » وحيدة فى حجرة الجلوس ، فلما سمعت وقع قدمى « جوجندرا » ، أسرعت فالتقطت كتابا وتظاهرت بالقراءة ، حتى اذا دخل ، طرحت الكتاب جانبا ونهضت تحييه فى بشر ، هاتفة : « اهلا بك ، متى جئت ؟ ·· انك لا تبدو على ما يرام ! » ··



فصاح « جوجندرا » وهو يلقى بنفسه على مقعد : « وكيف أكون على مايرام ؟ ·· لقد بلغنى كل شيء يا هيم ! ·· ولكن ، لا تبتئسى ، فما جرى الذى جرى الا لأننى لم أكن هنا ، على أننى ساعيد كل شيء الى مجراه ·· وبهذه المناسبة ، هل أبدى لك رامش أية أسباب ؟ »

وألفت « همنالينى » نفسها فى موقف حرج ·· وضايقها الشك الذى بدا من « اكشاى » ومن « جوجندرا » ، واوجست من ان تصارح اخاها بان « رامش » لم يدل اليها بسبب يبرر ارجاء الزواج · على انها فى الوقت ذاته ابت ان

تكذب ! .. لذلك ما لبثت ان اجابت : « لقد كان على استعداد لأن يبدى الأسباب ، ولكنى لم ار داعيا لذلك ! » .. فقال « جوجندرا » فى نفسه : « محض كبرياء ! .. هذه شيمة النساء ! » .. ثم قال بصوت مرتفع : « حسنا ، لا تبتئسى ! .. سأحمله على أن يجهر بأسبابه قبل أن ينتهى هذا اليوم ! » .. فقالت فى غير اكتراث ، وهى تقلب صفحات الكتاب الذى كان فى حجرها : « ولكنى غير مبتئسة ! .. ولا اريد أن أضايقه بالالحاح فى طلب الأسباب » . وعاد « جوجندرا » يقول لنفسه : « الكبرياء مرة أخرى ! » .. ثم قال لها : « حسنا ، لا داعى لأن تشغلى بالك بهذا الأمر » . وهم أن ينصرف ، فنهضت « همنالينى » عن مقعدها ، وقالت : « ارجو ان لا تقول له شيئا بهذا الصدد . لتظنــوا جميعا ما شاءت لكم الظنون ، ولكننى ـ شـخصيا ـ لا أرتاب فيه مطلقا ! »

وبدا لجوجندرا أن الأمر ليس مجرد مظهر تمليه الكبرياء . ولكن حبه لأخته سيطر عليه ، فابتسم وهو يقول لنفسه : « ان هؤلاء المتعلمات لا يفقهن شيئا من امور الدنيا .. فهى قد تعرف الكثير مما تعلمته فى الكتب ، ولكنها فى المواقف التى تثير الريب تبدو ساذجة كالطفلة ! » . وقارن بين ما كانت تظهر من ثقة خالصة ، وبين ما بدا أنه خداع من رامش ، فاذا قلبه يقسو على الشاب ، واذا عزمه على ان يضطره الى أعلان « اسبابه » يشتد . ونهض مرة اخرى متأهبا للانصراف ، ولكن « همنالينى » اسرعت تمسك بذراعه قائلة : « عدنى بأن لا تنبس بكلمة لرامش فى هذا الصدد ! » ، فأجابها : « سأفكر فى الأمر »

ـ ان الأمر لا يحتاج الى تفكير .. عدنى قبل أن تنصرف . أؤكد لك أن ليس ثمة ما يدعو للقلق . لست اسألك أكثر من هذا الرجاء !

واقنعه اصرارها بأن « رامش » ولابد قد أوضح لها موقفه تماما . ولكن هذا لا يعنى أن الايضاح كان صادقا ، فما كان من العسير خداعها بأية قصة مفتراة . ومن ثم تحول « جوجندرا » اليها قائلا : « اسمعى يا هيم .. ليست المسألة مسألة ارتياب فى شخص ، وانما هى واجب لابد من أن يؤديه أولياء أمر الفتاة المقدمة على الزواج . وربما كان « رامش » قد أفضى اليك بايضـاح تؤثرين أن تكتميه ، ولكن هذا لا يكفى .. بل عليه ان يبرر الموقف لنا . واذا شئت الحق يا « هيم » ، فان الاصرار على طلب الايضاح أصبح من شأننا ، فى هذه المرحلة ، وليس من شأنك انت . على أننا لن نملك أن نتدخل فى شئونكما اذا ما تزوجتما ! »

واسرع مغادرا المكان . لم يتبق خيط من القناع الذى يلتمس العشاق ان

يستروا وراءه شئونهم عادة ! ٠٠ وغدت الرابطة بين « رامش » و « همناليني » عرضة لقذائف من « دخلاء » غير مشفقين ٠٠ تلك الرابطة التي كانا يأملان — في غمرة الوجد — أن تنمو حتى تخلق لهما عالما خاصا بهما ! ٠٠ واقلقت « همناليني» بوادر العاصفة التي خيمت على حياتها ، حتى انها أصبحت تعاف مقابلة الاهل والاصحاب ٠ وما أن بارحها « جوجندرا » ، حتى تهالكت في مقعد ، وقضت فيه بقية نهارها مختلية بنفسها في غرفتها

أما « جوجندرا » ، ففيما كان يغادر المنزل ، ألتقى بأكشاي الذي حياه قائلا : « أهلا بك يا جوجن ٠٠ هل وصلت أخيرا ؟ ٠٠ هل سمعت بالنبأ ؟ ٠٠ ما رأيك في الامر كله ؟ » ٠٠ فقال جوجندرا : « لقد فكرت فيه طويلا ، ولكني لن أقنع بالكلام وبالقيام بحركات لا نفع من ورائها ٠ ان الوقت لا يتسع للجلوس الى مائدة الشاي ، ومناقشة افتراضات وعقد نفسية ! » ٠٠ فقال اكشاي : « وأنا أيضا لا أستسيغ هذا المسلك كما تعلم ، فلست ممن يؤمنون بعلم النفس ، ولا بالفلسفة والشعر ٠ انني رجل عملي ٠٠ وهذا ما جئتك بصدده ! » ٠٠ وعقب « جوجندرا » في تحمس نزق ، بقوله : « حسنا ، أنا الآخر أفضل العمل ٠٠ فهل تستطيع أن تعرف أين ذهب رامش ؟ »

— أجل — أين ؟

قال « أكشاي » : « لن أقول لك ، ولكنني سأجمعك به في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم » ٠٠ فسأله جوجندرا : « ولماذا لا تنبئني بجلية الامر ؟ ٠٠ انكم جميعا تكتمون ما لديكم بدرجة مثيرة ٠٠ لقد غبت أياما لاستجم ، فما أن أوليتكم ظهري ، حتى بدأت الالغاز الرهيبة تقفز في كل مكان ٠ قل يا أكشاي، فلا داعي للتكتم ! ٠٠ تكلم يا رجل ! »

أكشاي : « يسرني أن أسمعك تتكلم بهذه اللهجة ، فما أغضب القوم مني الا أنني كنت صريحا ، فاذا أختك تأبى أن تراني ، واذا أبوك يتهمني بانني فطرت على التشكك والاسترابة ، واذا « رامش بابو » لا يطرب للقائي ٠٠ لم يبق سواك ، وأخشى أن يصيبك ما أصابهم ! ٠٠ على أنك لست ممن يحبون اللجاج في الجدل ، وانما أنت ممن يؤثرون العمل ٠ ولكنني لم أوت البنيان الجسدي الذي يرشحني لأن أكون صنوا لك ! »

جوجندرا : « دعك من هذا الأسلوب الملتوي يا أكشاي ٠٠ انني لأوقن بأن لديك ما يهمني ، فلماذا تكتمه وتحيرني ؟ ٠٠ الى بالحقيقة ٠٠ هيا ! »

اكشاي : « حسنا ، سأروي لك القصة من البداية ، فسوف تجد أن معظمها جديد عليك ! »

الفصل الثامن عشر

◆ لم يكن أجل العقد الذى استأجر به « رامش » مسكنه فى حى (داردجبارا) قد انتهى ، لا ولا خطر للشاب أن يؤجر المسكن من الباطن ٠ فقد كان — فى الأشهر الأخيرة — يعيش فى دنيا لا تثقله فيها الاعتبارات المالية ٠ وكان لابد لكمالا من مأوى اذا ما غادرت المدرسة ، ومن ثم فقد ذهب الى ذلك المسكن عندما طلع نهار يوم السبت ، فأشرف على تنظيفه ، وجهزه بالحصائر ، والحشيات والأغطية ، وملأ مطبخه الخالى ٠ وانقضت بضع ساعات بين استكمال هذه الاستعدادات ، وبين وصول « كمالا » ، قضاها « رامش » مضطجعا على أريكة خشبية ، يفكر فيما يدخره له المستقبل ٠ ولم يكن قد زار مدينة (ايتاواه) من قبل ، ولكن مدن الشمال الغربى كانت متشابهة ، ومن ثم لم يكن من العسير عليه أن يستعرض بعين الخيال صورة للبيت الذى سيتخذه فيها : « فيلا » فى أحد أطراف المدينة ، على حافة طريق برية تحف بها الأشجار ، وتمتد أمامها — على الجانب الآخر للطريق — مساحة شاسعة من الأرض المحروثة ، تتناثر فى أرجائها الآبار ، والمنصات التى يجلس عليها الحراس ليطردوا الطيور والحيوان عن المحصولات الناضجة ٠٠ ويتردد فى الجو بلا انقطاع أزيز السواقى ، والثيران الصبورة عاكفة طيلة النهار على ادارتها لترفع المياه اللازمة لرى الحقول ٠٠ وبين الفينة والفينة ، يندفع فى الطريق جواد يثير سحبا من الغبار ، ويبدد صليل عنانه السكون الذى يرين على الجو القائظ ! ٠٠ وأشفق اذ تصور أوقات الاصيل الوادعة التى ستقضيها « همنالينى » وحدها ، فى « الفيلا » المنعزلة — المحوطة بكل ما يقيها من الحر اللافح — منهمكة فى رعاية منزلها ٠٠ لا ، ما كان ليقضى على زوجته بالحياة فى مثل هذا الوسط الا اذا كانت « كمالا » الى جوارها !

واستقر رأيه على أن لا ينبىء « كمالا » بشىء الا بعد الزواج ٠٠ فاذ ذاك ستسعى « همنالينى » الى اكتساب ود « كمالا » ، ولن تلبث أن تكشف لها — فى حنان — عن حقيقة حياتها ، وأن تبصرها بالشباك التى نسجها القدر ليربطها الى حياتهما !٠٠ ولسوف ترى « كمالا » نفسها بمنأى عن موطنها ، وقد حرمت من الأهل والمعارف ، فلا تلبث أن تستقر فى المكان المخصص لها من الأسرة ، دون ما أسى ولا صدمة مضعضعة !

★ ★ ★

◆ وسادت الحارة سكينة الظهيرة ، اذ كان العمال قد غادروا أعمالهم ، وتأهب « أصحاب الفراغ » للقيلولة ، ولاح أن نسمات مبكرة من الشتاء المقبل قد تسربت لتخفف من وقدة الحر ٠ ولم يكن ثمة ما يشغل « رامش » عن الاستغراق

فى رسم صورة السعادة التى تنتظره ، فأخذ يضفى عليها الألوان فى سخاء !٠٠ ولم يلبث أن بدد صفو أحلامه ضجيج عجلات ، فاذا بمركبة كبيرة تتجه الى باب داره فتقف عنده ٠ وأدرك أنها ولابد عربة المدرسة تقل « كمالا » ، فتسارعت دقات قلبه ٠ ترى كيف يستقبل « كمالا » ؟ وأية موضوعات مشتركة تصلح للحديث بينهما ؟ وكيف سيكون مسلكها نحوه ؟٠٠ كانت هذه الاسئلة كفيلة بأن تثير اضطرابه ، فأحس بأنه لا يقوى على مواجهة الموقف وهو متمالك نفسه! ٠٠ وكان خادماه ينتظران أمام باب البيت ، فأقبلا أولا ، وقد حملا حقيبة « كمالا » الضخمة فوضعاها فى الشرفة ٠ وجاءت « كمالا » فى أعقابهما ، حتى اذا بلغت مدخل الغرفة ، توقفت ٠ فهتف بها « رامش » : « تعالى يا كمالا!»

وغالبت شعورا طارئا من التردد ، ثم ولجت الغرفة ٠ كان « رامش » قد اعتزم أن يتركها فى المدرسة خلال العطلة ، وقد كلفها هذا الاهمال الجلى منه لشأنها ، دموعا غالية ٠٠ واختلطت هذه الذكرى بما كان بينهما من فراق طويل، فخلفا فى نفسها شيئا من الوحشة ٠ ومن ثم فقد تحاشت أن تتطلع الى «رامش» بعد دخولها الحجرة ، وظل بصرها عالقا بالباب المفتوح ٠ وبدا له شكلها غريبا عنه بدرجة أذهلته ٠٠ فلقد اعتراها تغير عجيب خلال هذه الأشهر القلائل ، فاذا بها قد نمت كالغصن الصغير ٠٠ ولكنه كان غصنا ضعيفا ، اذ غابت عنها نضرة الصحة التى كانت تتجلى على أعضاء جسمها ٠٠ الجسم اليافع الذى لم يستكمل تناسقه ٠ وفقد وجهها استدارته الطافحة بالشباب ، وبرزت عظام وجهها ، وغارت وجنتاها وعيناها ، وانحسر التورد عن خديها فكستهما صفرة واهنة ، وغاب مرحها وخفة حركاتها !

وظلت ــ بعد دخولها ــ واقفة ، منتصبة القامة ، وضوء أصيل الخريف يترامى من النافذة المفتوحة على محياها ٠ وكان رأسها عاريا ، وجدائل شعرها المضفورة بشريط أحمر تتدلى على ظهرها ٠٠ وقد التف باحكام حــول جيدها الذى لم يستكمل نموه ، ثوب من الصوف ذو لون مائل الى الصفرة ٠ ولبث « رامش » يحدق فيها بضع لحظات ، وهو صامت ٠ لم يكن قد تبقى فى ذاكرته من جمالها ــ خلال الأشهر القلائل الماضية ــ سوى صورة باهتة ٠ اما الآن ، فقد أضفى التغير الذى طرأ عليها ، رونقا على هذا الجمال ، مما أحدث أثرا عميقا فى نفس « رامش » ، فالفى نفسه عاجزا عن مقاومة فتنتهـا ٠٠ وقال لها : « اجلسى يا كمالا » ، فجلست دون أن تنبس ببنت شفة ٠ وعاد يقول : « كيف حالك فى المدرسة ؟ » ، فأجابت باقتضاب : « بخير ! »

وأخذ « رامش » يعصر ذهنه ، بحثا عن شىء يقوله ٠ وأخيرا ، خطرت بباله فكرة ، فقال : « أظنك لم تتناولى طعاما منذ ساعات ٠ هناك طعام مهيأ لك ، فهل آمر باعداد المائدة ؟ » ٠٠ فأجابت : « لا ، شكرا لك ٠٠ لقد أكلت قبل أن أبدأ الرحلة ! » ٠٠ وعاد يسألها : « أولا تأكلين شيئا ؟٠٠ هناك بعض الفاكهة ٠٠

تفاح ، ورمان ، وبعض الحلوى » ٠٠ ولكن « كمالا » أكتفت بأن هزت رأسها رافضة ٠ وعاد « رامش » يتأمل وجهها ٠٠ كانت تحدق فى بعض صور كتاب المطالعة الانجليزية ـ الذى كانت تحمله ـ وقد مالت برأسها الى الأمام قليلا ٠ والوجه الجميل ، كالمغناطيس ، يجتذب كل جمال فى الوسط الذى يحيط به ! فقد لاح ضوء الشمس الجانحة الى المغيب ، وكأنه استحال ـ حين مس وجه الفتاة ـ الى كائن حساس !٠٠ بل كأن نهار الخريف تبلور ـ لوجودها ـ فاتخذ شكلا وقالبا ٠ فقد خيل لرامش أن الفتاة تشد الى فلكها السماء ، والهواء ، والنور ، وكل ما يحيط بها ـ كما تشد الشمس الكواكب التى تدور فى فلكها ـ فاذا كل هذه الأشياء تتشكل بشكلها وهى جالسة صامتة ، تحملق فى صور كتاب المطالعة ، دون أن تفطن الى جاذبيتها هذه !

★ ★ ★

◆ وغادر « رامش » الحجرة ليعود حاملا « صينية » مليئة بالتفاح والكمثرى والرمان ، وقال : « يبدو أنك تأبين أن تتناولى شيئا يا كمالا ، ولكننى جائع ، ولا أستطيع صبرا » ٠ فابتسمت « كمالا » ، واذا ضوء ابتسامتها يبدد الضباب الذى كان ينتشر بينهما ٠ وتناول « رامش » سكينا وشرع يقشر تفاحة ، ولكن المهارة كانت تنقصه ٠ ولم تطق « كمالا » صبرا على تسرعه المجرد من البراعة ، وعلى محاولاته الفاشلة لتقطيع الفاكهة ، فانطلقت ضاحكة !٠٠ وأثلج صدر « رامش » ما انتابها من سرور لم تستطع أن تكبحه ، فقال : « لعلك تضحكين لاننى لا أحذق تقشير التفاح ٠ اذن ، أرينى مهارتك ! » ٠٠ فقالت « كمالا » : « بوسعى أن أريك لو اننى حصلت على سكين للفاكهة ، ولكنى لا أتقن العمل بسكين المطبخ ! » ٠٠ فقال : « أتظنين أن ليست لدينا سكين للفاكهة ! » ٠٠ ونادى الخادم ، وسأله ان كانت توجد سكين للفاكهة ، فكان جوابه : « أجل يا سيدى ، فقد ابتعنا كل ما يلزم » ٠٠ واذ ذاك قال « رامش » : « اذن نظفها جيدا ، وأحضرها ! »

وعندما أحضر الخادم السكين ، خلعت « كمالا » حذاءيها ، وجلست ، ثم راحت ـ فى خفة بارعة ـ تقشر التفاحة ، وتحولت بعد ذلك تقطعها الى شرائح ٠ وجلس « رامش » أمامها يتلقى الشرائح فى طبق ، وهو يقول : «لابد أن تأكلى نصيبا منها ! » ، فقالت : « لا ٠٠ شكرا » ٠ قال : « اذن ، فلن أتناول منها شيئا ! » ٠٠ وتطلعت اليه ، ثم قالت : « حسنا ٠٠ كل أنت أولا ، وسآكل بعدك ! » ، فقال : « أتراك تعتزمين أن تغررى بى ؟ » ٠٠ فأجابت وهى تهز رأسها : « لا ٠٠ لن أخادعك حقا ! » ٠٠ واقتنع بتأكيدها ، فتناول من الطبق شريحة دسها فى فمه ٠ وفى تلك اللحظة ، رأى ما جعل فكيه يجمدان ٠٠ رأى « جوجندرا » و « أكشاى » ينتصبان أمامه ، لدى الباب !



وكان « أكشاى » أول من تكلم ، فقال : « معذرة يا رامش بابو ٠ ظننت أننا سنجدك وحيدا ٠ ما كان ينبغى يا « جوجن » أن نفاجئه هكذا دون ما انذار ٠ هيا بنا ، لننتظره فى الطابق الأرضى ! » ٠٠ وتركت « كمالا » السكين تفلت من يدها وقفزت مستوية على قدميها ٠ وكان الرجلان يسدان الطريق الى خارج الغرفة ، فتنحى « جوجندرا » جانبا ليفسح لها الطريق ، دون أن يحول بصره عن وجهها ، بل ظل يحدق فيها ٠ ولاذت « كمالا » بالغرفة المجاورة ، وقد تملكها الاستياء !

الفصل التاسع عشر

◆ **قال** « جوجندرا » متسائلا : « من هذه الفتاة يا رامش ؟ » ٠٠ فأجاب هذا : «انها احدى قريباتى» ٠ وسأله « جوجندرا »: « وما صلة قرابتها بك ؟ ما أظنها من ذوى النسب الأقربين اليك ٠٠ لقد حدثتنى عن كل أقاربك ، فلم أسمع قط عن هذه ! » ٠ واذ ذاك ، أهاب به « أكشاى » قائلا : « اهدأ يا جوجن ٠ من المؤكد أن ثمة أمورا يحب أى رجل أن يكتمها حتى عن أصدقائه!» ٠٠ فقال « جوجندرا » : « أفهذه من الأسرار الدفينة يارامش؟» ٠٠ فتضرج وجه «رامش» وقال : « أجل ، انها سر ، وانى لأوثر أن لا أتناول أمر هذه الفتاة فى حديثنا ! » ٠ غير أن «جوجندرا»

بادره فى جفاء : « ولكننى ـ لسوء الطالع ـ أريد أن أتحدث معك بصددها بالذات !٠٠ فلو لم تكن مرتبطا بهمنالينى ، لما كانت ثمة حاجة الى التنقيب عن فروع شجرة النسب الخاصة بأسرتك ، ولجاز لك أن تستبقى أسرارك لنفسك ! » ٠٠ **فقال رامش : « كل ما أملك أن أقوله هو أنه ليس فى الدنيا شخص تربطنى به علاقة من نوع يقف دون زواجى من همنالينى وأنا مرتاح الضمير ! »**

جوجندرا : « أن الذى لا يبدو لك حائلا ، قد يكون حائلا فى رأى أهل همنالينى ٠٠ ولست أريد أكثر من أن تجيب عن هذا السؤال : سواء أكنت قريبا لهذه الفتاة أو لم تكن ، فلماذا تتستر على مقامها هنا ؟ »

رامش : « لو اننى ذكرت لك السبب ، لأفشيت السر ٠ ألا تثق بقولى دون أن تسألنى الأسباب ؟ »

جوجندرا : « ألا تدعى هذه الفتاة كمالا ؟ »

رامش : « بلى ! »

جوجندرا : « هل وصفتها بأنها زوجتك ، حين ألحقتها بالمدرسة ، أو لم تصفها ؟ »

رامش : « بل وصفتها »

جوجندرا : « أفتريد منى بعد هذا أن أصدقك ؟٠٠ أتريد أن تقول انها ليست زوجتك ، فى حين أنك أنبأت كل مخلوق بأنها زوجتك ! ٠٠ انك لا تضرب مثالا طيبا فى الصدق والحقيقة ! »

أكشاى : « أعتقد أنك تقصد أن هذا لا يكاد يكون مثالا يجوز للمرء أن يسوقه فى محاضرة علمية عن الصدق!٠٠ولكنك تنسى يا عزيزى « جوجن » ان الضرورة قد تدعو المرء الى أن يروى قصتين مختلفتين ، لفريقين مختلفين من الناس ، فى بعض الظروف غير العادية ٠ وغالبا ما تكون احدى القصتين صادقة ، فلعل تلك التى رواها لك رامش بابو هى القصة الحقيقية ! »

رامش : « لن أقول لكما شيئا على الاطلاق ، ولن أزيد على

ما قلته من انني لا أرتكب وزرا بزواجي من همناليني ٠ ولدى سبب جد قوي يجعلني أرفض أن أبحث معكما موضوع كمالا ٠ بل من الخطأ أن أفعل ، مهما رأيتما في مسلكي ما يريبكما ٠ ولو ان الأمر كان متعلقا بسعادتي أو سمعتي وحدي ، لما أخفيت عنكما شيئا ، ولكنني أرفض أن أقول شيئا ، اذا كنت بهذا القول أقيم عقبات في طريق مستقبل شخص آخر ! »

جوجندرا : « هل صارحت همنالينى بكل شيء ؟ »

رامش : « لا ، وانما سأنبئها بعد زواجنا ، ولو انها شاءت ، فانى على استعداد لأن أنبئها الآن ! »

جوجندرا : « حسنا ، هل أستطيع أن أوجه الى كمالا بعض اسئلة فى هذا الصدد ؟ »

رامش : « كلا بكل تأكيد ! ٠٠ اذا اعتبرتني مذنبا ، فاحكم على بما تراه ٠ أما كمالا فبريئة كل البراءة ، ولن أعرضها للتحقيق الذى تريد اجراءه ! »

جوجندرا : « لا داعى لسؤال أحد على الاطلاق ، فقد تبينت كل ما ينبغى أن يعرف ٠ لقد زودتنى بالدليل الكافى ، وأحب أن أقول لك بكل وضوح ، انك ستتعرض للاهانة اذا أنت وطأت أرض دارنا بقدمك ! »

وشحب وجه « رامش » ٠ بيد أنه لم ينبس ببنت شفة ٠٠ بينما استطرد « جوجندرا » قائلا : « وهناك شيء آخر أود أن أقوله ٠٠ ليس لك أن تكتب الى همنالينى ، أو أن تحاول أن تتصل بها ، أبسط اتصال ، فى العلن أو فى السر ٠ ولو كتبت اليها ، فسأعلن للملأ سرك الذى تحرص على التستر عليه ، مع الأدلة المثبتة له ٠ واذا سألنا أحد عن سبب فصم خطبتك لهمنالينى ، فسأقول ان السبب يرجع الى اننى رفضت الموافقة على الزواج ، ولن أذكر السبب الحقيقى ٠ أما اذا لم تلزم جانب الحذر ، فسأذيع القصة كلها ٠ وقد يدهشك أن أبدى كل هذا التسامح ازاء تصرفك الجاحد ٠٠ ولكن لا تظن أن أتفه عطف

عليك يحدونى الى ذلك ، وانما أتساهل لأن هذه المسألة تمس أختى همنالينى . وكلمتى الاخيرة اليك هى أنه ليس لك أن تبين بالقول أوالاشارة أنك قد عرفت يوما همنالينى أقل معرفة . ولا قيمة لأن أنتزع منك وعدا ، فلست أتوقع منك أى وفاء بعد هذه الخدعة ، ولكن .. اذا كانت لديك بقية من الحياء ، أو من خشية الفضيحة ، فلا ينبغى أن تستهين بهذا الانذار ! »

أكشاى : « حقا يا جوجن ! .. ألست آسفا من أجل رامش بابو ، بعد كل هذا ؟ .. ألا انظر كيف يتلقى الأمر بهدوء ! .. خليق بنا أن ننصرف الآن ! .. لا تبتئس يا رامش بابو ، فنحن خارجان ! »

* * *

◆ **وانصرف** « جوجندرا » و « أكشاى » تاركين « رامش » فى حالة من الذهول ، أفقدته القدرة على التحرك ! وعندما بدأت حواسه تفيق من الصدمة ، كان أول ما خالجه ،شعور بالرغبة فى أن ينطلق على قدميه ، وأن يسير طويلا ، ليستعرض الموقف فى الهواء الطلق . بيد أنه تذكر أن ليس بوسعه أن يترك « كمالا » وحيدة فى مكان غريب بالنسبة لها . وما لبث أن سعى الى الغرفة المجاورة ، فاذا الفتاة جالسة الى جوار النافذة ، تطل على الطريق ، خلال مصراع مفتوح من المصراعين الخشبيين . وأغلقت المصراع حين سمعت خطوات « رامش » ، والتفتت اليه ، فجلس القرفصاء على الأرض

وسألته كمالا : « من يكون هذان الرجلان ؟ .. لقد وفدا على مدرستنا فى هذا الصباح ! » ، فهتف فى دهشة : « ذهبا الى المدرسة ؟ » .. قالت : « أجل .. ما الذى قالاه لك ؟ »

ـ سألانى عن صلة القربى التى تربطك بى !

ومع أنه لم يقدر لكمالا قط أن تجلس عند قدمى حماة تتلقى عنها درسا فى المناسبات التى يجدر بالزوجة الشابة فيها أن تخجل أمام زوجها ، الا أن غريزتها دفعت حمرة الخجل الى

وجنتيها عندما سمعت كلمات « رامش » ، بينما كان يمضى فى حديثه قائلا : «وقد أخبرتهمابأن ليست بيننا أية صلة !»٠وبدا قوله ــ فى رأيها ــ دعابة ممجوجة ، فأشاحت فى غضب قائلة: « لا تكن سخيفا ! » ٠٠ وساءل « رامش » نفسه عما اذا كان يجسر على أن يروى لها الحقيقة بحذافيرها !

وقفزت « كمالا » فجأةوهى تصيح جزعة :«أنظر ٠٠ها هو ذا غراب يختطف فاكهتك ! » ، وهرعت الى الغرفة الأخــرى ، فطردت الغراب ، ثم عادت بصفحة الفواكه ، وسألته وهى تضع أمامه طبقا : « ألن تتناول شيئا منها ؟ » ٠٠ وهزته هذه الرعاية ٠٠ ورغم ان شهيته كانت قد ولت ، الا أنه سألها : « وأنت ، ألن تتناولى شيئا يا كمالا ؟ » ٠٠ فأجابت فى لهجة الزوجة التى تأبى أن تأكل شيئا قبل أن يشبع زوجها جوعه : « بل كل أنت أولا ! » ٠٠ وكان الأمر بسيطا ، ولكن أعصاب « رامش » كانت مرهفة ، فكادت رعاية الفتاة الساذجة أن تدفع الدمع الى عينيه٠ وعجز عن أن يجد قولا مناسبا ، ولكنه سيطر على نفسه ،وتناول بعض الفاكهة ، ثم قال عندما فرغ : « يجب أن نرحل الليلة الى بلدتنا يا كمالا ! » ٠٠ واذا الأسى يتبدى على وجه الفتاة ، وهى تبادر قائلة : « لا أريد أن أذهب الى هناك ! » ٠ فسألها : « وهل تحبين ان تواصلى الدراسة ؟ »

كمالا : « لا ، لا ترسلنى الى المدرسة ثانية ، فان الفتيات لا يفتأن يسألننى عنك ، ويثرن خجلى ! »

رامش : « وما الذى تقولينه لهن ؟ »

كمالا : « لا أقول شيئا ٠٠ لقد رحن يسألننى عن سر رغبتك فى أن تتركنى فى المدرسة أثناء العطلة ، و ٠٠ » ، ولم تقو على اتمام عبارتها ، فان الذكرى نكأت جرح فؤادها ، فقال «رامش»: « لم لم تقولى لهن اننى لا أمت اليك بصلة ؟ » ٠ فرمقته «كمالا» بنظرة لوم ونفاد صبر ، وعادت تكرر : « لا تكن سخيفا ! »

* * *

◆ **وساءل** « رامش » نفسه : « ترى ما الذى أفعله ؟ » ٠ كان سره كالدودة التى تنخر حيويته ونشاطه !٠٠ وكانت هـذه الدودة ـ فى دأبها ـ موجعة مؤلمة ٠ وراحت الاسئلة تعـذبه وتضنى باله : « ترى ما الذى يحتمل أن يكون « جوجندرا » قد قاله لهمنالينى فى هذه الاثناء ؟٠٠ وكيف تلقت « همنالينى » النبأ ؟٠٠ وكيف يستطيع أن يشرح لها حقيقة الأمر ؟٠٠وكيف يطيق أن يعيش العمر بعيداً عن «همنالينى» ؟» ٠٠ولكن فكره المشتت عجز عن أن يوافيه باجابات لهذه الأسئلة ٠٠ كل ما كان يدركه هو أن علاقته بكمالا غدت موضع اهتمام اصـدقائه وأعدائه فى (كلكتا) ، ولن يؤدى زعمه بأن « كمالا » زوجته الا الى استفحال الشائعات حوله ٠ ومن ثم فلا سبيل للبقاء معها يوما آخر فى هذه المدينة !

ولم يغب انشغال باله عن « كمالا » ، فرمقته فى تساؤل ، وقالت : « ما الذى يشغلك ؟ ٠٠ اذا شئت أن تعود الى بلدتك وتقيم فيها ، فسوف أرافقك ! » ٠٠ **ووخز فؤاده مرة أخرى هذا الانصياع من الفتاة لرغباته ٠ وراح يسائل نفسه من جديد عن خير مسلك يسلكه ٠ وتاه فكره وهو يتأمل « كمالا » دون أن يعقب على قولها بشىء ٠ وشعرت هى بأن الأمر أخطـر من أن تسكت عليه ، فقالت : « أرجو أن لا يكون قد أغضبك عـدم انصياعى للبقاء فى المدرسة خلال العطلة ٠٠ صارحنى ، هـل غضبت ؟ » ٠٠ فقال « رامش » : « الحق انى غضبت من نفسى ، وليس منك ! »**

وحرر نفسه فى جهد من أفكاره المتداخلة ، المضطربة ، وتحول يجاذب « كمالا » الحديث ٠ فقال لها بغتة : « ألا حدثينى ياكمالا عما تعلمته فى المدرسة طيلة هذه الفترة » ٠٠ فشرعت تعرض عليه ما تعلمت ، وهى مغتبطة ٠ وحاولت أن تثير دهشته بما حصلته من معرفة عن الارض وكرويتها ! وتظاهر « رامش »

من ناحيته بأنه يجهل هذا الموضوع ولا يصدقه ، فراح يتساءل: كيف يمكن أن تكون الارض كروية • وحملقت فيه « كمالا » فى دهشة ، وهى تقول : « أن هذا موجود فى كتابنا ، وقد درسناه ! » •• فقال « رامش » متظاهرا بالعجب : « ما أراك جادة فى قولك • أيوجد هذا فى كتاب حقا ؟•• أى كتاب هذا ؟» •• وخدعت « كمالا » بتظاهره ، فقالت : « انه كتاب غير ضخم، ولكنه مطبوع •• ويتضمن صورا أيضا ! » •• وكأنما كان هذا دليلا كافيا أفحم « رامش » !

واذ فرغت « كمالا » من سرد ما تعلمته ، استطردت متحدثة عن زميلاتها ، ومدرساتها ، والمدرسة ونظمها • وشرد ذهن « رامش » مرة أخرى ، بيد أنه ظل يتمتم ببضع كلمات من آن لآخر ، ليوحى اليها بأنه يتتبع حديثها • وكان أحيانا يفطن الى بعض عباراتها،فيكررها فى تساؤل،وكأنه يستزيدها ايضاحا• على أن « كمالا » لم تلبث أن هتفت : « أنك لا تصغى الى ! » •• ونهضت واقفة فى استياء ، فبادر قائلا : « مهلا يا كمالا ، لا تغضبى •• اننى لا أكاد أتمالك نفسى اليوم ! » ، فسألته وهى ترتد اليه : « أتشعر بتوعك ؟•• ماذا بك ؟ »

ـ لست متوعكا بما فى الكلمة من معنى •• بل اننى لا أشعر بألم ذى بال ، وانما هى حال تعاودنى فى بعض الأحيان • هلا استرسلت فى حديثك من جديد ؟

فقالت « كمالا » وقد عادت تحاول أن تدهشه بمعرفتها : « أتحب أن ترى الصور التى فى كتاب مبادىء الجغرافيا ؟ » •• فتصنع اللهفة فى طلب الكتاب ، وآذ ذاك أسرعت « كمالا » الى احضاره ، وفتحته أمامه ، قائلة : « هاتان الكرتان اللتان تراهما ، ليستا سوى كرة واحدة فى الحقيقة ، اذ أن المرء لا يستطيع ـ كما تعرف ـ أن يرى جانبى أية كرة، فى وقت واحد!» •• وتظاهر « رامش » بأنه يتأمل الصورة فى امعان ، ثم قال : « وهكذا الأمر أيضا فى أى جسم مسطح » •• وقالت كمالا

وهى ماضية فى حديثها : « ولهذا السبب رسم شقا الكرة الأرضية منفصلين فى هذه الصورة ! »

.. وعلى هذا النسق قضينا أول أيام العطلة !

الفصل العشرون

◆ **كان** « أنادا بابو » يتمنى من صميم فؤاده أن يعود اليه « جوجندرا » بأنباء طيبة ، وأن يتبدد سوء التفاهم كله . فلما دخل عليه « جوجندرا » و « اكشاى » الحجرة ، تطلع اليهما فى قلق .. وشرع ابنه يقول: « ماكنت لاصدق قط ياأبت أنك تسمح لرامش بأن يتمادى الى هذا الحد ، ولو اننى كنت أحدس أنه يفعل ما فعل ، لما قدمته اليك ولا عرفتك به ! »

أنادا بابو : « ما أكثر ما عبرت لى بنفسك عما يتولاك من سعادة لو أن رامش تزوج من همنالينى .. فاذا كان قد خطر لك أن تحول دون ذلك ... »

جوجندرا : « ما كنت لأفكر قط – فى الواقع – فى أن أقف ضد هذا الزواج ، لولا ... »

أنادا بابو : « لست أرى مجالا للاستدراك هنا .. فاما أن يدع المرء الأمر يمضى الى نهايته ، واما أن يوقفه ، ولا سبيل لمسلك وسط فى هذا الموضوع ! »

جوجندرا : « ومع ذلك ، فان ترك رامش يتمادى ... »

وهنا تدخل « أكشاى » فى الحديث ، قائلا فى خبث : « **هناك أمور تسير من تلقاء نفسها الى أقصى مداها ، دون أن يكون للمرء يد فى تطورها . ومع ذلك ، فلا جدوى من البكاء على ما فات ، بل يحسن بنا أن نقرر ما ينبغى أن نفعل الآن !** » .. فتساءل « أنادا بابو » فى لهفة : « وهل رأيتما رامش ؟ »

جوجندرا : « **رأيناه حقا .. رأيناه فى أسرته ، وتعرفنا الى**

زوجته ! »

وصعق « أنادا بابو » !٠٠ وعندما استطاع أن يتكلم أخيرا ، راح يردد : « تعرفتما الى زوجته ؟ » ٠٠ فقال جوجندرا : « أجل ٠٠ زوجة رامش ! »

أنادا بابو : « لست أفقه ما تقول ٠٠ أية « زوجة رامش » هذه ؟ »

جوجندرا : « زوجة رامش ٠٠ صديقنا العزيز !٠٠ فهو لم يعد الى بلدته عقب الامتحان الا ليتزوج ! »

أنادا بابو : «ظننت أن موت أبيه قضى على مشروع الزواج !»

جوجندرا : « لقد تزوج قبيل وفاة أبيه »

وجلس « أنادا بابو » يتحسس رأسه ، مبهوتا ٠ ثم قال بعد هنيهة : « اذن ، فلن يكون له أن يتزوج من عزيزتنا هيم؟ » ٠٠ فأجاب جوجندرا : « هذا ما أردنا قوله! » ، فصاح «أنادا بابو»: « قولا ماشئتما ، فان قولكما لن يمنع الأمر الواقع ٠٠ ان الاستعدادات للزواج قد استكملت تقريبا ، وقد كتبنا لجميع أقاربنا قائلين ان الزواج لن يتم فى يوم الأحد منهذا الاسبوع، وانه أرجىء الى يوم الاحد التالى ٠ وما أرى الا أننا مضطرون الى أن نكتب اليهم ثانية لنقول ان الزواج قد ألغى تماما ! » ٠ **فقال جوجندرا : « لا داعى للالغاء ٠٠ كل ما نحتاج اليه هو اجراء تعديل واحد ، لتبقى كل تدابيرنا كما هى ! »** ٠٠ فسأله « أنادا بابو » فى دهشة : « وأى تعديل هذا ؟ »

جوجندرا : « انه واضح جلى ٠ يجب أن نحل رجلا آخر محل رامش ، ونمضى فى الاحتفال يوم الاحد المقبل ، والا فلن يكون بوسعنا أن نظهر أمام الناس ! » ٠٠ وألقى « جوجندرا » نظرة نحو « أكشاى » ، فغض هذا بصره استحياء ، بينما قال « أنادا بابو » : « وكيف نعثر على رجل آخر نرشحه للزواج من «هيم» بهذه السرعة ؟ » ٠٠ فأجاب جوجندرا : « لا داعى للقلق »

أنادا بابو : « سيكون عليك أن تحصل على موافقة « هيم »

أولا ! »

جوجندرا : « انها ستوافق حتمـــا ، اذا ما عرفت مسلك رامش ! »

أنادا بابو : « حسنا ، افعل ما تراه صالحا ، ولكن هذا لا يمنع أسفى على « رامش » ، فقد كان ميسور الحال ، عاقلا ، متعلما٠٠ ولقد اتفقنا بالأمس فقط على أن ينزح الى (ايتاواه) لممارســة المحاماة هناك ، بعد أن يتم الزواج ٠٠ فانظر الى ما جرى ! »

جوجندرا : « ما ينبغى لك أن تأسى عـلى ما فات يا أبت ، ليذهب « رامش » فيمارس المحاماة فى (ايتاواه) اذا شاء ٠٠ أما الآن ، فيحسن بى أن أدعو « هيم » فورا ٠٠ فليس لدينا وقت نبدده »

* * *

وخرج ، ثم عاد بهمنالينى بعد دقيقة أو اثنتين ٠ وتوارى « أكشاى » خلف صوان للكتب فى أحد الأركان، وقال جوجندرا: « اجلسى يا هيم ، فان لدينا حديثا يهمك » ٠٠ فجلست « هيم » دون أن تنبس ببنت شفة ، وقد تأهبت لكل ما يرتقب سماعه٠ وشرع « جوجندرا » يتحايل على مفاتحتها فى الأمـــر برفق ، فقال : « ألم تلاحظى في مسلك رامش ما يريب ؟ » ٠٠ فاكتفت بأن هزت رأسها نافية ٠٠ واذ ذاك قال : « لقـد أرجأ الزواج أسبوعا ، فأى سبب يمكن أن يحمله عـلى ذلك ، ولا يملك أن يصارحنا به ؟ » ٠٠ فأجابت دون أن ترفع بصرها نحوه : «لابد أن لديه سببا »

ـ أصبت ٠٠ هناك سبب بالفعـل ، ولكن ٠٠ ألا ترين فى هذا ما يريب ؟

وهزت « همنالينى » رأسها اشارة الى أنها لم تكن ترى داعيا للشك ! ٠٠ وضاق « جوجندرا » بما ألفى لدى أبيه وأخته من ثقة لا تهن برامش ، ومن ثم لم يحاول المضى فى التلطف ، بل أنهى الى همنالينى النبأ فى قسوة ، قائلا : « هل تذكرين عودة

رامش مع أبيه الى بلدتهما ؟ لقد ظللنا مدة طويلة ـ بعد ذلك ـ لم نتلق خلالها نبأ منه ، فكان من الطبيعى أن نستغرب تصرفه . كذلك تعرفين أنه كان فيما مضى يقيم فى البيت المجاور، ويتردد على دارنا مرتين فى اليوم ، فى حين أنه عندما عاد الى (كلكتا) حرص على أن يقطن فى مكان يبعد عنا أميالا ، ولم يزرنا قط . ومع ذلك ، فقد لبثت وأبوك تؤمنان به ، وتثقان فيه ، ومن ثم دعوتماه ، وعاملتماه كما كنتما تعاملانه فى الماضى . وما كان هذا ليحدث لو اننى كنت هنا ! » .. وأنصتت « همنالينى » ، ولكنها لم تنبس ببنت شفة

جوجندرا : « هل عمد أحدكما الى أية محاولة ليتبين ما وراء هذا المسلك الشاذ منه ؟ .. ألم تشعرا قط بأن فيه ما يثير فضولكما ؟.. يبدو أنكما كنتما شديدى الثقة به ! »

ومع ذلك ، فلم تنبس « همنالينى » ببنت شفة !

جوجندرا : « جميل جدا .. ان المرء ليجد نفسه مسوقا الى أن يعتقد انكما لا تميلان بطبعكما الى الارتياب فى الناس !.. على اننى أرجو أن تصدقا ما سوف أنبئكما به الآن . لقد ذهبت بنفسى الى مدرسة البنات ، فوجدت أن لرامش زوجة ألحقها بالقسم الداخلى منها ، وكان قد رغب فى أن يتركها هناك ابان العطلة ، لولا أن أشفقت عليها السماء ، فهبط عليه ـ منذ يومين أو ثلاثة ـ خطاب من ناظرة المدرسة تقول له فيه انها لا تستطيع أن تستبقى « كمالا » ـ زوجة رامش ـ فى المدرسة أثناء العطلة . ولقد أغلقت المدرسة أبوابها اليوم ، فحملت عربتها « كمالا » الى المسكن الذى كان لرامش فى (داردجيبارا) .. وقد ذهبت الى هناك بنفسى ، فرأيت « كمالا » تقشر تفاحة ، بينما جلس « رامش » على الأرض أمامها ، يتلقى الشرائح منها ، ويضعها فى فمه . وسألت « رامش » أن يشرح لى الموقف ، فقال انه لا يود أن يفضى بشىء . ولو انه حاول ـ أقل محاولة ـ أن ينكر أن « كمالا » زوجته ، لصدقناه ، ولعملنا على أن نبدد وساوسنا .

ولكنه أبى أن ينكر أو يؤكد · فهل فى وسعكما بعد هـذا أن تمضيا فى الثقة به ؟! »

★★★

◆ **وانتظر** « جوجندرا » الجواب ، وعيناه لا تتحولان عن وجه اخته · فاذا بلونه يمتقع الى درجة غريبة ، واذا يداها تشدان على مسندى المقعد بكل ماكان فيهما من قوة · وفى اللحظة التالية ، انحنى رأسها على صدرها ، ثم هوت الى الأرض مغشيا عليها ! ·· وكان جزع « أنادا بابو » مثيرا للاشفاق · ورفع رأس ابنته عن الأرض ، فأسندها الى صدره وهو يصيح : « ماذا جـرى يا عزيزتى ؟ ·· ماذا جرى ؟ ·· لا تصدقى كلمة مما يقولان ؟ ·· انهما يكذبان ! » ، فبادر « جوجندرا » ونحى أباه جانبا ، ثم رفع « همنالينى » الى الأريكة · وألفى بجواره اناء ماء ، فنثر منه قطرات على وجه الفتاة ، بينما أخذ « أكشاى » يستجلب الهواء الى وجهها بمروحة مضى يحركهـا جاهدا · وما لبثت « همنالينى » أن فتحت عينيها ، فاستوت جالسـة فى اعياء ، والتفتت الى أبيها باكية : « يا أبت ·· ألا سل أكشاى بابو أن يخرج ! » ·· وترك « أكشاى » المروحة لفوره ، وخرج الى البهو ·· وجلس « أنادا بابو » على الأريكة بجوار ابنتـه ، يربت رأسها ، ويتحسس عنقها ، دون أن يقوى على شىء سوى التنهد وترديد : « يا حبيبتى ! يا عزيزتى ! »

وفجأة ، فاضت عينا « هيمنالينى » بالدموع ، وبدأ صدرها يتهدج · ومالت بصدرها على ركبتى أبيها ، تحاول أن تكتم أساها · فغمغم «أنادا بابو» بصوت متهدج : «لا بأس ياعزيزتى ، لا تحفلى ·· آننى أعرف « رامش » معرفة وثيقة ، وأوقن أنه لا يمكن أن يغرر بنا البتة · لابد أن جوجن أخطأ ! » ·· **ونفد صبر « جوجندرا » فصاح : « لا تمنيها بآمال زائفة يا أبت ·· لو انك حاولت أن تشفق عليها الآن بالأكاذيب ، فسوف تكون العاقبة وخيمة · دع لها فرصة كى تفكر فى الأمر كله ! » ··**

فرفعت « همنالينى » رأسها عن ركبتي أبيها ، واستوت جالسة، ثم تفرست فى وجه « جوجندرا » قائلة : « أصارحك بأننى لن أصدق قط شيئا ، ما لم أسمعه من فم رامش نفسه ! » ٠٠ ونهضت على قدميها مترنحة ، فقفز « أنادا بابو » صائحا فى اشفاق ، وأنقذها من السقوط ٠ وتشبثت همنالينى بذراعه ، فأعانها على بلوغ غرفتها ٠ وهناك ، قالت وهى تستلقى على فراشها : « أرجو أن تدعنى أخلو قليلا الى نفسى يا أبت ، ولن ألبث أن أنام » ٠٠ فسألها : « أأرسل اليك مربيتك العجوز لتروح لك استجلابا للهواء ؟ »

ـ لا ، شكرا لك ، بل أوثر أن أنفرد بنفسى !

وانتقل « أنادا بابو » الى الغرفة المجاورة لمخدعها ، وقد عادت اليه ذكريات أم «هيم» التى ماتت والفتاة فى الثالثة من عمرها، فذكر وفاءها ، وصبرها ، وبشاشتها التي لم تكن تفارقها ٠ وشعر كأن قلبه يتمزق لوعة من أجل الابنة التى كرس لها مافات من السنين ، كيما يعدها لتحل محل أمها من حياته ٠٠ الابنة التى كبرت فصارت صورة حية للمرأة الغالية التى ماتت !٠٠ واخترقت أفكاره الجدار الذى كان يفصل بينه وبين الفتاة ، فألفى نفسه يخاطبها فى وحدته : « **أرجو أن تزيل السماء من طريقك كل عقبة يا حبيبتي ، وأن تسعدى ما حييت ٠٠ أرجو أن أراك ـ قبل أن ألحق بأمك ـ هانئة ، ناعمة ، مستقرة فى أمان الى جوار رجل يحبك وتحبينه ! » ٠٠ ومسح بطرف سترته الدموع التى ترقرقت فى عينيه !**

★ ★ ★

◆ **كان** « جوجندرا » يؤمن دائما بأن عقول النساء ناقصة ، وقد عززت أحداث ذلك اليوم رأيه وتقديره ٠ كيف يتفاهم المرء مع جنس يغض النظر عن الحقيقة الواقعة ، الواضحة ؟! ٠٠ ان المرأة لتنكر بكل بساطة ان اثنين واثنين يصيران أربعة ، اذا ما تمشى ذلك الانكار للحقيقة مع سعادتها الفردية !٠٠ واذا قال

لها العقل ان الأسود أسود ، ثم جاء الحب فقال أن الأسود أبيض ، فلن تصغى للعقل المسكين !٠٠ ولم يستطع «جوجندرا» أن يفقه كيف تسير الدنيا فى طريقها ، وتلك هى آراء المرأة ! ٠٠ ونادى « أكشاى » ، فأقبل هذا الى الغرفة متسللا ٠ وسأله « جوجندرا » : « أما وقد سمعت كل شىء ، فما العمل الآن ؟ »

– لماذا تزج بى فى الأمر ياصديقى ؟٠٠ انه ليس من شأنى ٠ لقد ظللت طيلة الأيام الماضية صامتا فى أمان ، فلم يكن من الانصاف أن تزج بى فى هذا المأزق !

جوجندرا : « حسنا ، سننظر فى احتجاجك هذا فيما بعد ٠ أما الآن ، فلست أجد حيلة الا اذا استطعنا أن نقنع رآمش بأن يعترف بنفسه لهمنالينى اعترافا كاملا ! »

أكشاى : « أمجنون أنت ؟ وهل تتوقع من رجل ٠٠٠ ؟ »

جوجندرا : « ربما كان من الأفضل أن نحمله على الكتابة اليها ٠ وهذه مهمتك ٠٠ فعليك أن تشرع فى العمل فورا ! »

أكشاى : « سأرى ما الذى أستطيع أن أفعله »

الفصل الحادى والعشرون

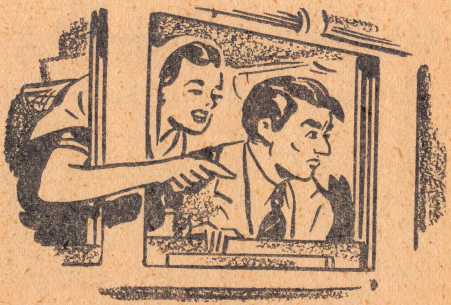
٭ **اصطحب** « رامش » كمالا فى الساعة التاسعة من ذلك المساء الى محطة (سيلداه) ، فى عربة أمر حوذيها بأن يسلك طريقا دائريا ، خلال حارات (كالوتولا) ٠ واذ مرت العربة بدار معينة فى ذلك الحى ، أطل « رامش » من نافذة العربة فى لهفة، فلم يتبين ما ينم عن أى تغير طرأ على المعالم المألوفة للدار ٠ وأرسل زفرة حرى ، نبهت « كمالا » من اغفاءة كانت قد استغرقت فيها ، فسألته عما به ، ولكنه قال وهو يتهالك فى مقعده : « لا شىء ! » ٠ وظل جالسا فى مكانه بلا حراك ، حتى بلغت العربة غايتها ٠ وكانت « كمالا » طيلة الوقت مستسلمة للاغفاء فى الركن الذى جلست فيه ٠ ولم يتمالك « رامش »

نفسه من الشعور باحساس طارىء جعله يكره مجرد وجودها !

ووصلا الى المحطة مبكرين ، فما لبثا أن استقرا في المقصورة التى كان « رامش » قد احتجزها فى الدرجة الثانية • وأعد « رامش » فراشا لكمالا فى أحد الأسرة المنخفضة فى المقصورة، وخفف الضوء ، وأغلق المصاريع الخشبية للنوافذ ، ثم قال : « لقد فاتت ساعة نومك ، فخير لك أن تأوى الى الفراش ! » •

ولكنها قالت : « ألا أستطيع أن أجلس هنا ، فأنظر خلال النافذة حتى يتحرك القطار ، وبعد ذلك أتهيأ للنوم ! » • ووافق « رامش » ، فجلست كمالا على حافة السرير ، ورفعت نقابها ، وخفضت مصراع النافذة القريبة ، ثم مضت تراقب الناس ، بينما جلس « رامش » فى منتصف مقعده مسرحا بصره وهو تائه الفكر • وعندما بدأ القطار يتحرك ، وقع بصره فجأة على مسافر وصل متأخرا ، فانطلق يجرى على الرصيف •• وخيل اليه أن ملامح الرجل مألوفة لديه

وقهقهت « كمالا » فجأة فى اللحظة التالية ، فأطل « رامش »



من النافذة ، ورأى المسافر المتأخر يناضل ليتخلص من قبضة موظف من موظفي المحطة كان يحاول أن يبقيه بعيدا عن القطار الذى تحرك • وأفلح الرجل أخيرا فى القفز الى القطار ، وان

بقيت الملفعة ـ التي كان يلفها حول وجهه ـ في يد الموظف ! ٠٠ واذ مال الرجل خلال احدى النوافذ ليتناول الملفعة من الموظف ، استطاع « رامش » أن يعرفه ، فاذا هو ٠٠ « أكشاى » ! ٠٠
وتمالكت « كمالا » نفسها بعد قليل ، فكفت عن الضحك من هذا الموقف ٠ فقال لها رامش : « لقد تجاوزت الساعة النصف بعد العاشرة ، وها قد انطلق القطار ، فخير لك أن تنامى الآن ! » ٠٠ فاندست الفتاة فى سريرها منصاعة ، ولكنها ظلت لا تقوى على كبت الضحك بين آن وآخر ، حتى غلبها النعـــاس ٠ أما « رامش » ، فلم ير فى الحادث الذى وقع على رصيف المحطة ما يدعو للضحك ٠٠ كان يعرف أن ليس لأكشاى علاقة بالريف ، اذ أن أسرته كانت تقيم فى (كلكتا) منذ أجيال ٠ فلم اذن كان مستميتا فى محاولة اللحاق بهذا القطـار بالذات ؟ ٠٠ كان التفسير الوحيد لذلك ، هو أنه كان يتعقب رامش وكمالا !

* * *

◆ **وأحس** « رامش » بأن اتجاه « أكشاى » الى القيام ببعض تحريات عنه فى بلدته ، أمر من أبغض الأمور ، اذ أنه يجعل سيرته وسمعته مضغة فى أفواه قومه ، وكان هذا من شأنه أن يزيد الأمر بشاعة ٠ ولم يتمالك أن راح يصور لنفسه انتشار الفضيحة فى البلدة ٠ والمرء فى مدينة كبيرة مثـــل (كلكتا) يستطيع أن يجد مكانا مغمورا يتـــوارى فيه ، فى مثل هذه الظروف ٠ أما فى بلدة ريفية صغيرة ، فان أتفه الأمور كفيل بأن يثير ضجة لا مهرب منها !٠٠ وأخـــذ « رامش » يرتجف اشفاقا من العاقبة كلما ازداد استرسالا فى تصور الموقف !

وعندما وقف القطار فى (باراكبور) ، أطل « رامش » ، فلم ير « أكشاى » يغادر القطار ٠ وفى (نايهاتى) صعد الى القطار عدد من الركاب ، وهبط عدد آخر ، ولكن « أكشاى » لم يكن بينهم ٠ وعاد « رامش » يطل فى (باجولا) ، ولكنه لم يلمح لأكشاى أثرا ، ولم يبرح الرجل القطار فى أى من المحطات التى

تلت ذلك . وعلى الرغم مما كان قد حل براmش من تعب ، فانه لم يستسلم للنعاس الا فى ساعة متأخرة

وفى باكورة الصباح التالى ، بلغ القطار محطة (جوالوندو) حيث يهبط الذاهبون الى شرقى البنغال ، ليجتازوا النهر . ولمح « رامش » أكشاى يسرع نحو البواخر النهرية ، وقد لف وجهه فى الملفعة ، وأمسك بحقيبة صغيرة . ولم تكن الباخرة الراحلة الى بلدة « رامش » لتغادر الميناء قبل ساعات ، ولكن كانت ثمة باخرة أخرى على وشك الاقلاع ، وقد تصاعد البخار منهـا ، وأخذت ترسل صفيرا قلقا،متعجلا..فسأل رامش أحد رجالها : « الى أين تذهب هذه الباخرة ؟ » ..فكان الجواب : «آلى الغرب» .. وعاد يسأل : « وأين تنتهى رحلتها ؟ » ، فقيل له : « فى بنارس ، اذا كانت المياه على ارتفاع كاف فى النهر »

وعمد « رامش » فى الحال الى حجز قمرة ، حتى اذا استقرت «كمالا» بها ، هبط الى البر ، فابتاع كميات من الارز،والقطانى (البقول) ، وطلح الموز ، واللبن ، كمؤونة للرحلة . أما «اكشاى» فكان فى تلك الأثناء قد سبق غيره الى الباخرة الأخرى ، وجثم فى مكان على سطحها يمكنه من أن يرى كل صاعد وكل هابط. ولم يكن يبدو على المسافرين على تلك الباخرة أى تعجل ، اذ لم يكن موعدها قد حان بعد ، فراحوا يقضون وقتهم فى غسـل ثيابهم ، أو الاستحمام .. بل ان بعضا منهم راحوا يطهـون طعامهم ويتناولونه على ضفة النهر . وظن «أكشاى» أن «رامش» قد اصطحب «كمالا» الى أحد المطاعم المجاورة ، ليتناولا الفطور . ولما لم يكن على دراية بالمدينة ، فقد رأى من الأسلم أن يبقى على الباخرة . وأخيرا ، انبعث صفير الباخرة ، ولما يبد أثر لرامش ! وشرع المسافرون يتقاطرون الى سطح الباخرة ، على ألواح من الخشب استخدمت كمعبرة . واذ اشتد الصفير وتتابع ، أسرع المتلكئون من المسافرين ، ولكن «رامش» لم يظهر بين المتأخرين، ولا بين المتقدمين !.. ورفعت المعبرة ، وأمر ربان السفينة برفع

المرساة ، واذ ذاك صاح « اكشاى » : «مهلا ، أريد ان أهبط !» ولكن الملاحين لم يعبأوا به ، فلم يسعه سوى أن يقفز الى الرصيف ..

ولم يلح لرامش أثر فى المرفأ !.. ولمح « أكشاى » قطار الصباح الذاهب الى (كلكتا) ، وقد بارح المحطة ، فانتهى به تفكيره الى أن «رامش» ولابد قدفطن اليه ـ أثناء محاولتهاللحاق بالقطار ـ وحدس نواياه ، فعدل عن رحلته الى بلدته ، وارتد عائدا الى (كلكتا) فى قطار الصباح . ومن الصعوبة بمكان أن تعثر على شخص فى مدينة كبيرة مثل (كلكتا) !

الفصل الثانى والعشرون

◆ قضى « أكشاى » يومه كله متسكعا فى (جوالوندو) ، حتى اذا حل المساء ، استقل القطار الذاهب الى (كلكتا) . وما أن وصل اليها ـ فى الصباح الباكر من النهار التالى ـ حتى يمم أولا شطر مسكن « رامش » فى حى (داردجيبارا) ، ولكنه ألفى الباب مغلقا ، وقيل له ان الدار خالية ، فتحول متجها الى حى (كالوتولا) ، فاذا مسكن « رامش » هناك خال ، ومن ثم أوى الى دار « أنادا بابو » المجاورة ، وقال لجوجندرا : « لقد أفلت منى ! لم أستطع العثور عليه ! » ، فهتف « جوجندرا » : « ماذا تعنى ؟ » . وانطلق « اكشاى » يروى له ما حدث بالتفصيل ، فاذا شكوك « جوجندرا » فى أمر « رامش » تتحول الى يقين ، لاسيما حين علم ان « رامش » بادر الى الفرار مع « كمالا » عندما رأى « أكشاى » . على أنه قال : « ومع ذلك ، فان هذه القرينة لن تجدينا فى بلوغ غرضنا ، لأن الأمر لم يعد يقتصر على « همنالينى » بل ان والدى أصبح هو الآخر يردد عين اللغو الفارغ عن عدم فقدان الثقة برامش ، حتى يسمع القصة بحذافيرها من « رامش » نفسه !.. لقد تطورت الأمور الى درجة تجعلنى أعتقد ان « رامش » لو جاء اليوم وقال : « ليس فى وسعى بعد أن أذكر لكم شيئا » ، لما تردد أبى فى أن يسمح له بالزواج من « همنالينى » . ومع ذلك ، فالمرء مضطر الى أن يتعامل مع أهل كهؤلاء ! .. ان أبى لا يحتمل أن يرى « همنالينى » حزينة من أجل أى شىء ، ولو أنها سعت اليه اليوم وقالت باكية أنها تريد الزواج من « رامش » رغم انه متزوج من

امرأة أخـــرى ، لوافق عـلى ذلك ! ٠٠ لابد من أن ننتزع اعترافا مفصـــلا من « رامش » بأية وسيلة ، وكلما أسرعنا كان هذا أفضل ، فلا تدعنا نفقـد الأمل ٠ سوف أعالج الأمر بنفسي ، وان كنت لا أدرى كيف أتصرف !٠٠ بل من المحتمل أن لا أجد وسيلة مع « رامش » سوى أن انهال عليه لكما !٠٠ حسنا ٠٠ أعتقد أنك الآن فى حاجة الى الاغتسال ، والى تناول بعض الشاى ! »

واغتسل « أكشاى »، ثم جلس لتناول الشاى ، وذهنه لايكف عن العمل ، حتى قطع عليه أفكاره مقدم « أنادا بابو » ، ممسكا بيد ابنته ٠ فما ان رأت « همنالينى » أكشاى ، حتى نكصت على عقبيها وغادرت الغرفة ٠ واذ ذاك صاح « جوجندرا » محنقا : « هذا تصرف سيء منك ياهيم ! ٠٠ يجب أن لاتشجعها على مثل هذا المسلك النابى يا أبت ، بل ينبغى أن تجبرها على العودة اجبارا ! ٠٠ تعالى يا هيم ! ٠٠ هيم ! »٠٠ ولكن الفتاة كانت قد اندفعت صاعدة السلم ٠ وتدخل « أكشاى » قائلا : « أعتقد انك تفسد قضيتى ياجوجن ٠ من الخير أن لاتذكر لها شيئا عنى ، بل دع الزمن يسوى كل شيء ٠ انك اذا أجبرتها الآن على أمر ، فلن تكون النتيجة سوى ضرر لاسبيل الى اصلاحه ! » ٠٠ ثم غادر « أكشاى » الدار ، بعد أن فرغ من تناول الشاى

٠٠ كان معين هذا الشاب من الصبر لا ينضب ٠ وكان ، حين تبدو الظواهر ضده ، يدرك أن ليس ثمة ما هو أفضل من القعود والانتظـــار ٠ كما كان طبعه غاية فى الهدوء والبرود ، فلو انه أهين لما نظر فى ترفع الى من أهانه ، ولا أشاح عنه فى اشمئزاز ، بل ان الاهانات وأنواع الازدراء لم تكن لتنـال منه !٠٠ كان على قدر كبير من الصفاقة ! ومن ناحية أخرى ، لم تكن تهتز فى بدنه جارحة اذا عامله أصدقاؤه بكل لطف وشهامة !

وما ان انصرف الشاب ، حتى أعاد « أنادا بابو » ابنته الى مائدة الشاى ٠ وكانت الحمرة قد غاضت من وجهها ، وطوقت عينيها هالات سمراء ٠ ولم ترفع بصرها الى أخيها حين ولجت الغرفة ، اذ كانت تعرف أن صبره قد نفد أزاء « رامش » وازاءها ، وأنه قد أصدر حكمه بقسوة فى أمرهما ، ومن ثم كانت تجفل من أن يلتقى بصرها ببصره ! ٠٠ ومع ان « الحب » صان ايمان همنالينى برامش من أى فتور ، الا أنه لم يقو على كتم صوت العقل٠واذا كانت الفتاة قد أكدت لجوجندرا - وهى تبرح الغرفة منذ يومين - انها لن تفقد ثقتها فى « رامش » ، الا انها - فى وحدتها فى جوف الليل - شعرت بهذه الثقة تتململ فى أعماقها ! ٠٠ فالواقع أنها لم تر أى تفسير معقول يبرر المسلك الشاذ الذى أقدم عليه « رامش » ٠ ولقد ناضلت جاهدة لتصد الشك عن حصن ايمانها ، بيد ان الريب راحت تتساقط كالمطر على ذلك الايمان ٠ وكما تضم الأم طفلها الى صدرها لتحميه ، فان « همنالينى » راحت تضم ثقتها فى « رامش » الى

فؤادها ، كلما هاجمتها قرينة من القرائن الباعثة للشك • ولكن •• ترى هل ستظل من القوة دائما ، بحيث تذود عن تلك الثقة ؟!

وفى تلك الليلة ، اتخذ « أنادا بابو » مخدعه فى الغرفة المجاورة لغرفة « همنالينى » ، فعرف كيف قضت ليلتها مؤرقة • وكثيرا ما سعى الى مخدعها ، فوجدها مسهدة • وكان الجواب الدائم الذى ترد به على أسئلته القلقة : « ولماذا لم تنم أنت يا أبت ؟ •• اننى أشعر بالنوم يراود عينى •• بل ها قد بدأت أغفو ! »

واستيقظت مبكرة ، فصعدت تتمشى على سطح الدار • كانت جميع الأبواب والنوافذ فى مسكن « رامش » موصدة ، ومحكمة الرتاج • ولم تلبث الشمس أن بزغت رويدا من وراء السقوف القائمة فى الناحية الشرقية • ولكن اليوم الوليد بدا فى عينى « همنالينى » كئيبا ، راكدا ، خاليا من البهجة، بل باعثا للانقباض• فلم تتمالك أن ركعت فى ركن من السطح ، ودفنت وجهها فى راحتيها ، ثم طفقت تبكى ! •• ومر اليوم دون أن تحظى بزيارة من حبيبها • وحانت ساعة الشاى فى الأصيل ، فلم يكن مقدمه مرتقبا لتنعم بلذة انتظاره •• والأنكى من هذا ، انها حرمت من تلك السلوى التى كانت تنشأ عن شعورها بأنه قريب منها ، فى البيت المجاور !

★ ★ ★

• واجفلت اذ انبعث صوت أبيها يناديها: « هيم! •• هيم ! »،فأسرعت تمسح آثار حزنها ، وأجابت : « نعم يا أبت ؟ » •• وقال « أنادا بابو » وهو يظهر على السطح ويقبل عليها يربت منكبيها : « لقد استيقظت اليوم متأخرا » •• كان قلقه على ابنته قد أقض مضجعه ، فلم يواته النعاس الا عند اقتراب الفجر ، ولم يستيقظ الا حين داعبت أشعة الشمس عينيه، فاغتسل فى عجلة، وأسرع ليطمئن على ابنته، ولكنه وجد غرفتها خالية••وذاب قلبه أسى وهو يراها فى لوعتها ،فقال :«هيا انزلى وتناولى الشاى يا عزيزتى » • وكرهت « همنالينى » أن تواجه «جوجندرا» حول مائدة الشاى ، ولكنها أيقنت أن أى تحول عن عاداتها المألوفة كفيل بأن يضاعف من كدر أبيها ، لاسيما وقد اعتادت أن تصب له الشاى بنفسها ، فلم تشأ أن تهمل هذه الرعاية البسيطة

وحين اقتربا من باب الغرفة ، سمعت « همنالينى » صوت « جوجندرا » وهو يتحدث مع شخص ما ، فخفق قلبها اذ خطر لها أن « رامش » قد يكون فى الغرفة ، فما كان سواه يرتقب فى مثل هذه الساعة المبكرة • ودخلت الحجرة وكل جارحة فى جسمها تختلج ، ولكنها صدمت اذ رأت •• « أكشاى » !

ولم تعد تقوى على تمالك نفسها ، فلاذت بالفرار • فلما أعادها أبوها ثانية الى الغرفة ، جلست لصق مقعده ، وانصرفت بكليتها الى اعداد الشاى • واشتد حنق « جوجندرا » لتصرفها ، فما كان تعلق « هيم » برامش الى هذا الحد بالأمر الذى يطيقه • وزاد من امتعاضه ما رآه من مشاطرة « أنادا بابو » لأساها ، ومن محاولتها اتخاذ حب أبيها لها حجابا بينها وبين الدنيا • وراح يقول لنفسه : « اننا جميعا مذنبون ! •• عندما يحملنا حبنا لها على أن نؤدى واجبنا وأن نعمل لسعادتها الحقيقية ، فاننا لانحظى منها بكلمة شكر •• بل انها تعتبرنا فى قرارة نفسها مذنبين ! ان أبى لا يعرف مطلقا كيف يعالج هذا الموقف ، فخليق به فى هذه المرحلة أن يعمد الى الشدة بدلا من أن يدللها • انه يؤخر مواجهتها بالحقيقة القاسية خوفا من ايلامها ، ومن ثم فسوف تكون صدمتها أعنف ! »

وقال أخيرا بصوت مرتفع : « أتعرف ما الذى حدث يا أبى ؟ » •• فأجاب « أنادا بابو » فى لهفة : « لا •• ماذا جرى ؟ »

ـ لقد رحل «رامش» فى طريقه الى بلدته بقطار (جوالوندو) فى الليلة السالفة ، مصطحبا زوجته • فلما رأى « أكشاى » يستقل القطار ، عدل عن خطته ، وعاد الى (كلكتا)

وارتعشت يد « همنالينى » ، فتناثر الشاى وهى تصبه • وأسرعت تتهالك فى مقعدها ، بينما رمقها « جوجندرا » من ركن عينه وهو يمضى قائلا : « لست أفقه الحافز الذى دفعه الى الفرار ، مع ان « أكشاى » عرف كل شيء عنه • لقد كان مسلكه السابق وضيعا فى حد ذاته ، ولكن الأنكى منه أن يتولاه الخوف وأن يبادر هكذا الى الفرار ! •• ان مسلكه فى رأيى لايستحق سوى الاشمئزاز • لست أعرف رأى « هيم » فى ذلك ، ولكننى أعتبر فراره دليلا كافيا على جرمه ! » •• فنهضت « همنالينى » وكل جسمها يرتجف ، وقالت لأخيها : « لست راغبة فى دليلك هذا ، فشكرا لك •• بوسعك أن تدينه كما تشاء ، أما أنا ، فلا أجد من حقى أن أحكم عليه ! »

جوجندرا : « أليس هناك ما يجعل من حقنا أن نهتم بالرجل الذى كان موشكا أن يتزوج منك ؟ »

همنالينى : « لم أقل شيئا عن الزواج • افصم الخطبة أو لاتفصمها ، كما يحلو لك •• ولكن ، لاتحاول ان تحطم اصرارى على موقفى ! » •• واختنق صوتها بالبكاء ، فلم تقوى على المضى فى الحديث • ونهض « أنادا بابو » فضم وجهها المندى بالدموع الى صدره ، واكتفى بأن قال : « هيا يا عزيزتى •• لنصعد الى الطابق العلوى »

الفصل الثالث والعشرون

أقلعت الباخرة التى استقلها « رامش » و « كمالا » - من ميناء (جوالوندو) - فى الموعد المحدد لها . ولم يكن ثمة ركاب فى الدرجتين الأولى والثانية غيرهما ، ومن ثم استأجر « رامش » قمرة أخرى متصلة بالقمرة التى احتجزها من قبل . واحتست « كمالا » قدحا من اللبن ، ثم جلست تتأمل مناظر النهر خلال باب القمرة المفتوح ، وقد تملكها الاعجاب . فسألها رامش : « أوتدرين الى أين نحن ذاهبان ياكمالا ؟ » .. قالت : « الى البلدة »

رامش : « انك لم تكونى راغبة فى الذهاب اليها ، ولذلك فلن نذهب ! »
كمالا : « هل عدلت من أجلى ؟ »
رامش : « نعم .. من أجلك ! »
فعضت شفتها وقالت : « لم فعلت هذا ؟ ما كان لك أن تعنى بكلمة عابرة لم أكن أعنيها .. انك سريع الاستياء ! » . فابتسم رامش وقال : « بل اننى لم استأ مطلقا ، ولكننى لم أكن راغبا أنا الآخر فى الرحيل الى البلدة ! » . وهنا سألته « كمالا » فى لهفة : « اذن ، فالى أين نذهب ؟ » .. فقال : « اننا ذاهبان الى ريف الغرب » . وفتحت « كمالا » اذ ذاك عينيها على سعتهما .. أى معنى حافل يتمثل فى كلمة « الغرب » ، فيخلب ألباب أولئك الذين لم يغادروا من قبل مواطنهم ! .. معنى حافل بصور الأضرحة المقدسة ، والجو المنعش ، والأماكن غير المألوفة ، والمناظر الجديدة ، والأمجاد الغابرة للملوك والأباطرة ، والمعابد الرائعة ، وأساطير الماضى ، وحكايات عصر البطولة !

وتساءلت «كمالا» وقد استخفها الطرب : « والى أى مكان من الغرب نذهب ؟ ». فقال : « اننى لم أقرر بعد . سنمر بمونغير ، وباتنا ، ودينابور ، وبوكسار ، وغازيبور ، وبنارس .. وسنهبط فى أحد هذه الأماكن » . وكان بعض هذه الأسماء مألوفا لدى « كمالا » ، والبعض غريبا عنها ، ولكن ذكرها أذكى خيالها ، فصفقت هاتفة : « ما أبدع هذا ! » ، فقال رامش : « وما بعد ذلك أبدع ! .. على أننا يجب أن ندبر الآن أمر غذائنا أثناء الرحلة ، فما أحسبك راغبة فى أن تتناولى وجباتك من مطبخ الملاحين ! » ، فابتسمت صائحة : « لتحفظنا السماء ! لا ، بالطبع ! »

رامش : « اذن ، فماذا نفعل ؟ »
كمالا : « سأتولى طهو وجباتنا بنفسى ! »
رامش : « وهل لك دراية بالطهو ؟ »
فقهقهت « كمالا » قائلة : « لست أدرى ما الذى تظنه بى ؟ .. هل لى دراية

بالطهو ! أو تظنني بلهاء ؟ لقد كنت أقوم بالطهو دائما فى بيت خالى » • واذ ذاك قال « رامش » معتذرا : « ما كان ينبغى أن أوجه اليك هذا السؤال • ولكن ، يحسن بنا أن نبدأ استعدادنا من الآن ، أليس كذلك ؟ » •• وأسرع فغاب عنها برهة ، ثم عاد يحمل موقدا حديديا (من النوع المعروف بالكانون) • على أن هذا لم يكن كل ما فى الأمر من تدبير •• اذ كان على الباخرة غلام يدعى « اومش » ، ينتمى الى طائفة « الكاياستا » أو « الكتاب » - (وهى طبقة لايعلو عليها فى البنغال سوى البراهمة) - فاستأجره « رامش » ليساعد « كمالا » مقابل تكفله بأجر سفره الى (بنارس) ومبلغ زهيد يدفعه اليه كل يوم • ثم سأل « كمالا » : « ما الذى نتناوله فى الفطور يا كمالا ؟ »

- وماذا نرجو اذا كنت لم تحضر لى سوى أرز وعدس ؟ •• سنأكل «كشرى» اليوم !

وحصل « رامش » على بعض التوابل من بحارة السفينة ، بتوجيه من «كمالا»، فسألته وقد استخفها جهله بشئون المطبخ : « ما الذى تتوقع أن أفعله بهذه التوابل الآن ؟ ليس بوسعى أن أصحنها بغير هاون ومدق كما تعلم ! » • وابتلع « رامش » هذا التأنيب ، وأسرع باحثا عن مطلبها • ولم يجد ما أرادته تماما ، ولكنه استطاع أن يستعير من البحارة مدقا حديديا ، وجرنا • ومع أن « كمالا » كانت قد اعتادت صحن التوابل والبهارات فى الهاون الخاص بها ، الا أنها كانت مضطرة لمسايرة الظروف • واقترح « رامش » أن يكل هذه المهمة الى شخص آخر ، ولكنها استبعدت هذا الرأى ، وأقبلت على العمل بنشاط وتحمس • ووجدت فى العمل بأداة لم تألفها متعة ، فكانت تضحك اذا ما تطايرت التوابل وتناثرت فى كل صوب • وسرت عدوى الطرب والمرح منها الى « رامش » ، فحذا حذوها • ولما انتهت مرحلة صحن البهارات ، شمرت « كمالا » ذيل ثوبها ، واختارت ركنا أحاطته بسياج ليكون مطبخا لها • وكان ثمة وعاء كبير من الفخار ، لاختزان الحلوى ، فاستخدمته كآنية للطهو • واذ وضعت فيه ماء وتركته يغلى على النار ، اقترحت على « رامش » أن يذهب فيغتسل ، بينما تعد له فطوره ، فاستجاب لها • ووجد الطعام قد طهى بالفعل عندما عاد • واذ ذاك ، كان السؤال : ما الذى يمكن استخدامه كطبق ؟ •• وأبدى « رامش » اقتراحا وهو موجس •• اقترح أن يستعير طبقا من أحد الملاحين المسلمين ، بيد أن « كمالا » ارتاعت لهذه الفكرة ، وان اعترف لها « رامش » - بصوت خفيض - بأن هذه لن تكون المرة الأولى التى يخرق فيها تقاليد الديانة الهندوكية فيما تعتقده طهرا ! •• وقالت « كمالا » معقبة : « ليس لك أن تتحلل من هذه التعاليم الآن ، كما ينبغى أن لا تعود الى ذلك ، فانى لا أتسامح فى تلك الأمور ! »•• ثم تناولت الغطاء المسطح الذى كان يعلو الوعاء ، فنظفته بعناية، ثم وضعته أمامه

قائلة : « استعمل اليوم هذا ، على أن نستبدله متى استطعنا بشيء أفضل منه! »

وجلب « رامش » ماء فغسل بقعة من سطح المركب ، وجلس يتناول طعامه ، وهو مرتاح الى أنه لم يتجاوز التزاماته الدينية ٠ وما أن تناول حفنة أو اثنتين ، حتى هتف : « لعمرى ! ٠٠ ما أبدع طهوك ! » ٠٠ فصاحت مستاءة : « لا داعى لأن تسخر ! » ٠٠ قال : « لست أسخر ، بل سترين بنفسك عندما تتناولى نصيبك من هذا الطعام » ٠٠ وسرعان ما أتى على ما كان فى الطبق ، وطلب مزيدا ، فأعطته « كمالا » أكثر من النصيب الأول ٠٠ وهتف بها : « ما هذا الذى تفعلين ؟ ٠٠ هل أبقيت لنفسك ؟ » ٠٠ قالت وقد سرها أن ترى « رامش » يستطيب الطعام : « آه ٠٠ لا بأس ! ٠٠ لا يزال فى الآنية كثير ! » ٠٠ فسألها : « وفيم ستأكلين ؟ » ، وأجابت ، وهى لا تجد بأسا فى أن تستعمل طبقه ما دامت زوجة له : « سأستعمل غطاء الآنية طبعا ! » ٠ واستنكر «رامش» هذا ، فمن تقاليد الهندوكيين أن لا يستعمل امرؤ متاع امرىء آخر ، ولكن « كمالا » صاحت : « ولماذا ؟ » ٠٠ قال : « لأنه لا يجوز »

ـ بل يجوز ٠٠ اننى أدرك صحته ٠٠ ولكن ، فيم تأكل يا أومش ؟

قال الصبى : « هناك رجل يبيع الحلوى فى السفينة ، وسأحصل منه على بعض أوراق الشجر فأستخدمها كطبق ! »

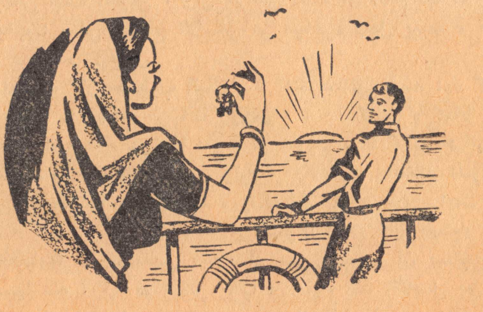
وقال « رامش » لكمالا : « اذا كنت ستستخدمين هذا الغطاء ، فهاته أغسله لك غسيلا جيدا ! » ٠٠ ولكنها أجابته فى استهجان : « فيم اهتمامك بأمر لا يستحق كل هذا العناء ؟ » ٠٠ وما لبثت بعد دقائق أن هتفت : « لقد نسيت أن تحضر لى بعض نبات الفوفل ، ومن ثم فلن أملك أن أقدم لك ما تمضغه منه ! » ، فأجاب : « فى السطح الأسفل من الباخرة رجل يبيعه » ٠ وسرعان ما جاءها بعدد من هذه الأوراق

على أن « رامش » كان مضطرب البال ، لا يفتأ يسائل نفسه : « كيف يمكن أن أنتزع من ذهنها ما تعتقده من أننا زوجان ؟ » ٠٠ كانت « كمالا » منساقة الى أن تقوم بأعباء الزوجة ، دون ما معونة أو تدريب ، اذ كانت حياتها فى دار خالها ـ من قبل ـ سلسلة من الطهو ، وتربية الأطفال ، والتدبير المنزلى ٠ ولقد بهرت « رامش » بعنايتها ، ومهارتها ، والنشاط المرح الذى راحت تؤدى به أعمالها ٠ ولكنه كان لا يلبث أن يرتد الى السؤال الذى كان يضنيه : ما الذى ستصير اليه علاقتهما فى المستقبل ؟ ٠٠ لم يكن ليتصور أن يستبقيها معه ، لا ولا أن يقصيها عنه ! ٠٠ ثم ، أين يجب أن يقوم الحد الفاصل بين ما ينبغى وما لا ينبغى فى اتصالاتهما اليومية ؟ ٠٠ وتمنى لو أن « همنالينى » كانت معهما ! ٠٠ ولكن هذه غدت أمنية مستحيلة ، لا ينبغى أن يفكر فيها وهو يتدبر حلا للموقف الراهن ! ٠٠ وأخيرا ، انتهى تفكيره الى أن التكتم لا ينبغى أن يمضى الى أبعد من هذا الحد ، بل لا بد من أن تعرف « كمالا » الحقيقة كلها !

الفصل الرابع والعشرون

• بلغت الباخرة ـ بعد الظهر ـ منطقة ضحلة من النهر ، أخفقت كل الجهود فى تعويمها فيها ، وما لبث أن اقترب الليل وهى لا تزال معطلة عن السير . وفوق الحافة العليا للضفة ـ وكانت بارتفاع أعلى منسوب تصل اليه مياه النهر اذا ما حان موسم الفيضان ـ بدت الأرض مسطحا من الرمال ينحدر الى حافة الماء ، تظهر عليه آثار أقدام الطيور المائية ، كما لو كانت نقوشا دقيقة . وأقبلت القرويات يحملن الجرار ليملأنها للمرة الأخيرة قبل هبوط الظلام ، فتطلعن بأعين فضولية الى الباخرة .. وكانت المتمسكات بالحياء منهن يرسلن النظرات من وراء أقنعتهن المسدلة على وجوههن .. أما ذوات النفوس الجريئة ، فقد تخلصن من هذه الحجب ! .. وراح الصبية يرقصون ويصيحون على الضفة ، ساخرين من الباخرة وهى فى مأزقها ، بعد أن كانت تمر بهم من قبل ، شامخة بأنفها فى الهواء !

وانحدرت الشمس للمغيب وراء الرمال . وكان « رامش » يقف عند حاجز السفينة ، مسرحا بصره عبر النهر الى سماء الغرب وهى تتوهج بآخر أشعة الشمس الآفلة ، حين خطت « كمالا » من وراء سياج المطبخ ، ووقفت لدى باب القمرة ، ثم سعلت فى صوت خافت لتنبه « رامش » . فلما لم يلتفت ، تناولت حزمة المفاتيح ، وأخذت تهزها وتتعمد ارتطامها بالباب ! .. واضطرت الى أن تعنف فى الهز ، قبل أن يلتفت « رامش » ، حتى اذا رآها ، اجتاز سطح



السفينة اليها ، وقال : « اذن فهذه طريقتك فى ندائى ؟ »

ـ لم تخطر ببالى طريقة أخرى !

ـ وكيف ؟ .. لماذا تظنين أن أهلى أطلقوا على اسما ، اذا لم يكن هذا الاسم

للنداء ؟ •• لم لا تصيحين عاليا : « يا رامش بابو ! » ، اذا أردتني لأى أمر ؟

واستنكرت منه – مرة أخرى – هذا اللون غير المستساغ من الدعابة •• أفيليق بالزوجة الهندوكية أن تخاطب زوجها باسمه ؟ •• وضارعت حمرة خدى « كمالا » حمرة الشمس الآفلة ، وصاحت وهى تشيح بوجهها : « لست أفقه ما تقول •• ألا اسمع ، ان عشاءك معد ، فيحسن بك أن تقبل لتناوله ، فانك لم تحظ بفطور طيب اليوم! » •• وكانت نسمات النهر قد أيقظت شهية « رامش » ، وان لم يقل لكمالا شيئا بهذا الصدد ، خشية أن تظلم نفسها بايثاره بالقسط الأوفر من الطعام • على أن رضاءه تضاعف حين دعته للعشاء دون أن ينبهها الى جوعه • ومن الصحيح أن هذا الرضى كان راجعا – فى أحد عناصره – الى توقع اشباع الجوع المادى ، ولكن كان هناك عنصر آخر ، تمثل فى لذة الشعور بأن ثمة من كانت تفكر فيه ، وتعمل من أجله ! •• ولم يستطع أن يخفى عن نفسه ادراك هذا العنصر ، ولكنه رغم ذلك كان مضطرا الى أن يواجه الحقيقة الممضة ، التى كانت تذكره بأنه لم يكن صاحب الحق الشرعى فى هذه الرعاية التى قدرها أعظم تقدير ، والتى قامت على أساس من وهم زائف ! •• وتنهد فى أسى ، وهو يلج القمرة مثقل القلب • وما كان وجومه ليخفى على « كمالا » ، فقالت فى دهشة : « لا يبدو عليك أنك راغب فى العشاء •• لقد توقعت أن تكون جائعا •• انى آسفة اذا كنت قد تعجلتك دون رغبة منك ! » • فسارع « رامش » الى التظاهر بالسرور ، وقال : « ما تعجلتنى أنت ، وانما جوعى هو الذى جاء بى » • ثم تلفت حوله هاتفا : « عجبا ! •• ولكنى لا أرى شيئا يؤكل • صحيح اننى جائع ، ولكنى لا أحسب معدتى تقوى على هضم شيء كهذا ! » ••وأشار الى أغطية الفراش وأثاث القمرة ، وهو مسترسل فى القول : « لم أتعود منذ نشأتى مثل هذا الغذاء ! »

وانفجرت « كمالا » ضاحكة ، حتى اذا تمالكت نفسها ، قالت : « عجيب منك أن لا تصبر الآن قليلا ، فى حين أنك كنت فى شغل عن الأكل والشرب وأنت تسرح بصرك نحو الشمس الغاربة ! •• فهل استيقظت شهيتك فجأة عندما ناديتك ؟ •• حسنا •• انتظر دقيقة واحدة ، ريثما أحضر لك الطعام »•• فقال : « الا فاسرعى ، والا فلا تلومى غير نفسك اذا أنا التهمت أغطية الفراش ! » •• ولم يخفف التكرار من تأثير النكتة ، فانطلقت « كمالا »مقهقهة، وأخذ جرس ضحكتها الفضى يجلجل فى القمرة بعد أن بارحتها لتحضر الطعام•• بينما غاض مرح « رامش » بمجرد أن أولته ظهرها ! •• وسرعان ما عادت « كمالا » تحمل الطعام ، فمسحت الأرض بطرف ثوبها ، ووضعته عليها • وهتف رامش : « ماذا تفعلين ؟ » فقالت وهى تكشف عن بعض الكعك المقلو ، والخضر : « لا بأس ، فاننى سأغير الثوب حالا » •• وصاح « رامش » : « مرحى!

.. من أين حصلت على الكعك المقلو ؟ » .. ولم تبد رغبة فى أن تطلعه على السر فى الحال ، اذ أجابت فى تكتم : « احدس ! » .. واندفع « رامش » يذكر عددا من الافتراضات الخيالية التى كانت « كمالا » ترفضها فى استنكار ، وما لبث فى النهاية أن قال : « لا بد أن علاء الدين - صاحب المصباح السحرى فى « ألف ليلة وليلة » - قد أرسل مارده فأحضرها لك ساخنة من بلوخستان ! » .. واذ ذاك نفد صبرها ، فتحولت مستاءة منه ، قائلة أنها لن تصارحه بالحقيقة حتى يكف عن هذا المزاح . وهنا قال فى رجاء : « لقد عجزت عن التخمين ، فانبئينى .. الحق أننى لا أدرى كيف استطعت أن تحصلى على كعك مقلو ،ونحن فى عرض النهر .. على أنه كعك لذيذ ، على أية حال ! » .. وأبدى عمليا مدى اعجابه الذى جعل شهيته تتغلب على فضوله !

★ ★ ★

◆ وكانت الحقيقة تتمثل فى أن « كمالا » انتهزت فرصة وقوف السفينة لانخفاض مياه النهر ، فأوفدت « أومش » الى أقرب قرية ليبتاع ما يعوض القدر الذى استهلك من المؤونة . اذ كان قد تبقى معها عدد من الروبيات التى نالتها - كمصروف لها - من « رامش » ، حين ذهبت الى المدرسة . ومن ثم طلبت بعض الدقيق والمسلى ، ثم سألت « أومش » عندما جاءها بما طلبت : « وماذا تبتغى لنفسك ؟ » .. فقال : « لقد لمحت بعض اللبن الخثر (الرايب) عند لبان فى القرية ، ولدينا كثير من الموز الاخضر فى القمرة ، فاذا ابتعت مع اللبن بعض الارز المسحوق ، صنعت لنفسى عصيدة رائعة ! » .. وأشفقت « كمالا » على الصغير ، فسألته : « هل تبقت معك نقود ؟ » .. ولكنه أجاب : « لم يبق شىء !» .. وكانت هذه هى المشكلة !.. فقد كانت « كمالا » تأبى أن تطلب من «رامش» نقودا . وما لبثت بعد قليل من التفكير أن قالت : « حسنا ، اذا لم تستطع ان تنال عصيدتك اليوم ، فعليك بالكعك المقلو، هيا وساعدنى فى اعداد العجينة». ولكنه عاد يسألها : « واللبن الخثر يا أماه ؟ » ، فقالت : « اسمع يا أومش .. انتظر حتى يتناول سيدك العشاء ، فأنبئه بأنك تريد نقودا لشراء بعض لوازم لنا»

وفيما كان « رامش » فى منتصف وجبته ، ظهر « أومش » ، ووقف يحك رأسه فى ذلة ، فلما تطلع اليه « رامش » ، تمتم : « جئت بشأن نقود لشراء اللوازم يا أماه » .. وفطن رامش فجأة الى أن المرء لن يجد قوتا ما لم ينفق من ماله ، وانه لا يملك « مصباح علاء الدين » حتى يغنيه عن الانفاق ، فهتف : « حقا يا كمالا .. ما أظن أن لديك نقودا ! » .. فتعللت « كمالا » بانها نسيت ان تطلب . وحين فرغ « رامش » من عشائه ، أسلمها خزانة صغيرة بها نقود ، وقال : « يحسن بك أن تحفظى نقودنا ونفائسنا فى هذه الخزانة ابان رحلتنا »

واذ تبين « رامش » ان منطق الظروف أصبح يقتضى القاء اعباء تدبير حاجات

الأسرة على « كمالا » ، عاد الى موقفه لدى سياج السفينة ، ووقف يتأمل آخر فلول النور وهو يخبو فى الناحية الغربية من السماء ، بينما أسرع « أومش » الى القرية ، وعاد فقام باعداد « العصيدة » التى كان يشتهيها ، وانكب عليها يلتهمها . وفى خلال ذلك ، وقفت « كمالا » تستدرجه حتى ألمت بطرف عن حياته .. كان ابنا غير مرغوب فيه ، فى بيت تسيطر عليه زوجة أب ، فهرب من الدار ، وكان فى طريقه الى (بنارس) حيث يقيم أحد أقارب أمه .. وقال الغلام : « لو سمحت لى بالمقام معك يا أماه ، فلن أفكر فى الذهاب الى أى مكان آخر ! »

وحرك قوله - فى نفس « كمالا » - غريزة الأمومة الكامنة فى أعماق قلب كل فتاة ، لا سيما حين راح يخاطبها بلقب « أماه » فى سذاجة بريئة ، فقالت تطمئنه : « حسنا يا أومش .. ستصحبنا ! »

الفصل الخامس والعشرون

◆ لاحت الشجيرات التى كانت متناثرة على ضفة النهر كسياج معتم أحاط بالسماء التى اصطبغت بألوان الشفق . وأقبل البط - فى اسراب تحلق خلال الظلمة التى كانت تجمع أطرافها - عائدا من رحلته اليومية فى موارد قوته ، الى مواطنه الليلية فى البرك والبحيرات المنعزلة وسط الضفاف الرملية ، كما عادت الغربان الى أوكارها ، وهى ترسل صياحها فى الجو . وجنحت كل القوارب الى البر ، عدا مركب كبيرة شدت الى الشاطىء فى صمت ، فبدت كلطخة سمراء على صفحة الخضرة الذهبية التى استحال اليها النهر الساكن . وسحب « رامش » مقعدا من الخيزران الى مقدمة الباخرة ، وجلس فى الضوء الخافت المنساب من الهلال الجديد . وابتلعت ظلال الليل آخر خيوط الشفق فى الغرب ، وبدا وجه الأرض وكأنه يذوب فى ضباب شفاف ينيره ضوء القمر الواهن. وغمغم رامش: « هيم ! .. هيم ! » ، فاذا الاسم الحبيب يلتف حول قلبه فى حنان ناعم . وتجسم لفظ الاسم فى صورة لعينى الحبيبة المفقودة وقد تألقتا بحنان ملائكى ، وأخذتا ترمقانه خلال ضباب حالم ، وهما تسكبان ما كان يكمن فيهما من أسى ، فسرت رجفة فى جسد « رامش » وترقرق الدمع فى عينيه

وانبسطت حياته خلال العامين الماضيين أمام عينيه . تذكر أول لقاء له بهمنالينى .. ما خطر له ببال فى تلك المناسبة ، ان ذلك اليوم سيكون من الأيام الحاسمة فى حياته !.. كان « جوجندرا » قد اصطحبه الى داره ، فارتبك الشاب الخجول حين رأى « همنالينى » على رأس مائدة الشاى . وما لبث الحياء

أن فارقه رويدا ، فبدأ يرتاح الى صحبتها • وعندما أخذت الألفة بينهما تزداد وتنمو ، خيل اليه أن كل ما قرأ من أشعار الحب والهوى ، انما نظم من أجل « همنالينى » وحدها • وبدأ يزهو - فى قرارة نفسه - حين أحس بانه صريع الغرام ، وراح يرثى لزملائه الذين كانوا مضطرين الى استذكار قصائد الحب ليؤدوا امتحاناتهم ، فى حين أن الحب غدا بالنسبة له حقيقة واقعة ، حية !

وتبين اذ ذكر هذا ، انه كان فى تلك الأيام يقف على عتبات « الحب » ! •• ولم يتخذ غرامه بهمنالينى شكلا حقيقيا ، ولا غدا نابضا حيا ، الا عندما ظهرت « كمالا » فجأة على مسرح حياته ، فجعلت هذه الحياة لغزا لا سبيل الى حله !•• وأسند « رامش » رأسه الى يده ، وهو مستغرق فى التفكير • وامتدت صفحة الحياة أمامه •• حياة حافلة بجوع القلب •• جوع لم يحظ قط بالشبع ! •• حياة مخلوق هوى فى شباك يحاول جاهدا أن يحرر نفســـه منها ! •• أليس بوسعه أن يمزق هذه الشباك ، اذا هو استجمع قواه ؟ •• ورفع رأسه فى أوج الحماس ، واذ ذاك لمح « كمالا » تقف جد قريبة منه ، وقد استندت بذراعيها الى ظهر مقعد آخر • وأجفلت اذ رفع رأسه ، وهتفت : « لابد أنك كنت نائما ، وها أنت ذا قد استيقظت ! » •• وهمت بأن تتحول عنه وقد نفد صبرها ، لولا أن ناداها : « لا بأس يا كمالا ، لم أكن نائما •• تعالى فاجلسى ، وســأروى لك قصة ! » •• واستهواها ذكر القصة ، فقربت مقعدها من مقعده ، واستقرت الى جواره • وكان « رامش » قد عقد العزم على أن ينبئها بالحقيقة كلها ، ولكنـه خشى أن تكون الصدمة أقسى من أن تحتملها اذا ما أزجى اليها باعترافه دون تمهيد •• ومن ثم كانت فكرة القصة التى مناها بها !

★ ★ ★

◆ شرع « رامش » يروى القصة قائلا : « كانت هناك ذات مرة قبيلة تسمى قبيلة الراجبوت •• » ، وهنا سألته كمالا : « متى كان ذلك ؟ •• فى سالف الأوان ؟ » • قال : « أجل ، منذ زمن بعيد •• لم تكونى قد ولدت بعد ! » •• فقالت ساخرة : «أما أنت فكنت قد ولدت طبعا ، فأنت كهل كبير••أليس كذلك ؟ •• وبعد ؟ » •• فاستأنف الحديث : « وكان لهؤلاء الراجبوت عادة خاصة •• فعندما يقدم أحدهم على الزواج ، لا يذهب بنفسه الى دار عروسه ، وانما يرسل اليها سيفه • وكانت العروس تمضى فى طقوس الزفاف مع السيف ، ثم تنتقل الى بيت الزوج ، وتزف اليه شخصيا ! »

كمالا : « آه !•• لعمرى !•• ما أغربها من طريقة للزواج ! »

رامش : « اننى شخصيا لا أكاد أتصورها ، ولكن هذا ما كان يحـدث !•• هكذا جاء فى القصة •• والظاهر أن أولئك « الراجبوت » كانوا يــرون أن الذهاب بأنفسهم الى العروس أمر لا يليق بهم !•• وكان الملك الذى تدور حوله

هذه القصة ، ينتمى الى هذه القبيلة . ففى ذات يوم ... »

كمالا : «ولكنك لم تذكر لى فى أى بلد كان هذا الملك ؟»

رامش : « كان ملك (مادورا) .. ففى ذات يوم ... »

قالت « كمالا » ، فى اصرار على أن تعرف كل شىء بدقة وايضاح : « يجب أن تذكر اسمه أولا ! » .. ولو أن « رامش » فطن الى هذا الاتجـــاه منها ، لاستعد للأمر قبل أن يقدم عليه . وأدرك انها رغم تلهفها على سماع القصة ، لن تفلت أية صغيرة ولا كبيرة ، ما لم تكن واضحة . وعاد يواصل رواية القصة بعد تردد وجيز : « كان اسمه رانجيت سينغ » .. فرددت « كمالا » : «رانجيت سينغ ، ملك مادورا .. وبعد ؟ »

رامش : « فى ذات يوم ، سمع الملك من شاعر رحالة ، ان لملك آخـــر من نفس جنسه ، ابنة رائعة الجمال ... »

كمالا : « وفى أى بلد كان ذلك الملك ؟! »

رامش : « لنفترض انه كان ملك كونجفرام ! »

كمالا : « ولماذا نفترض ؟.. ألم يكن ملك كونجفرام بالفعل ؟ »

رامش : « بلا شك ! .. أتحبين أن تعرفى اسمه أيضا ؟ .. كان اســـمه آمار سينغ ؟

كمالا : « ولكنك لم تنبئنى باسم الفتاة .. الابنة الرائعة الجمال »

رامش : « آسف ، اذ نسيت ذلك . كان اســـمها .. كان اسمها .. آه ، أجل . كان اسمها تشاندرا ! »

كمالا : « ان نسيانك للأمور عجيب !.. ولكن ، ألم تنس اسمى من قبل ؟!»

رامش : « حسنا .. عندما سمع ملك (اود) هذا من الشاعر ... »

كمالا : « أى ملك (أود) هذا ؟.. ألم تقل انه كان ملك مادورا ؟ »

رامش : « ما أظنك تحسبين انه كان ملكا لبلد واحد !.. كان ملك (أود) و (مادورا) معا ! »

كمالا : « لعلهما كانا متجاورين ، اذن ! »

رامش : « أجل . كانا متلاصقين ! » .. وراحت « كمالا » ـ خلال القصة ـ تلتقط النقاط المتعارضة ، وتكشف نواحى النقص . على أنه ما لبث فى النهاية أن استكمل كل شىء ، فمضى يروى لها هذه الخرافة : « أوفد رانجيت سينغ ، ملك مادورا ، رسولا الى ملك كونجفرام يطلب اليه يد ابنته الاميرة . فبادر آمار سينغ الى الموافقة .. واذ ذاك ، سار « اندراجيت سينغ » ـ شقيق رانجيت الأصغر ـ على رأس جنوده الى مملكة آمار سينغ ، رافعا الأعلام ، محوطا بضجة الطبول والمزامير ، وضرب خيامه فى ساحة قصر الملك . وأقامت مدينة كونجفرام الأفراح احتفالا بهذه المناسبة السعيدة . ورصـــد الفلكيون التابعون للملك

كواكبهم ، وحددوا يوما وساعة محفوفين بالسعد ، ليتم فيهما الزواج • وكان الموعد هو الساعة الثانية بعد منتصف الليلة الثانية عشرة من النصف المظلم من الشهر • وفى تلك الليلة ، ازدانت كل الدور بأكاليل الزهـور ، وتلألأت الأنوار فى المدينة ، احتفالا بزواج الأميرة تشاندرا ••

« ومع ذلك ، فان الأميرة لم تكن تعرف من هو الزوج الذى قدر لها ، اذ كان الحكيم « برامنندا سوامى » قد أعلن لأبيها عند مولدها نبوءة قال فيها : « ان أحد الكواكب ينذر بشر يحيق بابنتك • فعندما يحين لها أن تتزوج ، حذار من أن تكشف لها عن اسم الرجل الذى ستقترن به ! » •• ومن ثم ، تمت مراسم الزفاف مع السيف ، وقدم « اندراجيت سينغ » الهدايا التقليدية نيـابة عن الزوج ، وقدم آيات الولاء لزوجة أخيه • وكان « اندراجيت » عظيـم الوفاء لأخيه ، فلم يرفع طرفه الى وجه الحسناء النبيلة التى كانت حمرة الخجل تكسو أساريرها وراء قناعها ، وانما ثبت عينيه على قدميها البديعتين المخضبتين بالحناء ! •• حتى اذا كان اليوم التالى للاحتفال ، رفع « اندراجيت » الأميرة الى محفة وثيرة مرصعة باللآلىء ، وانطلق بها الى بلده • ووضع ملك كونجفرام يده على رأسها يباركها مودعا ، وقلبه منقبض اذ تذكر كوكب النحس الذى يتهدد طالع ابنته • ولم تتمالك الملكة دموعها وهى تقبل شفتى ابنتها • واجتمع ألف كاهن فى المعابد ، يرددون الصلوات لدفع المصير المنحوس عن العروس ••

« وكانت كونجفرام جد بعيدة عن مادورا •• كانت الرحلة بينهما تستغرق شهرا تقريبا • فلما كانت الليلة الثانية ، ضرب « الراجبوت » خيامهم علـى ضفاف نهر (فيتشا) • وكانوا يتأهبون للنوم ، عندما بدت أضواء مشاعل فى غابة مجاورة ، فأوفد « اندراجيت » أحد حراسه يستطلع الخبر ، فعاد الرجل يقول : « مولاى ، ان الأنوار لجماعة مثلنا عائدة من زفاف • وهم من ابنـاء قبيلتنا الراجبوت ، يرافقون عروسا يقلونها الى بيت زوجها ، ويصطحبون حراسا مسلحين • ولما كانت الطريق غير مأمونة ، فانهم يلتمسون من سـموكم أن تبسطوا عليهم حمايتكم ، ويرجون أن تسمحوا لهم بمرافقتنا فى جزء من الطريق» •• فأجاب الأمير : « ان الشهامة تجعل نجدة أولئك الذين ينشدون الحماية واجبا مقدسا•فلندافع عنهم بكل ما اوتينا من قوة» ••وهكذا ، اتحد الفريقان••

« وكانت الليلة الثالثة هى آخر ليالى النصف المظلم من الشهر • وبلـغ الفريقان بقعة تحف بها سلسلة من التلال ـ من الأمام ـ وغابة كثيفة من الخلف• وما أن ضربت الخيام ، حتى استغرق الجنود المنهوكو القوى فى النعاس ، بين زقزقة العصافير الصداحة ، وخرير المياه • وفجأة ، انبعثت جلبة أيقظت الجميع من سباتهم • واندفعت الجياد تجرى وهى جامحة ، خلال معسكر مادورا ، اذ سرحتها أيد خفية من عقالها • وشبت النيران فى بعض الخيام ، فارتفعت ألسنتها

تضىء صفحة السماء المعتمة • وسرعان ما أدرك الجنود أن عصابة من الأشقياء هاجمتهم • ودار قتال مستميت • وكان من المتعذر فى الظلام أن يميز أحد عدوه من صديقه ، الأمر الذى مكن للفوضى من أن تضرب أطنابها • وفى غمرة الاضطراب والفوضى ، حمل قطاع الطريق كل ما كان فى المعسكر ، وانطلقوا فاختفوا بأسلابهم فى التلال ••

« وعندما انتهى القتال ، لم يعثر أحد للأميرة على أثر ، فقد هربت فى ذعرها من المعسكر ، وانضمت الى جماعة من الهاربين ظنتهم قومها • ولكنهم كانوا فى الواقع من الجماعة التى كانت ترافق العروس الأخرى • وكان قطاع الطريق قد اختطفوا هذه العروس فى غمرة الفوضى ، فظنت الجماعة أن الأميرة « تشاندرا » هى عروسهم ، وانطلقوا بها الى بلدهم بأقصى سرعة فى وسعهم • وكانوا ينتمون الى عشيرة مغمورة من قبيلة الراجبوت ، تقيم على ساحل (كارناتيك) • وما لبثت الأميرة أن التقت بزعيم العشيرة ، وكان اسمه « تشيت سينغ » •• وهو الزوج الذى كان يرتقب العروس الأخرى • ورحبت أم « تشيت سنغ » بالفتاة، ورافقتها الى مخدعها ، بينما كان القوم يرددون فيما بينهم : « مارأينا قط مثل هذا الحسن ! »

« ووجد « تشيت سينغ » ان عروسه كانت منحة من السماء ، فأحبها من أعماق قلبه ، وتدله فى هواها • وكانت الأميرة من ناحيتها تعرف ما يجب على الزوجة الفاضلة ، فعزمت على أن تكرس حياتها لخدمة « تشيت سينغ » ظنا منها أنه زوجها • وان هى الا أيام ، حتى ارتفع عنهما الحياء والخجل والكلفة •• واذا « تشيت سينغ » يستبين خلال أحاديثهما ان الفتاة التى أخذها فى داره كزوجة ، لم تكن سوى الأميرة « تشاندرا ! »

الفصل السادس والعشرون

◆ قالت « كمالا » ملهوفة : « وبعد ؟ » • كانت القصة قد ملكت عليها حواسها • وأجاب رامش : « الواقع انى أجهل نهاية القصة ، فلست أعرف منها شيئا بعد• نبئينى أنت ، ما الذى تظنينه حدث فى النهاية ؟ » •• قالت : «لا، لا •• ليس هذا من الانصاف فى شىء •• لابد لك من أن تروى لى ما بقى » •• فهتف : « عجبا يا كمالا !•• انما أصدقك القول !•• لم ينشر من الكتاب الذى أخذت عنه القصة ، سوى جزئه الأول ، ولا أدرى متى ينشر الجزء الثانى ! » •• فصاحت فى استياء : « ما أشد لؤمك !•• ما كان أسوأ هذا ! »

رامش : « خليق بك ان تحنقى على المؤلف •• على اننى لا أريد سوى أن

أوجه اليك هذا السؤال : ما الذى يجدر بتشيت سينغ أن يفعله بتشاندرا ؟ »
وفكرت « كمالا » طويلا ، وقد سرحت بصرها فى النهر ، ثم قالت فى النهاية :
« لست أدرى ما الذى يخلق به أن يفعله ٠٠ لا أستطيع أن أهتدى الى رأى » ٠٠
فتردد « رامش » لحظة ، ثم قال : « هل يصارح تشيت سينغ الاميرة بكل شىء ؟»
ـ ما أعجب ما تقول !٠٠ اذا لم ينبئها ، فسوف تترتب على الصمت ورطة فظيعة ٠٠ ستكون العاقبة بشعة !٠٠ لذلك فمن الخير أن يخبرها بالحقيقة !
وردد « رامش » عبارتها وقد شرد ذهنه : « من الخير ! » ٠٠ وصمت برهة ، ثم قال : « حسنا يا كمالا ٠٠ لنفترض ٠٠٠ »
كمالا : « ما الذى نفترضه ؟ »
رامش : « هبى أننى كنت تشيت سينغ ، وانك تشاندرا ! »
كمالا : «أرجو أن لاتقول لى مثل هذا الكلام ، فلست أحبه ! »
رامش : «ولكن ، لابد لى من قوله !٠٠ ماواجبى فى هذه الحال ، وما واجبك؟»
ولم تجبه « كمالا » ، بل نهضت بغتة عن مقعدها ، وغادرته ٠ وألفت « أومش » جالسا لدى باب القمرة ، يتأمل النهر فى صمت ، فسألته : « هل قدر لك يوما يا أومش أن ترى شبحا ؟ » ٠٠ قال : « أجل يا أماه ، رأيت



شبحا ! » ٠٠ فقالت وهى تجر مقعدا منخفضا من الخيزران وتجلس الى جواره : « وماذا كان شكل هذا الشبح ؟٠٠ حدثنى عنه »

★ ★ ★

• واذ خلا «رامش» الى نفسه ، قرر أن لايدعو « كمالا » لتعود ، اذ لم يخامره شك فى انها غضبت أشد الغضب ، فأيقن انه لن يستطيع استرضاءها فى اللحظة الراهنة !
وما لبثت الرقعة الضئيلة من الهلال الوليد أن توارت خلف عيدان من الغاب

على البر ٠ وكانت أضواء الباخرة قد أطفئت ، وأوى الملاحون الى مخادعهم ، ولم يكن ثمة ركاب آخرون فى القمرات ٠ أما ركاب الدرجة الثالثة ، فقد هبطوا الى الشاطىء ليطهوا عشاءهم ٠ وعلى بعد ، كانت أضواء شارع القرية تبدو هنا وهناك ، خلال الشجيرات والعيدان ٠ وأخذ تيار الماء يداعب سلسلة المرساة (الهلب) ، وكان يعنف ـ بين وقت وآخر ـ فيهز السفينة بأسرها ٠ ومضى « رامش » فى هذا الوسط الغريب ـ تحت قبة الليل المترامية ـ يجاهد فى عناء ، ليحل عقدة المشكلة العويصة التى واجهه بها ضميره ٠ كان من الواضح ان لابد له من ان يتخلى عن احدى الفتاتين : اما كمالا ، واما همنالينى ، فما كان ثمة حل ممكن يستبقيهما معا فى حياته ٠٠ لا ، وما كان ثمة شك فى الطريق التى يدعو الواجب الى اتباعها ٠ وكان لهمنالينى الخيار : فلها ان تقصيه عن ذهنها وتمنح يدها لخطيب آخر ٠٠ أما أن يتخلى عن «كمالا» ، فقد كان معنى هذا أن يلقى بها فى الدنيا وهى عارية ، عزلاء ! ٠٠ ومع ذلك ، فما أشد أنانية الرجل !٠٠ فان « رامش » لم يجد عزاء فى احتمال نسيان « همنالينى » اياه ، وفى ان لها من الموارد ما لا يجعل حياتها متوقفة عليه !٠٠ بل ان هذه الفكرة أهاجت حنينه اليها ٠ وخيل اليه ان طيفها راح يحوم أمام بصره ، ولكن غير بعيد عن متناوله ، بحيث لم يكن عليه سوى ان يميل الى الأمام ، باسطا ذراعيه، ليمسك بصاحبته !

وأسلم رأسه الى راحتيه وهو مستغرق فى التفكير ٠ وانبعث على البعد عواء ذئب أيقظ كلاب القرية ، فارتفع نباحها بغير انقطاع ٠ واذ ذاك رفع « رامش » رأسه ، فاذا « كمالا » تقف على مقربة منه ، مستندة الى سياج الباخرة فى جنح الظلام ، فنهض عن مقعده قائلا : « أو لم تلوذى بعد بمخدعك يا كمالا ؟ » ٠٠ فسألته بدورها : « أو لن تذهب أنت الى الفراش ؟ »

ـ اننى ذاهب لتوى ٠٠ سأبسط فراشى فى القمرة التى فى الجانب الأيمن من سطح السفينة ، فلا تنتظرينى » ٠ وجرت «كمالا» قدميها فى صمت الى القمرة التى خصصت لها ٠ ولم تطاوعها نفسها على أن تذكر لرامش انها قد استمعت الى قصة عن الأشباح ، فأصبحت تخاف الوحدة ٠ وخفق قلب « رامش » اشفاقا حين رأى ما فى خطواتها من تلكؤ ، فصاح بها : « لا تخافى يا كمالا ٠٠ سأحتل القمرة الملاصقة لقمرتك ، وسأترك الباب الذى بينهما مفتوحا » ٠٠ فرفعت « كمالا » رأسها فى شمم ، وقالت : « وما الذى يحملنى على الخوف ؟ » ٠٠ على ان «رامش» احتل القمرة المجاورة ، وما لبث أن أطفأ المصباح ، واستلقى على فراشه وأخذ يقول لنفسه : « ليس بوسعى قط أن أهجر كمالا ، ومن ثم فوداعا يا همنالينى !٠٠ هذا قرارى النهائى ، ولن أحيد عنه ! » ٠٠ ولكنه فى رقدته ـ فى الظلام ـ راح يتحسر على ما كان يخسره بهجران همنالينى ٠ وما لبث أن

عجز عن احتمال أفكاره ، فوثب من فراشه ، وغادر قمرته ٠ وأوحى اليه الظلام الدامس المخيم ، بأن أساه وعذاب قلبه ليسا بلا نهاية ، وليسا فى امتداد الزمن والفضاء !٠٠ وتطلع الى السماء المعتمة ٠٠ ان النجوم اللامعة أشياء بعيدة ، ولن تصل اليها قط قصة حب رامش وهمنالينى ، اذ ان هذه القصة على ما فيها من أسى ، تتضاءل بالنسبة الى النجوم ولا تتطاول اليها !٠٠ وكم من ليال خريفية، سيظل النهر ينساب فيها خلال المجرى المحوط بالرمال ، تحت ضياء النجوم ، وبين أعواد الغاب المترنحة ، على مقربة من القرية التى تحف بها الشجيرات ٠٠ بعد أن تكون انفاس « رامش » قد خمدت ، وجسده الفانى قد أحرق وتحول الى رماد يختلط بالثرى الدائم !

الفصل السابع والعشرون

◆ استيقظت « كمالا » فى جوف الليل ، فلما تلفتت حولها تبينت انها كانت وحيدة ٠ ومرت دقيقة أو اثنتان ، قبـل أن تذكر أين كانت ، ثم انسحبت من فراشها ، وفتحت باب القمرة وأطلت خلاله ٠ كانت تخيم على الماء الساكن غلالة من ضباب أبيض ، وشاب الظلام طيف من بياض مغبر ، اذ بدأ الفجر يتبسم فى السماء خلال الأشجار التى حفت بالضفة الشرقية ٠ وفيما كانت فى تأملها ، لاحت أشرعة مراكب الصيد ، وقد بدأت توشى صفحة النهر ٠ وشعرت «كمالا» بانقباض يغزو قلبها ، دون أن تدرك مبعثه ٠ لم كان منظر صـباح الخريف بضبابه يثير الأسى فى فؤادها ؟٠٠ ومن أين كانت تلك العبرات التى تزاحمت فى صدرها ، وتدافعت الى حلقها ، وأوشكت ان تجتلب الدموع الى عينيها ؟٠٠ ولماذا أصبحت تأسى على حياتها الماضية ؟٠٠ كانت قد نسيت منذ أربع وعشرين ساعة انها وزوجها يتيمان ، وان ليس لها من أقارب أو معارف ، فمـا الذى جعلها الآن تشعر بالوحدة ؟٠٠ ألم يك « رامش » كافيا لأن يملأ عليها حياتها؟ ٠٠ لماذا يمضها الشعور بعظم الكون وبضآلتها هى ؟!

وفيما كانت فى وقفتها الشاردة على عتبة الباب المفتوح ، بدأ سطح النهـر يتألق كصفحة متأرجحة من ذهب ٠ واستأنف الملاحون أعمالهم ، وأخذت محركات الباخرة تدور ، وأيقظت جلجلة السلاسل وضجيج الآلات ، صـبية القرية ، فأقبلوا الى الشاطىء ٠ واستيقظ « رامش » كذلك ، فأسرع الى باب قمـرته ليطمئن على « كمالا » ٠ وأجفلت مأخوذة حين رأته ٠ ومع أنهـا كانت تبسط قناعها على وجهها ، الا انها حاولت أن تخفى عنه محياها تماما ، فسألها : «هل اغتسلت يا كمالا ؟ » ٠٠ وبدا السؤال بريئا ، خاليا من كل تأنيب ، ومع ذلك

فانها استاءت منه ، وهزت رأسها وهى تنأى بنفسها ٠٠ فعاد « رامش » يقول : « لن يلبث القوم أن يصعدوا الى السطح ، فيحسن أن تسرعى ! » ٠٠ ولم تجب « كمالا » بشىء ، بل تناولت الثوب الذى اعتادت ان ترتديه فى النهار ، وسارت الى الحمام ، وهى مغضبة ٠٠ فان استيقاظ « رامش » مبكرا ليرشدها الى نظافتها ، أمر بدا لها غير ضرورى ٠٠ بل انها رأت فيه شيئا من مجافاة الذوق !٠٠ وكانت - منذ البداية - قد فطنت الى انه رسم لنفسه فى معاملته اياها حدا لا يتجاوزه، ولا يمعن فى رفع الكلفة بعده ٠٠ وما كان من حظها يوما ان جلست عند قدمى حماة تلقنها أصول السلوك ، ومتى يقتضى الأدب والحياء ان تخفض حجابها ٠٠ ومع ذلك ، فقد غالبها الخجل فى حضور « رامش » فى ذلك الصباح !

وعندما عادت « كمالا » الى قمرتها بعد الاغتسال ، وجدت عملها اليومى فى انتظارها ، فتناولت حزمة المفاتيح من طرف مئزرها الملقى على كتفها ، وأقبلت تفتح الحقيبة التى كانت تحتوى على ثيابها ، فاذا بها تلمح الخزانة الصغيرة التى كان « رامش » قد عهد بها اليها ٠ لقد بدت لها هـذه الخزانة بالأمس مبعث سرور جديد ، فان وجودها فى حوزتها بعث فى نفسها شعورا بالسلطان والاستقلال، وقد غيبتها فى الحقيبة بحرص ، وكأنها تخفى كنزا ثمينا ٠ ولكن السرور الذى كانت تبعثه الخزانة فى نفسها ، نضب فى ذلك الصباح !٠٠ وحدثتها نفسها بأن هذه الخزانة ملك لرامش - وليست لها هى - رغم كل شىء ٠٠ فهى ليست حرة التصرف فيها ، وليس بوسعها أن ترى فيها أكثر من مسئولية ملقاة على عاتقها! ٠٠ ودخل « رامش » القمرة فى تلك الأثناء ، فقال لها فى عجب : « انك بادية الوجوم اليوم ، فهل وجدت فى الحقيبة شبحا ، حين فتحتها ؟ » ٠٠ ولكنها مدت اليه يدها بالخزانة قائلة : « هذه خزانتك ! » ٠٠ فسألها : « وماذا أفعل بها ؟»

- ليس عليك اذا احتجت الى شىء سوى أن تأمرنى فآتيك به !

- ولكن ٠٠ ألن تحتاجى أنت الأخرى الى نقود ؟

فهزت رأسها فى كبرياء وهى تقول : « لست بحاجة الى نقود » ٠٠ وابتسم « رامش » قائلا : « ما أندر من يقولون قولك !٠٠ ومع ذلك ، فاذا كنت لا ترين للنقود قيمة ، فلماذا لا تمنحيها لأى غريب ؟٠٠ لماذا تعطينيها من دون جميع الناس ؟ » ٠٠ فوضعت « كمالا » الصندوق على الأرض فى صمت ٠ وعندئذ قال : « ألا صارحينى بالحقيقة يا كمالا ٠٠ أأنت مغضبة لأننى لم أرو لك نهاية القصة ؟ » ٠٠ أجابت وقد غضت بصرها : « لست غاضبة ! »

رامش : « اذن ، فاحتفظى بهذا الصندوق ، فلن أوقن من انك صادقة ، الا اذا فعلت ذلك ! »

كمالا : « لست أرى بين الأمرين علاقة ٠ انه ملك لك ، فخليق بك ان تحتفظ به ! »

رامش : « ولكنه ليس ملكا لى !٠٠ ان الذين يستردون هباتهم ، يصبحون أشباحا اذا ما ماتوا ٠ فهل تريدين أن أكون شبحا ؟ »

ولم تستطع أن تكبح الضحك لهذه الفكرة ، وقالت : « لا ، بالتأكيد !٠٠ ولكن ، أحقا يصبح الذين يستردون الهدايا أشباحا ؟ ما سمعت بهذا من قبل » ٠٠ وقضى ضحكها على الخصام !٠٠ وقال « رامش » : « لا يمكن التأكد من صحة ذلك الا بطريقة واحدة ٠٠ هى أن تسألى أحد الأشباح بنفسك اذا ما صادفته !» ٠٠ وأثار قوله فضولها ، فسألته : « أحقا يرى الناس الأشباح ٠٠ هل رأيت شبحا حقيقيا يوما ما ؟ »

– لم أر شبحا حقيقيا ، ولكننى رأيت كثيرا من الأشباح الزائفة ٠ فان الشىء الحقيقى نادر !

كمالا : « ولكن أومش يقول ٠٠٠ »

رامش : « أومش ٠٠ ومن يكون أومش ؟ »

كمالا : « عجبا !٠٠ الصبى الذى يرافقنا ٠ لقد رأى شبحا ! »

رامش : « اذن ، فانى أعترف بأنه قد تفوق على بهذه الميزة »

★ ★ ★

◆ وكان الملاحون قد وفقوا بعد جهود كبيرة الى تعويم السفينة ، فى تلك الأثناء ٠ ولكنها لم تكن قد بعدت عن الشاطىء مسافة تذكر ، حين بدا على الشاطىء صبى يحمل سلة فى احدى يديه ، وقد أخذ يعـدو بأقصى سرعته ، ويلوح بذراعه الأخرى للباخرة كى تقف ، ولكن الربان لم يعبأ به ٠ واذ رأى الصبى « رامش » راح يصيح به : « بابو ! ٠٠ بابو ! » ٠٠ فقال « رامش » : « لعله يظننى محصل التذاكر ! » ٠٠ وأشار اليه بأن لا سلطان له على الباخرة ٠ ولكن « كمالا » هتفت : « عجبا ، انه أومش ! لا ينبغى أن نتركه ٠٠ يجب أن تأمر باحضاره الى السطح » ٠ فقال : « ولكنهم لن يقبلوا أن يوقفوا الباخرة من أجلى » ٠٠ وصاحت « كمالا » فى أسى صادق : « بل يجب أن تأمـــرهم بالوقوف !٠٠ ألا قل لهم !٠٠ اننا جد قريبين من الشاطىء » ٠ ومن ثم أسرع « رامش » الى الربان يرجوه ، فكان الجواب الذى تلقاه : « ان القانون يمنعنا يا سيدى » ٠٠ وكانت « كمالا » قد لحقت به ، فانضمت اليه فى الرجاء ، قائلة: « ما ينبغى أن نتركه ! ٠٠ ألا قفوا لحظة ! ٠٠ يا لولدى أومش البائس ! »

على ان « رامش » لم يلبث أن جنح الى أسلوب بسيط فى مغالبة رفض الربان ٠ وبعد منحة طيبة ، أوقف الرجل المركب ، وسمح للصبى بأن يصعد الى سطحها ٠ ثم أقبل يهيل عليه اللوم والتأنيب ، ولكن « أومش » لم يتأثر بشىء ، وانما وضع السلة عند قدمى « كمالا » وهو يبتسم ، وكأن لم يحدث شىء ٠ واذ ذاك قالت « كمالا » ، ولم تكن قد تمالكت بعد نفسها من الاشفاق الذى غشيها من

أجله : « ليس في هذا ما يضحك • ما الذى كان يحدث لك لو أن الرجل رفض الوقوف ؟ » • وبدلا من أن يجيب « أومش » ، أفرغ محتويات السلة على سطح السفينة ، فاذا بها حزمة من نبات الطلح ، وكمية من «السبانخ» ، وعدد من القرع والباذنجان • وسألته « كمالا » : « من أين أتيت بكل هذا ؟ » •• ولم يكن رده من النوع الذى يرضى عنه الشرطة • فلقد لاحظ عندما ذهب الى القرية لاحضار اللبن الخثر والأشياء الأخرى - فى اليوم السابق - ان هذه الخضر كانت موفورة فى كثير من الحدائق ، وعلى كثير من أسطح الدور ، ومن ثم هبط مبكرا الى البر فى ذلك الصباح ، منتهزا فرصة وقوف السفينة ، وأخذ ينتقى ما أعجبه دون اذن من أحد !

وصاح « رامش » فى غضب : « كيف تسول لك نفسك السرقة من حدائق الناس ؟ »

- ما هذه بالسرقة •• انما أخذت قسطا ضئيلا من كل حديقة ، ولن يضار أحد من ذلك !

- اذن فاقتصارك على أخذ مقادير ضئيلة لا يعد سرقة !•• يا لك من أفاق ! اغرب عن وجهى ، وخذ معك هذه الأشياء !

وتطلع « أومش » الى « كمالا » فى ضراعة ، وهتف : « ان هذا النوع من السبانخ يا أماه ينمو فى بلدى ، وهو من أشهى الأنواع ••• » ، ولكن « رامش » صاح فيه وقد اشتد غضبه : « امش من هنا أنت وسبانخك ، والا ركلت كل شىء فألقيت به فى النهر ! » •• وعاد « أومش » يتطلع الى « كمالا » يرتقب منها ارشادا ، فأشارت اليه بأن يجمع الخضر ويحملها من المكان • وفهم من مسلكها انها لا تزال تحتفظ له بركن شفوق من قلبها ، فجمع الخضر ، وردها الى السلة ، ثم سار مبتعدا عن المكان ، بينما قال « رامش » لكمالا وهو يسير الى قمرته ليكتب رسالة : « كان هذا المسلك خطأ منه ، وما يجب أن ترضى عن مثل هذا العمل ! » •• وتلفتت « كمالا » ، فرأت « أومش » يجلس فى مؤخرة السفينة ، خلف سطح الدرجة الثانية ، وبالقرب من مطبخها • ولما لم يكن يشغل الدرجة الثانية راكب ، فقد سعت « كمالا » الى حيث كان الصبى يجلس ، بعد أن أسدلت قناعها ، وسألته : « هل رميت الأشياء فى البحر » • قال : « لا •• بل هى هنا » • فقالت محاولة ان تبدى شيئا من الحزم والصرامة : « كان هذا العمل منك ذنبا كبيرا ، كما ترى • فلا تعد اليه ثانية • فكر فيما كان يجرى لو أنك تركت على الشاطىء ! » •• وسارت الى مطبخها ، ثم صاحت : « ناولنى سكينا ! » ، فلبى « أومش » طلبها ، وانهمكت « كمالا » فى تقشير الخضر وتقطيعها • وقال الصبى : « ان الخردل المسحوق (المستردة) يزيد من

لذة طعم هذا السبانخ ياأماه » .. فقالت : « حسـنا .. اصحن قدرا من الخردل اذن ! »

وحرصت على أن لا تبدى تلطفا لتشعره بذنبه ، ومن ثم راحت تقطع السبانخ والقرع والباذنجان ، وهى عابسة . وماذا كانت تملك سوى أن تعبس لهذا الصبى البائس ! .. والواقع أنها كانت ترى سرقة الخضر أمرا تافها ، لا سيما والغلام شريد ، بلا أهل ، فهو يصبو الى الرعاية ! .. ثم ان فى ذنبه ناحية هفت بقلبها ، فما أقدم التعس على الاغارة على الحدائق ، معرضا نفسه للتخلف عن الباخرة ، الا لكى يرضيها .. لذلك لم تلبث أن قالت : « هناك بعض اللبن الخثر المتخلف من الأمس يا أومش ، فعليك به . ولكن ، تذكر أنك يجب أن لاتعود قط الى مثل الذنب الذى ارتكبته ! » . . فسألها فى تقرب يمحو به أثر اثمه : « ألم تتناولى من ذلك اللبن أمس يا أماه !»

ـ لست أحبه كثيرا مثلك . ألا اسمع ، ان لدينا كل شيء ، الا السمك . فكيف نستطيع أن نحصل على بعض السمك لفطور سيدك ؟

ـ أستطيع أن آتيك بسمك يا أماه ، على أن تدفعى فى هذه المرة ثمنا

وألفت نفسها مضطرة الىتقريعه مرة أخرى ، فقالت وهىمقطبة الجبين : «مارأيت ولدا أغبى منك يا أومش .. كأنما طلبت منك شيئا من قبل ، دون أن أدفع له ثمنا ! » .. والواقع أن ما جرى فى اليوم السابق كان قد أوحى الى « أومش » بأن « كمالا » كانت تجد أن الحصول على نقود من « رامش » مهمة عسيرة . ومن أجل هذا ، أحس فى سريرته بنفور من مخدومه . ولم يزده هذا الا قربى من « كمالا » ، وانسجاما معها ، فلم يكن لرامش مكان بينهما ، فى رأيه !

★ ★ ★

◆ اذا كانت الظروف قد أثبتت أن الحصول على الخضر أمر سهل ، فان الحصول على السمك لم يكن بهذه السهولة . ولاح للصبى المولع بكمالا ، انهذه الدنيا لا تستحق من الانسان عطفا ، لأنها قامت على نظم لا تمكن المرء من الحصول على قدر صغير من السمك أو من اللبن الخثر لارضاء عزيز يحبه ، الا بالمال !.. وقال يهون على كمالا : « لو استطعت أن تحصلى من السيد على خمس « آنات » (عملة هندية) فقط ، لاستطعت أن آتيك بحزمة كبيرة من السمك ! » . ولكن « كمالا » أجابته مؤنبة : « لا ينبغى أن أسمح لك بمغادرة الباخرة مرة أخرى . فلو أنك تأخرت لما سمحوا لك فى هذه المرة باللحاق بنا ! » .. فهتف : « ولكننى لن أهبط الى البر . لقد اصطاد الملاحون بشباكهم قدرا كبيرا من السمك فى هذا الصباح ، وفى وسعهم أن يبيعونا بعضا منه » . واذ ذاك ، ناولته « كمالا » روبية ، وقالت : « اذن ، ادفع الثمن من هذه ، وأعد الى

الباقى » . وسرعان ما رجع « أومش » ، بالسمك ، دون بقية من النقــود ، قائلا : « لقد أبوا أن يتقاضوا ثمنا أقل من روبية » .. وأدركت « كمالا » أنه لم يكن صادقا ، فقالت مبتسمة : « سنعمل ـ حين تقف الباخرة فى المــرة القادمة ـ على أن نستبدل بعض العملات الصغيرة بعدد من الروبيات » . وتصنع الصبى الجد ، قائلا : « هذا ما ينبغى فعله ، فانك ما تكادين تظهرين روبية أمام هؤلاء القوم ، حتى يضعوا نصب أعينهم أن يفوزوا بها كاملة ! »

وبعد قليل ، جلس « رامش » الى فطوره ، فما كاد بصره يقع على الطعام ، حتى صاح : « مرحى ! .. هــــذا بديع ! .. ولكن ، من أين جئت به ؟ .. عجبا ، ها هو ذا رأس سمكة .. لا ، ما هذا بحلم ، ولا هو من خداع البصر فى شىء ، بل وليس من مداعبات الخيال ، وانما هذا رأس سمكة بالتأكيد ! » .. وكان الفطور فى ذلك اليوم رائعا حقا . فلما استلقى « رامش » ـ بعد أن انتهى منه ـ فى مقعد طويل على ظهر السفينة ، ليتيح لمعدته أن تتولى هضم الطعام فى هدوء ، حان دور « أومش » ، فاذا هو يستمرىء « طاجن » السمك الى درجة عظيمة ، حتى انه راح يأكل فى نهم ، فخشــيت عليه « كمالا » أن يتخم ، وصاحت به : « لا تزد على ما أكلت الآن يا أومش .. لقد أبقيت قسطا منه لتتناوله فى العشاء ! » .. وسرعان ما انتزعها نشاطها ، ومرحها الذى لا ينضب ، من غمرة الاكتئاب الذى غشيها فى الصباح . وانصرم اليوم ،وأخذت الشمس تنحدر الى المغيب . وفى الدروب الضيقة التى كانت تتخلــل الخضرة النامية على ضفتى النهر ، أخذت الريفيات يتقاطرن الى المجرى ، مسنـــدات جرارهن الى أردافهن . وقضت « كمالا » فترة الاصيل فى اعداد طعام من طلح الموز ، ثم اغتسلت ، وعقصت شعرها ، وارتدت ثيابا نظيفة ..

واختفت الشمس وراء أحراش الغاب التى تقوم كمعالم ترشد الى القرى الواقعة على الضفتين ، ورست الباخرة فى احدى المرافىء التى اعتادت أن تجنح اليها فى الليل . وكانت « كمالا » قد تفقدت ما بقى من الخضر وألفته كافيا للعشاء ـ دون ما حاجة الى طهو جديد ـ حين أقبل « رامش » معلنا أنه قد أسرف فى الأكل أثناء الغداء ، فلم يعد فى حاجة الى عشاء . وسألته فى أسف : « ألن تتناول شيئا على الاطلاق .. ولا سمكة صغيرة ، مقلوة ؟ » .. فأجابها فى اقتضاب : « لا ، شكرا لك » ، ثم انصرف مبتعدا ، فعمدت كمالا الى وضع كل ما تبقى من الطعام فى طبق « أومش » ، فسألها الصبى : « ألم تستبقى لنفسك شيئا ؟ » .. فكان ردها : « لقد تناولت عشائى » .. وبهذا انتهى عملها فى ذلك اليوم ، فى مطبخها العائم !

★ ★ ★

◆ وكان قمر الشهر الجديد قد أسبغ ضياءه على النهر والبر . ولم تكن ثمة

قرية قريبة من محطة الباخرة . وبدا الليل الصامت ، المتألق السناء ، كحارس ساهر ، أو كسيدة لم يوافها حبيبها فى موعد اللقاء ، على خضرة حقول الأرز المترامية ! .. وعلى مقعد بسيط ، فى كوخ ذى سقف من الصفيح على الضفة ، جلس كاتب كهل ، ضئيل الجسم ، يجمع أرقاما على ضوء مصباح بترولى . وكان « رامش » يراه خلال الباب ، فتنهد قائلا لنفسه : « ليت القدر يضعنى فى مثل كوخ هذا الكاتب .. كوخ ضيق ولكن الحياة فيه واضحة المعالم ! .. أى ضرر يحيق بالمرء فى حياة كهذه : أقضى اليوم كله فى تسجيل الحسابات ، وأتلقى لوم المخدوم اذا ما ارتكبت أخطاء ، ثم أعود الى البيت فى الليل ، وقد أديت عمل يومى ؟ ! » .. وكانت « كمالا » تقف وراءه ـ بجوار السياج ـ منذ فترة ، ولكن « رامش » لم يك شاعرا بوجودها . كانت قد توقعت أن يناديها ليسمر معها بعد الغروب ، وقد فرغت من عملها ، ولكنها لم تتلق نداء ما ، ومن ثم تسللت من قمرتها الى سطح الباخرة فى هدوء ، حتى اذا شاهدته ، جمدت فى مكانها فجأة ، وأبت أوصالها أن تحملها خطوة أخرى ! .. وكان القمر يرسل أشعته على وجهه ، فأظهرت أساريره أن ذهنه كان بعيدا .. بعيدا عنها ! .. وخيل اليها أن بين رامش ـ وهو مستغرق فى أحلامه ـ وبين نفسها ، يقوم شبح الليل كديدبان جبار ، ملتف من رأسه الى قدمه فى غلالة من ضوء القمر ، وقد رفع أصبعا الى شفتيه !

وعندما دفن « رامش » وجهه فى راحتيه ، وترك رأسه يستند الى المنضدة التى أمامه ، تسللت « كمالا » عائدة الى قمرتها ، دون أن تجرؤ على اصدار أى صوت ، حتى لا يسمعه ويتبين أنها جاءت تبحث عنه ! .. وبدت قمرتها مظلمة، مقبضة للنفس ، فارتعشت حين اجتازت عتبتها ، واجتاحها شعور بأنها مهجورة، وحيدة . وخيل اليها أن جوف الغرفة الصغيرة ، المظلمة ، فم انفرج فكاه وكأنه وحش غريب ، ولكن .. أين تجد ملجأ سواه ؟ .. لم تكن ثمة بقعة تريح فيها جسدها الضئيل ، وتغمض عينيها ، وهى تشعر أن هذه البقعة ملك لها ، ومن حقها وحدها ! .. وحدقت فى القمرة المظلمة ، ثم تراجعت . وفيما هى تتجاوز العتبة ، وقعت مظلة « رامش » ، فارتطمت بحقيبة من الصاج . وأفزع الصوت « رامش » ، فوثب عن مقعده ، ثم هتف حين رأى « كمالا » واقفة فى مدخل قمرتها : « أهذه أنت يا كمالا ؟ .. ظننتك قد أويت لمخدعك منذ زمن . أخشى أن تكونى قد تأخرت عن موعد نومك ، بل يخيل الى أنك منفعلة .. لن أمكث على السطح طويلا ، وانما سآوى سريعا الى القمرة الملاصقة لقمرتك ، وسأترك الباب مفتوحا بيننا » .. فقالت «كمالا» فى ترفع : « لستخائفة ! ».

وخطت فى عجلة الى داخل قمرتها ، وأغلقت الباب الذى كان يربط بين القمرتين ، ثم ألقت بنفسها على السرير ، ولفت وجهها فى (شال) . واشتد

شعورها بوحدتها ، وببعدها المطلق عن كل أنيس ، فاذا كل كيانها يهب ثائرا ! .. اذا كان قد قدر عليها أن لا تحظى بالرجل الذى يحميها من كل ما يخيفها ، وأن لا تكون ـ من ناحية أخرى ـ سيدة نفسها ، فأية حياة هذه ؟ .. انها حياة لا تطاق !

★ ★ ★

• ومر الوقت . واستغرق « رامش » فى النوم ، فى القمرة المجاورة ، ولم تعد « كمالا » تقوى على مغالبة خوفها ، فنهضت ببطء ، ثم سارت الى سياج السفينة ، وراحت تتأمل شاطىء النهر ، فلم تر أو تسمع ما ينم عن وجود مخلوق حى . وكان القمر يوشك على الغروب ، ولم يعد فى الوسع تبين الدروب الضيقة المتغلغلة خلال الحقول . وحدثت نفسها قائلة : « كم من نساء حملن الماء خلال هذه الدروب ، وقد سعت كل منهن الى بيتها ؟ ! » .. البيت ! .. وقفز قلبها للفكرة ! .. آه ، لو كان لها بيت فى أى مكان ! .. ولكن ، أين ؟ .. ولاحت ضفتا النهر وكأنهما تمتدان فى الفضاء الى ما لا نهاية . وفوق رأسها ، كانت القبة الهائلة ـ قبة السماء ـ تمتد بلا حدود . ولكن ، ما قيمة الأرض والسماء على سعتهما ! .. كل هذا الكون الشاسع لم يكن ـ بالنسبة لهذه الذرة الآدمية ! ـ ذا نفع .. فما كانت تصبو الا الى .. بيت صغير !

وجزعت « كمالا » اذ فطنت الى شخص بجوارها . واذا صوت « أومش » يقول : « لا تخشى يا أماه .. هذا أنا ! » ، فقالت : « اننا فى ساعة متأخرة ، فلماذا لم تنم ؟ » .. وما لبثت الدموع أن انسابت من مقلتيها .. ولم يكن ثمة داع لقمعها ، فتساقطت فى قطرات كبيرة . وأشاحت « كمالا » بوجهها ،لتخفى دموعها عن « أومش » . وكما أن السحابة المثقلة بالماء تهيم فى السماء ، حتى اذا التقت بزميلة هائمة ـ تتمثل فى نسمة باردة ـ عجزت عن أن تستبقى حملها ، فترسله مطرا .. كذلك كانت حال « كمالا » !.. فما أن سمعت رنة العطف فى لهجة الصبى المشرد ، حتى عجزت عن قمع دموعها التى انبثقت من فؤادها . وحاولت أن تتكلم ، ولكن الشهقات خنقت صوتها . وتلفت « أومش » حوله يبحث فى حيرة عن وسيلة لمواساتها .. وظل صامتا فترة ، ثم قال فى استحياء : « لقد نسيت أن أقول لك يا أماه ان ثمة سبع « أنات » تبقت من الروبية » !

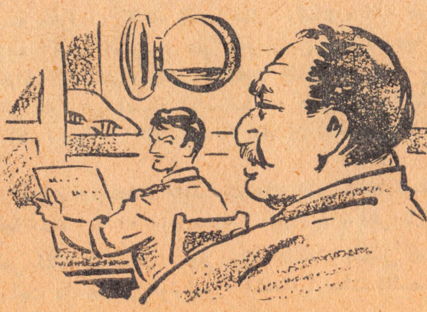
وجففت « كمالا » دموعها ، وابتسمت وقد خفق قلبها لسذاجة الطفل ، ثم قالت : « ابقها معك ! » .. ثم أردفت : « والآن ، اجر الى فراشك ! »

وغاص القمر خلف الأشجار . وفى تلك الليلة ، أغمض النعاس عينى«كمالا» بمجرد أن أسلمت رأسها الى الوسادة . وعندما أرسلت الشمس أشعتها الحامية

فى الصباح ، تأمر الأرض باليقظة ، كانت « كمـالا » مستغرقة فى سـبات عميق !

الفصل الثامن والعشرون

• بدأت « كمالا » يومها التالى متثاقلة ، تشعر بالخور ، وقد خيل اليها ان الشمس فقدت اشراقها ، وأن النهر كان ينساب آسيا ، والأشجار على الضفة تتهالك على نفسها ! .. فلما أقبل « أومش » ليساعدها فى عملها ، قالت له فى اعياء : « لا يا أومش ، لا تشغل بالك اليوم بعمل ! » .. ولكن « أومش » لم يكن سهل الانصياع ، اذقال : « لن أزعجك يا أماه .. انما جئت لأصحن لك التوابل » .. وما لبثت نظرتها الحزينة ان اجتذبت انتباه « رامش » حين أقبل ، فسألها : « هل تحسين بتوعك يا كمالا ؟ » .. ولكنه لم يتلق جوابا ، بل ندت عن « كمالا » اشارة من رأسها نمت عن اعتقادها بأن سؤاله مصـطنع ، ومستهجن ، ثم تحولت عنه الى المطبخ . وتبين « رامش » أن كل يوم يزيد مشكلته تعقيدا ، وأن من الواجب أن لا يتأخر فى حلها أكثر من ذلك . وانتهى الى أنه لو استطاع أن يفضى الى « همنالينى » بما فى نفسه ، لسهل عليه أن يقرر الواجب الذى ينبغى عليه أداؤه . ومن ثم جلس – بعد تفكير طويل –يكتب للفتاة . وقضى وقتا يكتب ، ثم يمحو ما يكتبه ! .. وما لبث أن سمع صـوتا غريبا يسأله : « هل لى أن أسألك اسمك يا سيدى ؟ » .. فالتفت مأخوذا ، واذا به يرى سيدا متقدما فى السن ، ذا شاربين أشيبين ، وشعر خف نموه عند الجبين . وكان ذهن « رامش » مركزا فى الخطاب ، فلم يستطع أن يستجمع



قريحته فورا . وقال الغريب : « انك براهميا .. ألست كذلك ؟ .. صباح الخير . انك تدعى « رامش بابو » وهذا جل ما عرفت عنك . ان سؤال المرء عن اسمه هو أولى خطوات التعارف فى بلادنا ، فهو فى الواقع لون من المجاملة، ولكن الناس يستاءون من ذلك فى هذه الأيام ، فاذا كنت قد أسأت اليك ، فأرجو أن ترد على الاساءة ، مع الفوائد ! .. سلنى أجبك ذاكرا اسمى ، واسم أبى أيضا .. بل اننى لا أجد مانعا - فى الواقع - من ذكر اسم جدى كذلك ! »

وضحك رامش قائلا : « اننى لم أستأ الى هذه الدرجة ! .. يكفينى أن تذكر لى اسمك » ، فقال الرجل : « اسمى » ترايلاكيا تشاكرا بارتى » ، وكل امرىء على امتداد النهر يلقبنى بـ « العم » . وما أظنك الا قد درست التاريخ ، وعرفت أن « بهاراتا » كان « الملك تشاكرا بارتى » ، أى الملك الأعظم .. امبراطور هندوستان . وكذلك « العم تشاكرا بارتى » - أى أنا - فى كل الريف الغربى ، ولا بد أن تسمع عنى كلما أوغلت فى الغرب . وبهذه المناسبة يا سيدى ، الى أين أنت راحل ؟ » .. فقال رامش : « لم أقرر بعد أين أبرح الباخرة » ، فقال « ترايلاكيا » : « لا حاجة تدعوك الى الاسراع فى مبارحة الباخرة ! » .. وعاد « رامش » يقول : «لقد سمعت الباخرة ترسل صفيرها وأنا أبرح القطار فى (جوالوندو) ، ثم تحققت أنها لن تنتظر حتى أقرر وجهتى ، ومن ثم عمدت الى العجلة ،حيثما تستحب العجلة ! » .. قال « ترايلاكيا » : « اننى أرفع قبعتى احتراما لك ياسيدى ، فأنت من النوع الذى أعجب به . انك على النقيض منى . كان لابد من أن أقرر قبل أن أصعد الى الباخرة ، لأننى شخص غير سريع البت ، ومن ثم فاننى أحترم الرجل الذى يستطيع أن يقرر الصعود الى الباخرة قبل أن يعرف وجهته . هل زوجتك على الباخرة يا سيدى؟» .. وشعر « رامش » بتردد طارىء قبل أن يجيب . ولاحظ « تشاكرا بارتى » تردده ، فقال : « يجب أن تغفر لى ، ولكننى علمت - من أوثق مصدر ! - أنها على الباخرة . فقد كانت زوجتك الطيبة تطهو ، حين جرنى جوعى الى مطبخها ، فقلت لها : « لا تخجلى منى يا سيدتى ، فأنا العم تشاكرابارتى من ريف الغرب» .. ويا لها من زوجة شابة ، كاملة ! .. واستطردت قائلا : « أرى أن لديك مطبخا ، ولما كنت لا أجد من يعنى بى ، فأرجو ألا تضنى على بنصيب من خيراتك » .. فابتسمت ابتسامة عذبة أكدت لى أنها ستكون حفية بى ، وان متاعبى قد انتهت . ولعلك تعرف أننى دائما أبحث عن يوم سعيد ، فى التقاويم الفلكية ، قبل أن أبدأ أية رحلة . ولكننى لم أصب قط ما أصبت فى هذه الرحلة من حظ ! .. أرى أنك مشغول ، لذلك لن أعطلك أكثر مما عطلتك . فاذا سمحت لى ، ذهبت فساعدت زوجتك الصغيرة ، اذ يجب أن لا تتلف يديها

الجميلتين بمحرك النار وأنا هنا . أرجو أن لا تنهض من مكانك ، بل امض فيما تكتب ، فأنا أعرف كيف أقدم نفسى » . ثم سار « العم تشاكرابارتى » الى المطبـــخ !

وقال وهو يلج المطبخ : « هناك رائحة زكية تنبعث من هذا المكان ، وفى وسع المرء أن يقول أنها لطاجن أرز بالسمك ، قبل أن يتذوقه ! .. على أننى أرى واجبا على أن أصنع لك « سلاطة لبن » ، فليس مثل الذين يعيشون فى حر الشمال الغربى من يجيد صنع هذه السلاطة ! .. أعرف ما يدور بخلدك ، فانك تعجبين من حديث هذا الكهل ، ومن زعمه أنه يستطيع أن يصنع « سلاطة لبن » بدون « تمر هندى » ! .. حسنا ، لا تشغلى بالك بشأن « التمر هندى » ، فهو معى هنا .. اصبرى لحظة ريثما أتخذ استعداداتى ! »

وأحضر الكهل جرة صغيرة ملفوفة بالورق ، ثم قال : « اذا ما صنعت «سلاطة اللبن » فخذى منها ما تحتاجين اليه فى يومك ، واحتفظى بالباقى لأربعة أيام ، ثم تذوقيه ، وسوف ترين أن « العم تشاكرا بارتى » لا يغالى فى الزهو ، حين يقول أنه يستطيع أن يعد « سلاطة اللبن » ! .. والآن ، اجرى فاغسلى يديك، فقد حان وقت الفطور ، وسأتولى عنك ما بقى من مستلزمات الطهو .. ولا تقلقى ، فانى واسع التجربة ، اذ أن زوجتى ضعيفة الشهية ، ومن ثم تعلمت صنـــع « سلاطة اللبن » لأحاول أن أثير شهيتها . انك تضحكين من الشيخ المسن ، ولكننى لا أمزح ، بل هذا هو الحق ! » .. فقالت « كمالا » مبتسمة : « اذن ، فعليك أن تعلمنى صنعها ! » .. واذ ذاك هتف الشيخ : « مهلا ! .. اننى لا أنزل عن معرفتى بهذه السهولة ! .. ان ربة المعرفة ستغضب منى اذا بددت كرامة المعرفة بالنزول عنها فى أول أيام تعارفنا ، بل لابد أولا من أن تتملقى الشيخ لثلاثة أيام أو أربعة . ولا تشغلى بالك فى البحث عن طريقة لارضائى ، فسوف أرشدك الى هذا . القاعدة رقم ١ : أنا مشغوف بطلح الموز ، ولكننى لا أحب أن أمضغ كل ورقة . وليس من السهل على امرىء أن يغزو قلبى ، ولكنك مضيت بعيدا فى هذا الغزو يا عزيزتى ، بفضل وجهك المليح . أهلا بك، ما اسمك يا صبى ! »

ولم يجب « أومش » ، اذ لم ترق له ألفة الشيخ ، وما كان ليتقبل فكرةوجود من يزاحمه فى عواطف « كمالا » . على أن الشـــيخ مضى قائلا : « انه ولد لطيف ! .. انه لا يطلعك فورا على ما يجول بخاطره ، ولكنى أؤكد لك أننا لن نلبث أن ننسجم معا . والآن ، ينبغى أن لا نضيع مزيدا من الوقت ، بل لابد من أن أسرع فى استكمال الطهو ! » .. وهكذا ملأت صحبة الشيخ الفراغ الذي كان قائما في وجود « كمالا » ، كما كان ظهوره مبعث ارتياح لرامش .

فمن المؤكد أن الفارق بين مسلك رامش الراهن ، وبين الألفة المطلقة التى سادت علاقته بكمالا فى الأشهر القلائل الأولى - حين كان يعتقد أنها زوجته - قد جرح شعور الفتاة ، ومن ثم كان خليقا به أن يرحب بكل ما يحول فكر الفتاة عنه ، لا سيما وأن هذا يتيح له أن ينصرف الى التفكير فى علاج لآلام قلبه !

وفيما كان « رامش » منفردا بنفسه ، وهو يجتر أفكاره ، ظهرت « كمالا » لدى باب قمرتها . كانت تعتزم أن تستأثر بصحبة « تشاكرا بارتى » خلال فترة الأصيل الطويلة ، التى لم يكن لديها ما يشغلها فيها . ولكن ، ما أن رآها الشيخ ، حتى هتف : « هذا لا يليق يا عزيزتى .. انه لا يكفى ! » .. وأجفلت لقوله ، وأدهشتها لهجته . واذ ذاك قال الشيخ مجيبا عن التساؤل الذى بدا فى عينيها : « انما أعنى حذاءيك بالطبع .. هذا ذنبك يا رامش بابو. قل ما شئت ، ولكن هذا ضلال ! .. ان الذى يضع حائلا بين قدميه وأرض بلاده المقدسة ، انما يزدرى بلاده ! .. قد تضحك من قولى يا رامش بابو ، فأنت لا تقتنع به ، وهذا لا يدهشنى ، فكل شىء يرتقب من أولئك الذين يقفزون الى سطح باخرة وهى تتهيأ للاقلاع ، دون أن يحفلوا بتعرف وجهتها ! » .. وقال « رامش » اذ ذاك : « يحسن بك أيها العم ، أن تقرر بنفسك أين نبرح الباخرة ، فلسوف يكون لرأيك أثر يفوق صفير أية باخرة ! » .. فقال الشيخ: « عجبا ، اننا لم نتعارف الا منذ ساعات قلائل ! .. حسنا ، خليق بكم أن تهبطوا فى (غازيبور) . هل تأتين الى (غازيبور) يا عزيزتى ؟ .. انهم يزرعون هناك ورودا جميلة .. وبها يعيش هذا الكهل المعجب بك ! » .. وتطلع « رامش » الى « كمالا » ، فهزت رأسها فورا ، اعلانا لموافقتها !

ولزم « تشاكرا بارتى » و « أومش » قمرة « كمالا » خلال فترة الأصيل ، بينما بقى « رامش » وحيدا فى الخارج ، مما جعل الشابة تشعر بالحرج ! .. ومضت الباخرة تشق طريقها قدما ، والمناظر على الضفتين تتراجع مسرعة فى وهج شمس الخريف ، بعضها يمثل حقول الأرز ، وبعضـــها يمثل مرافىء الشحن ، ومنها المنحدرات الرملية ، والأراضى الزراعية ، ومنها الأسواق ذات السقوف المصنوعة من الصفيح .. وقد تناثر المسافرون - هنا وهناك - فى جماعات صغيرة ، تحت الاشجار الظليلة ، فى انتظار القوارب التى تنقلهم من ضفة الى أخرى . وكانت قهقهة « كمالا » تنبعث من القمرة أحيانا ، فتتناهى الى أذن « رامش » خلال السكينة الناعمة التى تسود أصيل الخريف ، فيخفق قلبه ، ويهمس لنفسه : « ما أجمل كل هذا .. وما أبعده عن متناولى ! »

الفصل التاسع والعشرون

◆ لا تجد المخاوف والشكوك والقلق ، مكامن فى القلب تترسب فيها ، فى مثل السن التى كانت فيها « كمالا » • اذ سرعان ما شعرت بالوقت يتخلى عن تثاقله وينصرم سراعا ، ولم تعد تجد ما يدفعها الى أن تشغل بالها - فى أسى - بمسلك « رامش » نحوها • وكان ضوء شمس الخريف يكشف البر بمختلف نواحيه ومناظره ، والنهر يتخللها كشريط ذهبى متألق • وأصبحت « كمالا » تجد فى دورها - كربة بيت - متعة تسرها • وأضحت الأيام فى تواليها أشبه بصفحات جديدة فى ديوان شعرى من وحى السليقة ، دون ما صنعة أو تنميق ! •• وغدت تقبل على عملها اليومى - فى كل صباح - متحمسة • ولم يعد « أومش » يتأخر عن موعد اقلاع الباخرة • وكان يعود من بعثاته دائما بسلة مفعمة ، لم تعجز محتوياتها فى أية مرة عن اثارة العجب فى نفوس أعضاء الجماعة الصغيرة : « يا عجبا •• أنظروا القرع اليابس ! •• ومن أين استطاع أن يأتى بهذا الفول ؟•• انظر يا عماه ، لقد أحضر لفتا مملحا ! ما كنت أعرف أن المرء يستطيع أن يحصل على مثل هذا فى البقاع الريفية ! »

وهكذا كانت تتعالى صيحاتهم فى دهشة ، وهم منكبون على السلة ، فى كل صباح ! •• ولم تكن الزمجرة تسمع الا عند ما يكون « رامش » موجودا ، اذ كان يرتاب دوما فى أن الصبى يسرق •• فكانت كمالا تصيح : « كيف ؟ •• لقد عددت النقود بنفسى قبل أن أسلمها اليه » ، فيقول رامش : « ان هذا يتيح له فرصة مزدوجة للسرقة : سرقة النقود ، وسرقة الخضر ! » • ثم يدعو اليه « أومش » ويسأله حسابا عما أنفق • وما كانت أرقام الصبى لتتفق مع المعقول بطبيعة الأمر • فلو أن المرء صدق بياناته ، لوجد أنه كان ينفق دائما أكثر من المبلغ الذى عهد اليه به • ولكن هذا لم يكن يزعج الصبى فى شىء ، بل كان موقفه كما عبر عنه مرة لتشاكرابارتى : « لو كنت أجيد الحساب ، لما وجدتمونى هنا على الاطلاق ، بل لكنت وكيل ضيعة •• أليس كذلك يا جدى ؟ » •• فكان الشيخ يشفع له قائلا : « لنرجىء القضية يا رامش بابو ، ريثما نتناول الفطور ، فانك لن تملك أن تصدر حكما سليما الا بعده • وأنا لا أستطيع فى الوقت الحاضر الا أن أقف فى صف الغلام • على أن فن التدبير ونيل المطالب ليس من الفنون السهلة يا أومش ، والذين يستطيعون أن يمارسوه ليسوا كثرة • حقيقة ان الذين يحاولون ، كثيرون ، ولكن الذين ينجحون قلة بينهم ! •• اننى لا أملك سوى أن أطرى المواهب أينما صادفتها يا رامش بابو • فنحن نعرف مثلا أن الفول لا ينمو فى هذا الفصل ، وما أظن أن هناك كثيرامن

الصبية الذين يستطيعون أن يأتوك بقدر منه فى مثل هذا الصباح المبكر ، وفى مثل هذا المكان الغريب .. ان الشك ميسور لكل انسان يا سيدى ، اما التدبير ونيل كل مشتهى ، فهبة لا يحظى بها سوى واحد فى الألف من الناس ! »

ويعقب « رامش » على هذا قائلا : « انك لتعرف ان هذا ليس صحيحا ياعماه، فلا ينبغى أن تناصر الغلام ! » .. فيصيح الشيخ : « انه لم يؤت مواهب كثيرة ، فاذا تركناه يتخل عن هذه الموهبة ، نتيجة الضن بالتشجيع ، فسنندم على ضياعها قبل أن نبرح هذه الباخرة . اسمع يا « أومش » ، سأحتاج غدا الى بعض أوراق اللبخ ، ويحسن أن تجمعها من الأشجار العالية . اننى فى حاجة اليها يا عزيزى ، فهم يعتقدون أننى أجيد العلاج والتطبيب . ولكن ، تعسا للطب .. اننى لا أفعل أكثر من التحايل على شغل الوقت ! .. احرص على أن تغسل الورق جيدا يا أومش ! »

وكان الصبى يزداد تعلقا بكمالا ، كلما أسرف «رامش» فى الارتياب فيه وتأنيبه .. وبمقدم « تشاكرابارتى » ، أصبح فريق «كمالا» مستقلا عن «رامش»، اذ كان ثلاثتهم يعملون ويلعبون معا ، فى تعاطف يربط بينهم . ولقد سرت بعض عدوى ولاء « تشاكرابارتى » لكمالا الى نفس « رامش » ، ولكنها لم تذهب به الى درجة الاندماج فى فريقها . كان كسفينة كبيرة ، لا تستطيع أن ترسو على الشاطىء ، وانما تضطر الى أن تلقى مراسيها فى عرض الماء ، ثم ترقب البر عن بعد ، بينما تجنح القوارب والزوارق الخفيفة الى الشاطىء بسهولة !

★ ★ ★

. وأوشك القمر أن يكتمل بدرا ، والباخرة ماضية فى رحلتها . وفى ذات صباح ، استيقظ ركابها ليجدوا السماء فوقهم مدلهمة ، مثقلة بالغيوم ، والريح شديدة الهبوب . وأخذ المطر ينهمر ، والشمس تشرق ، فى توال وتناوب . ولم يكن فى عرض النهر من سفينة أخرى ، وان بدت بعض قوارب صغيرة جانحة الى الشاطىء ، والقلق يبدو فى حركات ملاحيها . وكانت الريفيات اللائى هبطن الى الشاطىء لملء الجرار ، لا يمكثن طويلا . وبين الفينة والفينة ، كانت الرعشات تسرى فى صفحة النهر ، من أحد جانبيه الى الجانب الآخر ، والباخرة ماضية تشق طريقها ، و « كمالا » حريصة على أن لا تدع هذه التقلبات تصرفها عن واجبها فى المطبخ . وقال لها « تشاكرابارتى » وهو يتأمل السماء : « قد لا تستطيعين أن تطهى الليلة شيئا ، فيحسن بك أن تعدى طعام العشاء من الآن . ألا ضعى « الكشرى » على النار ، ريثما أعد لك العجينة للخبز »

ولم يفرغوا من فطورهم - فى ذلك الصباح - الا فى ساعة متأخرة . وأخذت الرياح تشتد عنفا ، شيئا فشيئا ، والموج يعلو وينخفض . واختفت الشمس وراء جحافل السحب ، قبل موعد غروبها بأمد طويل ، فلم ينتبه أحد الى هذا

الغروب ٠ ثم ألقت السفينة مراسيها

وما لبث الليل أن هبط ، وأخذ القمر يبزغ من وقت لآخر خلال السحب المتراكمة ، مرسلا الى الكون ابتسامة واهنة ! ٠٠ وهبت الريح فى زوبعة ، ثم انهمر المطر سيلا دافقا ٠ ولما كانت « كمالا » قد تعرضت للغرق يوما ، فقد كان من الطبيعى أن يستبد بها الجزع ٠ وقال رامش يطمئنها : « لا داعى للخوف ياكمالا ٠٠ اننا فى أمان على سطح الباخرة ، فاذهبى الى فراشك ولا تقلقى ٠ سأكون الى جوارك فى القمرة الملاصقة ، ولن أستسلم للنوم فورا ! » ٠٠ وأقبل « تشاكرابارتى » الى بابها قائلا : « لا ترتاعى يا عزيزتى ، فلن تجسر العاصفة اللعينة على أن تمسك بسوء ! » ٠٠ ولكن « كمالا » وثبت الى الباب وصاحت ضارعة : « ألا أدخل واجلس بجانبى ٠٠ أرجوك يا عماه ! » ٠٠ وتردد « تشاكرابارتى » ، ثم قال : « لقد حان الوقت كى تستسلمى وزوجك للنعاس ، فخير لى ٠٠٠ » واجتاز العتبة وهو يتكلم ، فسرعان ما تبين أن « رامش » لم يكن فى القمرة ٠ واذ ذاك هتف فى دهشة : « عجبا ٠٠ أين رامش بابو ؟ ٠٠ ما أظنه ذهب ليسرق بعض الخضر فى مثل هذه الليلة العاصفة ! » ٠٠ فواتاه صوت رامش صائحا : « أهلا ٠٠ أهذا أنت يا عماه ! ٠٠ أنا هنا فى القمرة المجاورة ! »

وأطل « تشاكرا بارتى » فى القمرة الأخرى ، فرأى رامش مستلقيا على الفراش ، ملتفا فى الأغطية ، وقد انصرف الى القراءة على ضوء المصباح ، فقال له : « ان زوجتك الطيبة فى قلق من وحدتها ٠ الا دع كتابك جانبا ، فلن ترهب به العاصفة !٠٠ تعال هنا ! » ٠ واستولت على « كمالا » غريزة قوية سلبتها سلطانها على نفسها ، فصاحت فى انفعال وبصوت مختنق ، وهى تتشبث بيده : « لا ، لا يا عماه ! » ٠٠ ولم يصل صوتها الى أذنى رامش وسط زئير العاصفة ، ولكن « تشاكرا بارتى » سمعه ، فالتفت فى عجب واكتئاب ٠ وترك « رامش » كتابه وأقبل على القمرة الأخرى متسائلا : « ماذا جرى يا عم تشاكرا بارتى ؟ ٠٠ يبدو أنك وكمالا ٠٠٠ » ، فقاطعته « كمالا » وهى منفعلة ، دون أن ترفع اليه بصرها : « لا ، لا ! ٠٠ انما سألته ان يأتى فيؤنسنى بحديثه ! » ٠ ولم تدر فى الواقع ما الذى كانت تنفيه اذ صاحت : « لا ، لا ! » ، ولكن الشعور الحقيقى الذى بعث النفى الى لسانها كان يقصد : « تخطىء اذا ظننت اننى بحاجة الى شخص يبدد خوفى ٠٠ لست بحاجة الى أحد ٠٠ تخطىء اذا خلت اننى أطلب رفيقا ! » ٠٠ وتحولت للشيخ قائلة : « اننا فى ساعة متأخرة يا عماه ، فيخلق بك أن تأوى الى فراشك ٠ وأرجو أن ترى ما اذا كان أومش بخير ، اذ أخشى أن يكون مرتاعا بسبب العاصفة » ٠ وواتاها صوت الصغير من جوف الظلام فى خارج القمرة : « لا شىء يروعنى يا أماه ! » ٠٠ وظهر أن

« أومش » كان يجلس خارج باب « مولاته » وهو يرتجف ، فمس ولاؤه قلبها ، وجعلها تخف اليه صائحة : « لسوف تبتل بالمطر يا أومش ٠٠ اسرع فنم فى قمرة العم ، أيها الولد الشقى ! » ٠ وأسرع الغلام طائعا ، يصحب العم تشاكرا بارتى ، وقد أثقل قلبه ان وصفته كمالا بالولد الشقى ، رغم لهجتها الرقيقة !

★ ★ ★

◆ وسألها رامش : « هل أونسك الى أن تنامى ؟ » ٠٠ فقالت كمالا : « لا ، أشكرك ٠٠ ان النعاس يثقل جفنى » ٠ وأدرك الشاب حقيقة ما كان يجول بخاطر الشابة ، ولكنه لم يحاول أن يلح عليها ، اذ رأى على محياها أمارات الكبرياء الجريحة ، ومن ثم عاد فى تثاقل الى قمرته ٠ والواقع ان كمالا كانت فى ذعر وانفعال يمنعانها من النوم ، ولكنها أجبرت نفسها على الاستلقاء فى فراشها !

واشتدت الأنواء باشتداد العاصفة ، فسهر الملاحون ، وتوالت تعليمات الربان الى غرفة المحركات ، اذ ان المرساة لم تعد كافية لأن تشد الباخرة الى مرساها ، فأديرت المحركات ببطء ٠ وما لبثت كمالا ان نضت عنها الأغطية ، وخرجت الى السطح ٠ وكانت الأمطار قد توقفت هنيهة ، ولكن الرياح كانت تعوى كمخلوق تنهال عليه السياط ! ٠٠ وكان البدر يطل شاحبا من بين السحب التى كانت تجرى أمام العاصفة كأشباح تنذر بالويل ٠ وكانت ضفتا النهر لا تكادان تظهران ، بل ان النهر نفسه لم يكد يظهر للبصر ! ٠٠ واختلطت السماء والأرض ، والقريب والبعيد ، والمرئى وغير المرئى ، فى كتلة هوجاء ، ما لبثت أن اتخذت رويدا شكل الجاموسة السوداء التى يركبها ملك الموت ٠٠ تلك الجاموسة الرهيبة التى تشهر قرنيها فى هياج !

وعجزت كمالا عن ان تحدد كنه الشعور الذى جاش فى صدرها وهى تتأمل السماء المعتمة ، والليل الهائج ٠ ربما كان ذلك الشعور هو الخوف ٠٠ وربما كان الفرح كذلك !٠٠ كانت فى ثورة الطبيعة قوة وحشية ٠٠ انطلاق جامح مس وترا خاملا فى نفسها !٠٠ لقد بهرها عنف ثورة الطبيعة ٠ ترى ، ضد من كانت تلك الثورة ؟! ٠٠ ولم تسمع كمالا – فى زئير العاصفة – جوابا واضحا ٠ كان الجواب مبهما ، كتلك الزوبعة التى هبت فى صدرها !٠٠ كانت ثورة الطبيعة مجهودا لا شك فيه لتمزيق رباط غير مرئى ، لا شكل له ولا حدود ٠٠ رباط من الخداع ، والوهم ، والغموض ، يهز الأرض – من أسسها – مع صراخ العاصفة الرهيبة : « لا ، لا ! » ٠٠ هذا الرفض البسيط ، الصريح ، هو الذى كانت الزوبعة تصرخه وهى تندفع من أقصى الفضاء اللانهائى ، الى جوف الليل البهيم !٠٠ ترى ما الذى كانت ترفضه ؟٠٠ ولم تجد كمالا ردا ولا جوابا ، وانما ظل الصراخ يدوى فى سمعها : « لا ، لا ٠٠ أبدا ٠٠ لا ، لا ، لا ! »

الفصل الثلاثون

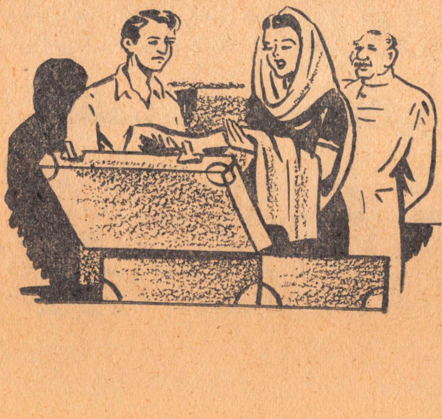
◆ خفت وطاة الانواء فى اليوم التالى ، وان ظلت الريح محتفظة بقوتها . وأخذ الربان يجيل بصره فى السماء ، وهو غير مستقر على رأى . وقام تشاكرا بارتى بزيارة لرامش فى القمرة المجاورة لقمرة كمالا ، فى الصباح الباكر . وكان رامش لا يزال فى فراشه ، ولكنه لم يكد يراه حتى استوى جالسا . وإذ لاحظ الشيخ أن الشاب قضى ليلته فى تلك القمرة ، وتذكر ما حدث فى الليلة الماضية ، بدأ يشعر بأن فى الامر ما يريب ، فقال متسائلا : « لعلك نمت هنا الليلة الماضية ؟ » .. وتفادى رامش الاجابة ، قائلا : « يا له من صباح عاصف ! .. كيف قضيت ليلتك يا عماه ؟ » ، فقال تشاكرا بارتى : « لعلك تظننى أحمق يا رامش بابو ؟ فالواقع ان كلامى يوحى بذلك ، بيد أنى لم أصل الى هذه السن ، دون أن أتعرض لكثير من المشكلات . ولقد استطعت أن أحل معظمها ، ولكنك أصعب معضلة قابلتها ! » .. فتضرج وجه رامش على الرغم منه ، ولكنه أسرع يتمالك نفسه ، وابتسم قائلا : « هل من الجرم أن أكون مستعصى الحل يا عماه ؟ .. يبدو أنك تتعجل الحكم على ما لا تفهم . فعندما يلتقى المرء برموز غريبة ، لا ينبغى له أن ينظر اليها قانطا ، وأن ييأس من امكان حلها ! » .. فقال الشيخ : « اغفر لى يا رامش بابو . قد يكون من الغرور الباطل أن أحاول فهم رجل لا أحظى بثقته .. ولكن الحياة أحيانا تجمع المرء بأخ يميل اليه ويألفه من النظرة الأولى . اننى أستشهد بذلك الرجل ذى اللحية .. ربان باخرتنا . فهو ولا بد يعترف أنه يعتبر زوجتك الشابة صديقة عزيزة . سله ، واذا لم يعترف فلن يكون مسلما صادقا . وعندما تكون الأمور على هذا النسق ، فمن المؤلم جدا أن تجد نفسك فجأة أمام لغز من الألغاز التى لا سبيل الى فهمها . ولو أنك أطلت التفكير فى الأمر ، لما رأيت فيه ما يؤلمك ! » .. فتنهد «رامش» قائلا : « لقد أطلت التفكير بالفعل ، ولهذا لم أتألم . ولكن .. سواء تألمت أو لم أتألم ، وسواء جرحت شعورك أو لم أجرحه ، فان الرموز المستعصية ستظل مستعصية .. انها من الشيم القاسية للطبيعة ! »

وبدأ « رامش » يسائل نفسه عما اذا كان من الصواب أن يستقر فى (غازيبور) . وكان أول ما جال بخاطره ، أن صداقته وكمالا للشيخ قد تفيدهما ، اذا آن لهما ان يتخذا مقرا فى بلد غريب عنهما . ولكنه ما لبث ان شعر بان للصداقة مع أحد من أهل ذلك البلد بعض المضار ! فلو ان علاقته بكمالا صارت موضع نقاش ، لكان الأمر شاقا على الفتاة . ومن الأسلم له و لها ، أن يعيشا مغمورين فى بلد كل أهله اغراب عنهما ، فلا يجد أى شخص من الألفة ما يبيح أن يوجه

اليهما أسئلة ما ٠ ومن ثم فقد قال لتشاكرا بارتى فى اليوم السابق على وصول الباخرة الى (غازيبور) : « ما أظن غازيبور تناسبنى ـ من ناحية مهنتى ـ يا عماه ، ومن ثم قررت أن أذهب الى بنارس ! » ٠ وعجب الشيخ لرنة البت التى بدت فى لهجة رامش ، وقال : « ليس من الحزم أن تغير خططك باستمرار ! ٠٠ ومع ذلك ، فهل استقر رأيك الآن على الذهاب الى بنارس ؟ »٠٠فأجاب باقتضاب: « نعم » ٠٠ وسار الشيخ فى صمت الى قمرته ليحزم متاعه ، فسألته كمالا فى تخابث : « هل كرهتنى اليوم يا عماه ؟ » ٠٠ وبادر قائلا فى مداعبة : « وما الذى تنتظرينه اذا كنا نتشاجر من الصباح الى المساء ؟ ٠٠ انك لتعلمين أننى لم أسأمك بعد ! » ٠٠ قالت : « ولكنك تحاشيتنى منذ الصباح » ، فقال تشاكرا بارتى : « أتجسرين على أن تتهمينى بتحاشيك ؟ ٠٠ بل أنت التى توشكين أن تهربى منى ! » ، فحملقت « كمالا » فيه وهى لا تكاد تفقه ، واذ ذاك قال لها : «ألم ينبئك رامش بابو ؟٠٠ لقد قرر أن تذهبا الى بنارس» ٠ ولم تؤيد «كمالا» النبأ، ولم تنفه ٠ ولكنها قالت بعد فترة : «لن تستطيع ان تحزم متاعك ياعماه ، فدعنى احزمه لك ! »

★ ★ ★

◆ وتألم تشاكرابارتى كثيرا ، لعدم اكتراث كمالا بالعدول عن مشروع (غازيبور) ، وان كان قد قال لنفسه : «لعل هذا أفضل ٠٠ ما قيمة تكوين روابط جديدة فى حياتى ؟ » ٠ واذ ذاك ظهر « رامش » ليعلن كمالا بتعديل خطته ، قائلا وهو يراها ترتب ثياب تشاكرابارتى : « كنت أبحث عنك ٠٠ لن نذهب الى (غازيبور) فى الوقت الحاضر يا كمالا ، فقد قررت أن أمارس مهنتى فى بنارس ٠٠ هل توافقين ؟ » ٠٠ فأجابت دون أن تحول بصرها عن متاع



تشاكرابارتى : « لا ، بل سأذهب الى غازيبور ! » ٠ وبهت رامش لرفضها الحاسم ، فسألها : « وهل ستذهبين وحدك ؟ » ٠ فقالت وهى ترمق الشيخ فى ود : « لا ٠٠ بل سأصحب العم ! » ٠ ولم يستسغ الشيخ هذا الموقف ، ولكنه قال : « انك بابداء مثل هذا التحيز يا عزيزتى ، تثيرين غيرة رامش بابو ! » ٠٠ غير ان كمالا اكتفت بأن رددت : « سأذهب الى غازيبور ! » ٠٠ وبدا من لهجتها انها اعتبرت نفسها حرة فى أن تفعل ما تشاء ، فقال رامش : « حسنا يا عماه ٠٠ لنهبط فى غازيبور ! »

وصفت السماء فى المساء ، بعد مطر طويل ، وظل رامش جالسا يفكر فى ضوء القمر الى ساعة متأخرة : « لن نستطيع أن نمضى هكذا مدة أخرى ٠٠ لسوف يستعصى الموقف اذا تمردت كمالا ، ولست أدرى كيف سأقيم معها ، ملتزما الحدود التى رسمتها لعلاقتى بها !٠٠ لم أعد أحتمل ! انها ـ رغم كل شىء ـ زوجتى فى الواقع والحقيقة ٠ لقد اعتبرتها زوجتى منذ البداية ، ويجب أن لا يصدنى عنها عدم تلاوتى الصيغة الدينية المعهودة ، فان الموت نفسه هو الذى منحنى اياها ، ووحد بيننا فى تلك الليلة التى قضيناها معا على الشاطىء الرملى ! ٠٠ وفى الحق انه أقوى نفوذا من أى كاهن دنيوى ! »

كان يقف بينه وبين كمالا جيش بكامل عدته : فلا بد له من أن يقهر العقبات، والشكوك ، والخجل ، والخزى ، قبل ان يقف أمامها رافع الرأس ! واجفل اذ تصور المعارك التى كان عليه ان يخوضها ٠ أى أمل لديه فى الانتصار ؟٠٠كيف يثبت براءته وطهر غايته ، اذ يكفل كمالا ، مع انها ليست زوجته شرعا ؟! ٠٠ وحتى لو استطاع ، فسوف يشيح المجتمع عنه ، ويعرض عن الاتصال به ، فتكون النتيجة وبالا على كمالا !٠٠ ولكن ، بعدا للجبن والتردد !٠٠ لا حل للموضوع سوى ان يتخذ كمالا زوجة بالفعل !٠٠ لابد ان همنالينى تذكره الآن فى ازورار واعراض ، وسيكون لهذا الاعراض فضل حملها على أن تقبل أى خطيب آخر !٠٠ وتنهد رامش فى أسى ، وهو يلقى بآماله فى همنالينى الى الرياح !

الفصل الحادى والثلاثون

● صاح رامش : « الى أين تزمع الذهاب يا أومش ؟ » ، فأجاب الصبى : « سأذهب مع أمى ! » ٠ قال رامش : « ولكننى دفعت أجرا لرحيلك حتى بنارس، وهذه غازيبور » ٠٠ فقال أومش : « ولكننى لن أذهب الى بنارس » ٠ ولم يكن رامش يتوقع أن يغدو الصبى عضوا دائما فى أسرته ، ومن ثم استولت عليه الدهشة لثقة الصبى من موقفه ٠٠ فسأل كمالا : « هل سنصطحب أومش ؟ »

.. وكان جوابها : « ليس له سوانا ! » .. قال : « بل له أقارب فى بنارس » ، فأجابت : « ولكنه يؤثر ان يأتى معنا . والآن ، تذكر انك فى بلد غـريب يا أومش ، فاتبع العم والا فقدناك فى الزحام ! » . وبدا ان كمالا أصبحت تتولى وحدها القيادة ، وتحمل عبء تقرير وجهة الجماعة ومقرها . لقد انتهت - فجأة - الفترة التى كانت تتقبل فيها ما يمليه عليها رامش فى خضوع . وهكذا رافقهما اومش دون ما جدال ، وقد تأبط حزمة صغيرة تضم ملابسه

وكان العم يقيم فى دار صغيرة من طابق واحد ، بين المدينة والحى الأوربى ، تقع أمامها بئر ذات فوهة مشيدة بالحجر ، وخلفها بستان من أشجار « المانجو ». ويفصل الجميع عن الطريق سياج منخفض ، زرعت بينه وبين الدار حديقة صغيرة للخضر ، تروى من البئر . ودعى رامش و كمالا الى أن ينزلا ضيفين على أهل تلك الدار ، حتى يعثرا على دار يستقران فيهـــا . ومع أن العم كان يصف زوجته - « هاريبابينى » - دائما بانها ضعيفة الجسم والصحة ، الا انها لم تكشف عن شىء من هذا الضعف فى مظهرها . فقد كان وجهها يطفح قوة ونشاطا - رغم تجاوزها أوسط العمر - ولم يدب الشيب الا الى شعيرات قليلة فوق صدغيها . كان من الواضح ان الشيخوخة أصدرت أمرا بضمها الى رعاياها ، ولكنها لم تنفذه بعد !.. أما ما كان زوجها يبنى عليه وصفه اياها بالضعف ، فكان كله راجعا الى انها بمجرد زواجها من تشاكرابارتى وقعت صريعة للملاريا ، ولم يكن من علاج - فى رأى زوجها - سوى ان تنتقل من الجو الذى اعتادت العيش فيه ، ومن ثم سعى للحصول على منصب مدرس فى (غازيبور) ، ثم نزح وأسرته الى هناك . وكانت « هاريبابينى » قد استردت صحتها منذ أمد طويل ، ولكن زوجها لم يكف عن العناية بها ورعايتها !

ورحب « تشاكرابارتى » بضيفيه فى حجرة تقع فى مقدمة الدار ، ثم غاب داخل الدار يبحث عن زوجته ، حتى وجدها فى ساحة محاطة بسياج ، تعرض آنيتها الفخارية للشمس ، وتطحن القمح ، فصاح بها : « ما هذا ؟ ان اليـــوم يميل الى البرودة ، أفما كان يحسن بك ان تأتزرى بشـــال ؟ » .. فأجابت : « ما هذا الذى تقول ؟ برد ! .. ان الشمس تكاد تشوى ظهرى ! » . واذ ذاك تحول تشاكرابارتى قائلا : ماينبغى هذا . ان علينا أن نقيم لك مظلة تقيك من الشمس ! » . فقالت هاريبابينى : « فليكن ، ولكن ، قل لى الآن .. أين كنت طيلة هذه المدة ؟ » ، فأجاب : « هذه قصة طويلة .. لقد اصطحبت ضيفين ، يجب أن نكرمهما قبل ان نفعل أى شىء آخر ! » .. ووصف لها ضيفيه بايجاز . وما كانت هذه أول مرة يستضيف فيها أغرابا ، ولكن « هاريبابينى » لم تكن ترتقب ان تستضيف زوجين فهتفت : « عفوا ،ولكننا لا نملك مكانا يليق بهما !»، فقال زوجها : « خليق بك ان ترحبى بهما أولا ، ثم نتدبر أمر مقامهما . أين

سايلا ؟ » ، فأجابت : « انها تغسل جسم طفلها »

وما لبث تشاكرابارتي ان صحب كمالا الى حيث كانت زوجته ، فقدمت الشابة لهايبابيني التحية التى تليق بسنها ، ومست العجوز بدورها ذقن كمالا باحدى اصابعها ، ثم قبلت تلك الأصبع ، وقالت لزوجها : « ألا تراها شديدة الشبه بعزيزتنا بيدو ؟ » .. وكانت « بيدو » ابنتهما الكبرى ، وتعيش مع زوجها فى مدينة (الله أباد) . وعجب تشاكرابارتي فى نفسه من هذه المقارنة ، فما كان ثمة أتفه شبه بين بيدو وكمالا ، ولكن هاريبابيني لم تكن تقر مطلقا بتفوق أية فتاة عى ابنتها فى الجمال أو الشكل !.. أما ابنتهما الأخرى «سايلاجا» فكانت تقيم معهما . وكان وجودها هذا كفيلا بأن يدحض زعم أمها ، اذا ما قارنت جمالها بجمال أية فتاة ، ومن ثم كانت الأم تقصر المقارنة على الابنة الغائبة !

وقالت هاريبابيني : « يسرنا أن نحظى بكما ، وان كنت أخشى أن لا نستطيع أن نوفر لكما الراحة الكافية ، فان أعمال الاصلاح فى بيتنا الجديد لم تستكمل بعد ، ومن ثم فنحن مضطرون الى أن نحشر أنفسنا ومتاعنا هنا ! » . والواقع ان تشاكرابارتي كان قد اشترى بيتا فى سوق المدينة ، واخذ يجرى فيه بعض الاصلاحات ، ولكنه لم يكن من السعة بحيث يصلح لسكناهم ، ولا خطر ببالهم أن يتخذوه مسكنا !.. لذلك ضحك تشاكرابارتي من فرية زوجته ، ولكنه لم يشأ أن يفضحها ، بل قال لكمالا : « لو انك عارضت فى التعرض لأى تعب ، لما أحضرتك الى هنا ، والتفت الى زوجته قائلا : « يحسن بك ان لا تبقى بعد الآن فى الساحة ، فان شمس الخريف غير مأمونة ! »

★ ★ ★

◆ واذ خلت « هاريبابيني » الى كمالا ، راحت تمطرها بالأسئلة : « ان زوجك محام ، أليس كذلك ؟ .. كم مضى عليه فى المهنة ؟ وما دخله ؟ آه ، ألم يبدأ بعد فى ممارسة مهنته ؟ اذن ، فكيف تظفران بعيشكما ؟ هل ترك له حماك ثروة كبيرة ؟ ألا تعرفين ؟ يا لك من فتاة عجيبة ! ألا تعرفين شيئا عن أهل زوجك ؟ كم يعطيك زوجك لنفقات البيت فى كل شهر ؟ ان فتاة فى مثل سنك يجب أن تشرف بنفسها على كل شيء ، ما دامت حماتها قد فارقت الحياة ! .. ان زوج ابنتى « بيدو » يسلمها كل ما يكسب ! » .. بمثل هذه القذائف من الأسئلة والتعليقات ، أظهرت السيدة العجوز كمالا على عجزها وجهلها بشئون زوجها وأسرته . ففطنت الى أنها لم تحظ قط بفرصة تتحدث فيها مع راميش عن شئونه .. بل تبينت انها لا تكاد تعرف شيئا عن الرجل الذى صار زوجا لها ! .. وللمرة الأولى ، انتبهت الى غرابة هذا الوضع ، فغشيها شعور بالأسى

لتفاهة شأنها • وعادت هاريبابينى تقول : « أرينى اساورك ياعزيزتى ؟ • • ان ذهبها ليس جيدا جدا •• ألم يمنحك أبوك حليا عند زواجك ؟ آه ، انه ميت! •• يجب ان تقتنى بعض الحلى على أية حال •• الم يقدم اليك زوجك شيئا منها ؟ •• ان زوج « بيدو » يعمل على أن يقدم اليها سوارا عريضا فى كل شهرين تقريبا ! »

وقطع عليها هذا التحقيق دخول « سايلاجا » ، تجر ابنتها « اومى » التى كانت فى الثانية من عمرها • كانت « سايلاجا » سمراء ، دقيقة القسمات ، عريضة الجبين ، ينم محياها عن حيوية وخفة دم ، وعن تعقل واتزان •• وتأملت « أومى » الضيفة لحظة ، ثم هتفت : « خالتى ! » •• ومع أن كمالا لم تكن تشبه بيدو ، الا أن الطفلة ، كانت تضع فى مرتبة خالتها كل انثى تميل اليها !•• ورفعت كمالا الطفلة الى ركبتيها ، بينما قدمت هاريبابينى ضيفتها الى ابنتها قائلة : « زوج هذه السيدة محام ، وقد وفد على بلدتنا ليمارس مهنته ، والتقيا بأبيك وهو فى طريقه عائدا ، فاستضافهما » • وتقابلت أعين الفتاتين ، فكانت النظرة عربون صداقة وثيقة • وذهبت ربة البيت تستعد لاكرام الضيفين ، فأمسكت سايلاجا بيد كمالا ، ودعتها الى غرفتها الخاصة • ولم يمض وقت يذكر، حتى كانتا تتحدثان فى ود وألفة ، اذ كان الفارق بين عمريهما لا يكاد يكون ملحوظا • وكانت كمالا تفوق سنها فى سعة الأفق ورجاحة الفكر ، ولعل ذلك كان راجعا الى أن روحها الفردية لم تتعرض لسيطرة حماة ، فلم تخرق اذنها يوما عبارات مثل : «اعقلى لسانك!» •• « افعلى ما آمرك به ! » •• « ما ينبغى للصغيرات ان يكثرن من قول (لا) لمن يكبرنهن ! » • ومن ثم واجهت الحياة بقامة منتصبة ، وبرأس مرفوع ، كنبات قامت ساقه معتدلة ، صلبة !

وسرعان ما اندمجت الصديقتان الجديدتان فى الحديث ، رغم ان الصغيرة « أومى » لم تكف عن محاولة الاستئثار باهتمامهما • على أن كمالا ما لبثت ان فطنت الى انها — على الرغم من رجاحة فكرها — لم تكن تعادل « سايلاجا » لباقة !•• ولم تستطع بحديثها عن حياتها الزوجية الا ان ترسم صورة سريعة ، ناقصة ، خالية من الألوان • لم تفطن قط قبل اليوم الى حقيقة هذه الحياة الزوجية ، وان كانت قد احست — بغريزتها — أنها كانت تفتقد شيئا ، طالما أثار الجهل بكنهه فورات من التمرد فى نفسها ! •• وهكذا ، ما ان زالت الكلفة بين الفتاتين ، حتى راحت سايلاجا تتحدث عن زوجها ، ولكن كمالا كانت تعلم انها لا تحسن الضرب على هذا الوتر ، فما كان لديها ما يمكن ان يقال عن زوجها! •• كانت مادتها فى هذا المضمار ضئيلة !•• وعرفت ان « بيبين » — زوج سايلاجا — كان موظفا فى مصنع للأفيون بغازيبور ، وان لتشاكرابارتى ابنتين ، تقيم كبراهما مع أهل زوجها ، وان الشيخ لم يقو على فراق ابنته الصغرى ، ومن

ثم اختار لها زوجا ٠٠ شابا رقيق الحال ، رضى بأن يتولى المنصب الذى حصل له تشاكرابارتى عليه بالوساطة والمحسوبية ، وقبل أن يعيش مع أهل زوجته ٠ وقطعت « سايلاجا » الحديث فجأة ، لتقول : « اسمحىلى ببضع دقائق يا عزيزتى، ولن أغيب عنك طويلا » ٠ وشرعت تذكر فى اعتداد ان زوجهـــا قد انتهى من استحمامه ، ولابد لها من أن تقدم له الفطور قبل أن يخرج الى عمله ٠ فسألتها كمالا فى سذاجة : « وكيف عرفت انه عاد من الحمام ؟ » ٠٠ فقالت سايلاجا : « آه ، لا تعبثى بى ٠٠ كيف تعرف المرأة شيئا كهذا ؟ ٠٠ ألا تعرفين وقـــع خطوات زوجك اذا سار ؟! » ٠٠ وضحكت وهى تقرص خد كمالا مداعبة ، ثم رفعت طرف وشاحها الى كتفها ، وجرت « أومى » مغادرة الحجرة ٠ وما أدركت كمالا من قبل أن لوقع الأقدام لغة يمكن فهمها !٠٠ فسرحت بصرها خلال النافذة وهى مستغرقة فى التفكير ٠٠ كانت النافذة تشرف على شجرة « جوافة » راح النحل يحوم حول أغصانها المثقلة بالبراعم

الفصل الثانى والثلاثون

◆ استأجر رامش دارا تقع فى بقعة منعزلة على شاطىء نهر (الجانجز) ٠ وكان لابد من أن ينقل متاعه ، وان يقوم بالاجراءات الرسمية التى تمكنه من أن يمارس مهنته امام محاكم (غازيبور) ٠٠ وكان الأمران يتطلبان زيارة (كلكتا)، فى حين انه كان يوجس من العودة الى المدينة ٠ فقد كان لأحد شوارعها ذكريات تقض هدوء باله !٠٠ وكانت الظروف قد تجمعت بحيث لم يعد فى وســعه ان يسوف طويلا فى قبول المركز الذى كانت تحتمه عليه الأوضاع ٠٠ مركز الزوج لكمالا ، بكل مايتطلبه الزواج ، وان ظل عجزه عن مواجهة الواقع يزين له ارجاء الرحلة الى (كلكتا) !

وكان المكان فى دار تشاكرابارتى الصغيرة محدودا ، وقد أفردت لكمالا غرفة فى داخل الدار ، بينما أقام رامش فى الغرفة الخارجية ، فلا يكاد كل منهما يرى الآخر ٠ وأسرت سايلاجا الى كمالا بأسفها من هذه التفرقة ، فسألتها كمالا : « وفيم اهتمامك ؟٠٠ ليس هذا بالوضع البغيض ! » ٠٠ فضحكت سايلاجا : « يالك من شابة قاسية القلب ٠٠ لن تخدعينى بهذا التظاهر ! اننى أعرف ما يدور بخلدك ! » ٠٠ فقالت كمالا : « اصدقينى القول ٠٠ هبى ان بيبين بابو لم يقترب منك يومين ، فهل ٠٠؟ » ، فصاحت سايلاجا مزهوة : « وكيف ؟٠٠ انه لا يحتمل البعاد عنى يومين ! »

ومضت تروى حكايات عن افتتان « بيبين بابو » بها ٠ وقصت عليها الحيل التى

كان يبتكرها بعد الخطبة ليجتاز خطوط الأعداء - أى رقابة أبيها وأمها - حتى يتمكن من رؤيتها ، وكيف كانت حيله تنكشف فى بعض الأحيان فيخفق ، وكيف انهما وجدا - حين حرمت عليهما اللقاءات - عزاء فى تبادل النظرات خلال مرآة قاعة الجلوس ، عندما كان « بيبين » يفد لزيارة أبويها !٠٠ وأشرق وجه سايلاجا وهى تروى البهجة التى كانت تملأ قلبيهما فى تلك الأيام الخالية ٠ ولقد اضطر « بيبين » فى فترة من الزمن الى أن يلزم عمله طوال نهاره ، فمضت « سايلاجا » تصف كيف كان كل منهما يشتاق الى الآخر ، وكيف كان الشاب يتسلل من عمله أحيانا كى يوافيها فى البيت !٠٠ واضطر مرة الى ان يتغيب فى (باتنا) بضعة ايام لأمر يتعلق بأعمال أبيه ، فقالت له زوجته : « هل ترى بوسعك أن تذهب الى باتنا فتمكث فيها بمفردك ؟ » ٠٠ وأجابها فى زهو : « بالطبع ! » ، فآلمت لهجته شعورها ، وأقسمت أن لاتبدى أقل أسى فى الليلة السابقة على رحيله ، ولكن قسمها ذاب فى فيض من الدموع ٠ فلما أعد كل شىء للرحيل فى الصباح التالى ، أصيب « بيبين » بصداع ، وبمرض خفى استلزم الغاء رحلته ٠ وعاده طبيب فوصف له بعض الأدوية التى عمد وسايلاجا الى صبها فى البالوعة خفية ٠٠ ولم يلبث المريض ان شفى بمعجزة غامضة ! ٠٠ وبدا على سايلاجا انهذه الذكريات حملتها بعيدا عن العالم وهى ترويها ٠ على انها لم تكد تسمع صرير الباب الخارجى بعد قليل ، حتى وثبت من مكانها ، وأعلنت ان « بيبين » قد عاد من عمله ٠٠ فلقد كانت - رغم استغراقها - تنصت الى أتفه صوت ينبىء بقدوم زوجها !

ولم تكن كمالا ترى وصف سايلاجا لحياتها الزوجية ضربا من الخيال ، فلقد خبرت يوما وميض هذا الشعور بالذات ٠ وكانت تحس فى بعض اوقات الشهور الأولى لاقامتها مع رامش ، بوتر يدق فى أعماقها ، ويوحى اليها بلحن يجلو لغز الرابطة الزوجية ٠ وعندما انطلقت من اسار المدرسة وعادت الى رامش ، كانت تمر بها لحظات من نشوة روحية ، فتشعر باللحن الغريب ينبعث من أعماقها ٠ فلما سمعت أقاصيص سايلاجا ، بدأت تفهم بعض معانى تلك المشاعر ٠ على أن تجاربها هذه لم تكن من العمق أو الثبات بحيث تخلف أثرا باقيا ٠ ولم يكن بينها وبين رامش ما يقاس على هذه اللهفة التى تربط بين سايلاجا وبيبين ٠٠ فما أثار هذا الفراق الموقوت الذى ضرب بينها وبين رامش اى أسى فى أعماقها ، ولا استطاعت أن تتصور أن يفكر رامش فى حيل للتسلل الى « الحريم » والظفر بنظرة منها !

★ ★ ★

◆ وشعرت سايلاجا بحرج حين أقبل يوم الأحد ٠ فقد شق عليها أن تترك

صديقتها الجديدة وحيدة طول يومها ذاك ، ولا وجدت من القوة ما يمكنها من أن تضحى بهذا اليوم الوحيد فى الأسبوع ، فتحرم نفسها صحبة بيبين • وكانت تدرك انه لا يوجد ثمة اتصال بين كمالا ورامش ، رغم انهما يقيمان تحت سقف واحد ، ومن ثم تمنت لو توفق الى الجمع بينهما !•• ولم تعمـــد الى استشارة والديها • ولكن تشاكرابارتى لم يكن فى حاجة الى من يستشيره ، اذ أعلن عن عزمه على أن يقضى ذاك اليوم فى المدينة بسبب أعمال هامة ، وقال لرامش - وهو موشك على الرحيل - ان بوسعه أن يوصد الباب الأمامى للدار • وتعمد أن يرفع صوته لتسمعه ابنته ، وهو موقن من انها لن تعمى عن غرضه !

وقالت سايلاجا لكمالا بعد أن اغتسلتا فى النهر : « هيا يا عزيزتى ، لنجفف



شعرك وننسقه » •• وانكبت على هذه المهمة ، فنسقت شعر صديقتها بشـــكل أنيق • ثم دار بينهما جدال بشأن الثوب الذى يحسن بكمالا أن ترتديه ، اذ أصرت سايلاجا على أن يكون زاهى اللون ، وكمالا فى حيرة من سر هذا الاصرار ، وان انصاعت له ارضاء لصديقتها • وما ان انتهوا من الغداء ، حتى همست سايلاجا فى اذن زوجها بكلمات ، فلم يلبث ان بارح المكان متعللا بحجة ما • وتحولت سايلاجا تغرى كمالا على أن تزور زوجها فى غرفته الخارجية • ولم تكن كمالا قد أبدت أى تلهف لرؤية رامش ، اذ لم يعلمها أحد أن فى مسلكها هذا خروجا على العرف ، ولا كان فى درايتها المحدودة بالمسائل الجنسية ما ينبهها الى شذوذ تصرفها •• ومع ذلك فانها أعرضت عن الانصياع لاغراء سايلاجا ! •• وخيل الى هذه الأخيرة ان كبرياء الفتاة تمنعها من أن تكون السـاعية الى زوجها ، فانتهزت فرصة استسلام أمها للقيلولة ، وأوحت الى بيبين بأن يذهب الى « رامش » فيذكر له أن « كمالا » تريد أن يوافيها فى داخل الدار !

وكان رامش مستلقيا على ظهره ، على سجادة فى الغرفة الخارجية ، وقد ثنى احدى ركبتيه في وضع رأسى ، واسند اليها الساق الأخرى ، ومضى يقرأ صحيفة « البايونير » • فلما سمع الرسالة ، ذهل !•• كان قد عقد العزم على أن يجعل من كمالا زوجة له اسما وفعلا ، ولكن الفراق الذى حال بينهما فى تلك الدار رده الى تردده القديم • ولقد كانت تراوده رؤى السعادة التى تنتظره اذا ما غدت كمالا شريكة حقة لحياته ، ولكنه أحس فى تلك اللحظة بأن تحطيم الجليد الذى اكتنف علاقاتهما ليس بالأمر اليسير !•• ومع ان الرسالة التى حملها اليه بيبين أوحت اليه بأن كمالا ربما رغبت فى محادثته فى أحد الشئون ، الا ان موجة من الانفعال العاطفى غمرت قلبه ، فطرح الصحيفة جانبا ، وتبع بيبين خلال السكينة المخدرة للأعصاب ، التى تشوب فترة ما بعد الظهر فى فصل الخريف • وأحس بذلك الانفعال الذى يغشى العاشق وهو يسعى الى حبيبته !

وكانت كمالا قد اطمأنت الى أن سايلاجا عدلت عن الحاحها ، وخلت الى زوجها ، فجلست على عتبة باب غرفتها تتأمل الحديقة • وكانت أحاديث سايلاجا قد فتحت قلبها للحب دون أن تفطن ، فأخذت تتصاعد من صدرها - بين الحين والحين - زفرة تثير أشجانها ، كما تهز النسمة الدافئة أوراق الشجر !•• وفجأة أقبل رامش ! •• واجفلت اذ اخرجتها صيحته الخافتة من استغراقها : « كمالا ! » •• وجرى الدم فى عروقها ، وهى التى لم يعترها الخجل مرة أمامه ، فنكست رأسها • وبدت له فى زينتها ، وفى اعتدادها بنفسها ، مخلوقا جديدا ، فاذا به يقع تحت سحرها !•• واقترب منها فى بطء ، وتردد لحظة أو اثنتين قبل أن يقول فى لطف : « هل استدعيتنى يا كمالا ؟ » •• ودهشت لسؤاله ، فهتفت : « لا ، بكل تأكيد • ما دعوتك • ولماذا أدعوك ؟ » •• قال : « لو انك ارسلت فى طلبى بالفعل ، لما كان عملك جرما ! » •• فكررت فى تحمس وتأكيد : « ما دعوتك مطلقا ! » •• ولكنه قال : « فليكن •• لقد جئت دون دعوة ، وما أراك ستطردينني خزيا منى ؟ •• قالت : « سيعرفون انك جئت فيغضبون •• أرجوك •• انصرف فورا ! » •• فأمسك بيدها قائلا : « حسنا •• اذن ، تعالى الى غرفتى ، فليس من سواى هناك ! » • ولكن كمالا انتزعت يدها وهى ترتجف ، وهربت الى غرفة أخرى !

وأدرك رامش ما حدث ، وفهم أن احدى نساء البيت دبرت الخطة ، فعاد الى حجرته وقد توترت أعصابه • واستلقى فى مرقده ، ممسكا بالصحيفة ، وقد راحت الأفكار تتوالى على رأسه • هذا بينما كانت « سايلاجا » تقف مذهولة ، وقد رأت « كمالا » منكفئة على أرض غرفتها ، ووجهها بين راحتيها ، وهى منخرطة فى البكاء • وراحت تهتف فى جزع : « ماذا بك يا عزيزتى ؟•• ماذا جرى ؟•• لم تبكين ؟ » •• فصاحت كمالا : « آه ، لماذا أرسلت له ؟ •• كان

خطأ لا يغتفر ! » • فقد ادركت ان أحدا لا يجسر على مثل هذا التدبير سوى صديقتها ، وان كانت توقن - فى الوقت ذاته - من أن أحدا لا يعرف على الاطلاق سر الأسى الذى خالجها فى الأيام السالفة !•• كانت تبنى لنفسها قصورا فى الهواء ، وقد أوشكت أن ترسم آخر خطوطها ، عندما أقبل رامش ، ولو انه تسلل برفق الى المنظر الذى كانت تراه بعين الخيال ، لمضى كل شىء على ما يرام • بيد ان دخوله المفاجىء وهو مطمئن الى انها استدعته ، جعله يصطدم بقصور الأحلام فيهدمها !•• وذكرت محاولته ابقاءها سجينة المدرسة خلال العطلة ، واهماله شأنها على الباخرة ، وتزاحمت فى ذهنها الذكريات ، ثم ان الود والألفة شىء ، ومجرد تلبية الدعوة شىء آخر ! وما كانت قبل قدومها الى (غازيبور) ، قد فطنت الى أن بين الأمرين عالما واسعا •• ولكن « سايلا » لم تكن لتستطيع ان تفهم هذا • كان فوق ادراكها ان تلمس وجود حاجز حقيقى بين رامش وكمالا • على انها رفعت رأس كمالا فى جهد ، وأسلمتها الى حجرها ، وأخذت تقول : « صارحينى يا عزيزتى ، هل قسا عليك رامش بابو فى القول ؟ •• لعله وبخك لأن زوجى دعاه اليك •• كان خليقا بك ان تذكرى له انني المذنبة ! »

- لا ، لا •• انه لم يقل شيئا عن هذا ! ولكن ، لماذا عملت على حضوره ؟

- كان خطأ منى ، فاغفرى لى !

واستوت كمالا جالسة فجأة ، وطوقت عنق سايلا بذراعيها ، وهتفت : « الا اسرعى الآن يا عزيزتى ، فلابد ان بيبين بابو قد ضاق ذرعا بغيابك ! » •• وفى تلك اللحظة ، كان رامش يسرح بصره فى صحيفة « البايونير » فى تكاسل ، ثم اعتدل جالسا ، وألقى الصحيفة جانبا ، وقال لنفسه : « كفى •• سأذهب غدا الى كلكتا ، فأنجز أعمالى •• فانى لازداد شعورا بقسوتى كلما تأخرت فى جعل كمالا زوجة حقيقية لى ! »

الفصل الثالث والثلاثون

◆ كان «رامش» قد عقد العزم على أن يتعجل انجاز أعماله فى (كلكتا) ، وعلى أن لا يضع قدمه فى حى (كالونولا) مطلقا ، ومن ثم نزل فى داره بحى (دار دجيبارا) • بيد ان أعماله لم تكن تشغل من نهاره سوى وقت قصير ، فكانت بقية ساعات اليوم الأربع والعشرين تمر متثاقلة ، ممضة • ولم يكن بوسعه أن

يواجه معارفه القدامى ، بل انه اتخذ الحيطة كى يتفادى فرص الالتقاء بهم فى الطريق · ومع ذلك ، فقـــد وجد أن عودته الى مسرح أشجانه القديمة قد أحدث أثرا فى نفسه ·· كان جمال كمالا اليافعة قد ألقى عليه سحره ، تحت سماء الريف المترامية ، وفى هدوئه الوادع · على أن هذا السحر انجاب عنه فى المدينة · وحاول الشاب فى مسكنه بدار ديجبارا أن يتمثل صورة الفتاة فى حسنها ، ليملى منها عينيه ، ولكن خياله لم يستجب لرغبته · وكان يكرر الاقسام والعهود أن لا يولى « همنالينى » أى اهتمام ، ولكن ذكراها كانت تنبعث فى ذهنـــه ، وتزداد اشراقا ، طيلة النهار والليل · وبات عزمه على نسيانها يضاعف من الحاح ذكراها عليه ! ·· ولو أن رامش تمكن من أن يفرغ من أعماله سريعا ، لعجل بالعودة الى (غازيبور) ، ولكن كل صغيرة كانت تتطلب اجراءات مزعجة · على أنه ما لبث أن نفض يديه ذات يوم ، وقرر الرحيل الى (الله آباد) ، ومنها الى (غازيبور) · بيد أنه علل نفسه بأن لا ضير عليه ـ والحال هذه ـ اذا قام بزيارة مختلسة لحى (كالوتولا) قبل أن يبرح (كلكتا) !

واذ انتهى الى هذا القرار ، جلس فكتب خطابا لهمنالينى ، عرض فيه لكل علاقاته بكمالا ، باسهاب وتفصيل ، واستطرد الى ما اعتزمه من أن يتخذ تلك المسكينة ـ التى لا حول لهـــا ولا نصير ـ زوجة حقيقية له ، اذا ما عاد الى (غازيبور) · كانت رسالة وداع ، فضفض فيها عما بصدره لحبيبته السابقة ، قبل أن يفترق عنها فراقا نهائيا ، كاملا · ثم أودع الرســـالة ظرفا أغلقه · بيد أنه لم يكتب اسم المرسل اليها فى الخارج ، ولا فى الداخل ·· فقد كان مطمئنا الى أن بوسعه أن يجد بين خدم «أنادا بابو» أعوانا ، اذ كان لطيفا مع كل من كانوا يحيطون بهمنالينى ، كما كان ينتهز أتفه الاسباب ليغمرهم بعطاياه · ومن ثم قرر أن يسعى الى هناك بمجرد هبوط المساء ، فيحاول أن يحظى بنظرة

الى همنالينى عن بعد ، ثم يسلم الرسالة الى أحد الخدم ويوصيه بأن يحملها فى الخفاء الى الفتاة ، فيكون هذا آخر ختام للروابط القديمة التى كانت بينهما ! ٠٠ وبالفعل ، غادرمسكنه مع مجىء الليل ، حاملا رسالته ، وتسلل ــ بأوصـــال مرتجفة ، وقلب مضطرب ــ الى شارع الذكريات التى لاتنمحى ، فألفى باب الدار مغلقا ، والنوافذ موصدة ، والمسكن مهجورا ، يرين عليه الظلام ٠ وطرق الباب ٠٠ وعند الطرقة الثالثة أو الرابعة ، رفع الحـارس المزلاج وفتح له ، فبادره رامش قائلا : « أهذا أنت يا سوخان ؟» ٠٠ وواتاه الجواب : « أجل ، أنا سوخان » ٠٠ قال رامش : « الى أين ذهب مولاك ؟ » ٠٠ فأجاب الحارس : « رحل الى الريف مع السيدة ابنته لتغيير الجو!» ٠قال رامش : «والىأى بلد ذهبا؟» ، فأجاب : « لست أدرى » ٠ فسأله : « وهل رافقهما أحد ؟ » ٠٠ وأجاب الحارس : « أجل ، رافقهما نالين بابو » ، فهتف رامش : « ومن يكون نالين بابو ؟ » ٠٠ قال الحارس : « لست أعرف ! » ٠ على أن رامش ما لبث أن عرف من « سوخان » أن نالين هذا كان شابا أكثر من التردد على الدار فى الفترة الاخيرة ٠ ومع أن رامش كان قد تخلى عن كل أمل فى همنالينى ، الا أنه أحس بكراهية نحو « نالين بابو » هذا !

وعاد يسأل الحارس : « وهل كانت السيدة الشابة فى صحة طيبة حين رحلت ؟ » ٠٠ فأجابه : « آه ، أجل ٠٠ كانت بخير ! » ٠٠وكانالحارس يقصد بجوابهان يطمئنرامشويطيبخاطره ، ولكن السماء وحدها هى التى عرفت الى أى مدى أخطأ حـدس سوخان ! ٠٠ ورغب رامش فى أن يجوس خلال غرفات الدار ، فحمل الحارس مصباحا من مصابيح البترول ، يتصاعد منـــه الدخان ، وتقدمه صاعدا السلم ، وأخذ رامش ينتقل من غرفة الى أخرى وكأنه طيف ٠وكان يتوقف بين آن وآخر ، ثم يجلسعلى

أحد المقاعد ، أو احدى الأرائك التى كان يعتز بهـا • كان كل شيء على عهده به ، فليس من جديد سوى هذا الدخيل : « نالين بابو » ، الذى ظهر فجأة من حيث لا يدرى رامش ! •• وما خطر له أن الطبيعة تكره الفراغ ، ولا تحتمل أن ترى فراغا دون أن تملأه ! •• وتأمل رامش النافذة التي وقف عندها الى جـوار همنالينى فى ضياء شمس الخريف الآفلة ، وقد انسجم قلباهما فى وجيب واحد ! •• ان الشمس لا تزال – ولا بد – ترسل فلول أشعتها خلال هـذه النافذة ، وهى راحلة فى كل يوم •• ولكن ثمة شخصا آخر خلف رامش ، فى اللوحة التى تستقر فى اطار النافذة عند الغـــروب ! •• أفلا تقف روح الماضى بين الشخصين اللذين يقفان فى النافذة ، فتفرق بينهما وهى ترفع اصبعها منذرة ؟ •• وثارت فى صدره الكبرياء الجريحة ••وبدلا من أن يذهب الى (الله آباد) فى اليوم التالى ، رحل مباشرة الى (غازيبور) !

الفصل الرابع والثلاثون

♦ كان رامش قد قضى فى (كلكتا) شهرا تقريبا ، وهو عمـر طويل لدى فتاة فى سن كمالا ، بلغت أوج مرحلة المراهقة ، وأوشكت على النضوج • فان أنوثتها لم تكد تفيق من سباتها ، حتى تفتقت عن ادراك كامل ، تماما كمـا يحدث عندما ينقلب ضياء الفجر فجأة الى اشراق الشمس • ولعـل أنوثتها ما كانت تتفتح بمثل هذه السرعة ، لولا توثق صلاتها بسايلاجا ، وماكانت تضفيه عليها شخصية هذه الفتاة من نور ودفء • وفى تلك الأثنـاء ، كان تقاعس «رامش» ، والحاح « سايلاجا » ، قد حملا «العم» على أن يتولى التقاط الأثاث اللازم للمنزل الذى استؤجر على ضفة نهر (الجانجز) فى أقصى أطراف المدينة ، كما استأجر من الخدم العـدد الكافى للعناية بالبيت • فلمـا عاد رامش الى (غازيبور) بعد غيابه الطويل ، كانت كمالا قد اطمأنت الى أن قد أصبح لها – أخيرا – بيت !

ولم يعد الشابان يثقلان على كرم « العم » !٠٠ وكان ثمة فضاء كاف لزراعة حديقة حول البيت ٠ كما كان ثمة طريق ظليل يمتد بين صفين من الأشجار الطويلة ٠ وكان النهر قد انخفض الى المستوى الشتوى ٠ وامتدت بين البيت وضفة النهر ، مساحة من الأرض الرملية المنبسطة ، قامت فيها بعض سيقان القمح ، تتخللها أحواض البطيخ ٠ وعند الحافة الجنوبية لسياج البيت ، كانت تقوم - ناحية النهر - شجرة ضخمة ، أحيطت جذورها بمنصة حجرية ٠وكانت الدار وملحقاتها قد ظلت خالية من السكان أمدا طويلا ، فبدت عليها علامات الاهمال ٠ ولكن كمالا لم تشفق من هذه الحال ، بل سرها أن تتبوأ مركز ربة البيت ، ومن ثم بدا كل شيء لعينيها جميلا ٠ ولم تضيع وقتا فى تقرير ما ينبغى أن تستخدم من أجله كل حجرة ، ومايزرع فى كل ركن من الحديقة ٠ واستشارت « العم » فيما يتخذ من اجراءات لاصلاح أرض هذه الحديقة ، كما أشرفت بنفسها على انشاء فرن فى المطبخ ، وعلى اجراء تعديلات فى غرفة اختزان المؤن ٠وقضت يوما بأسره فى التنظيف ، والكنس ، والمسح ، دون أن تكل أو تهن !

على أن التدبير المنزلى يظهر جمال الأنوثة فى أبهى وألمع صورة ٠ فقد كانت كمالا تتمثل لعينى رامش - أثناء عملها - كعصفور انطلق من قفصه ٠ كان وجهها المتألق ، ومهارتها المشحوذة ، يضفيان عليها أحاسيس جديدة من الانبهار والسرور ٠٠ كانت هذه هى المرة الأولى التى يراها فيها رامش كربة بيت ، فلاحت وكأنها تبوأت عرش ملكها ، فأضاف هذا الى جمالها مسحة من الاعتزاز ٠ وسألها : « ما الذى تفعلينه يا كمالا ؟ ٠٠ لسوف تنهكين قواك !» ٠٠ وتوقفت كمالا عن عملها لحظة ، وتطلعت اليه بابتسامة هانئة ، ثم قالت : « لا تخف ، فأنا بخير » ، ثم استأنفت العمل ، وقد ازدهاها اهتمام رامش بها ٠ وعاد هذا الى الحديث مفتونا : « هل تناولت الفطور يا كمالا ؟ » ٠٠ فأجابت : « بالطبع ٠٠ منذ ساعات ! » ٠٠ وكان رامش يدرك هذا ، ولكنه لم يتمالك أن يسأل ليبدى اهتمامه ٠ ومرة أخرى ، عاد يقول كى يبقى حبل الحديث متصلا : « لماذا تفعلين كل هذا بنفسك يا كمالا ؟ ٠٠ هلا نزلت لى عن بعض الأعمال ؟ » ٠ والذين يجيدون العمل ، يميلون عادة الى اساءة الظن بمقدرة سواهم ، ومن ثم ابتسمت كمالا وأجابت : « لا ٠٠ ما هذه بأعمال الرجال ! » ٠٠ فقال : « ما أكثر احتمالنا - معشر الرجال - اذ نتجاوز عما يوجه الى جنسنا من اهانات ٠ ومع ذلك فانت لم تحجمى عن استخدام العم ٠ لماذا ترينني عديم النفع ؟ » ٠٠ قالت : « لست أدرى ، ولكنى لن أتمالك نفسى من الضحك اذا رأيتك تنظف المطبخ من آثار الدخان ! ٠٠ يحسن بك أن تخرج من هنا ، فاننى أثير غبارا كثيرا ! » ٠٠ ولكنه قال : « ان الغبار لا يفرق بين

الناس ، فهو يعاملك كما يعاملنى ، على قدم المساواة ! » ، فقالت : « انما احتمله أنا لأن واجبى يقتضينى الاحتمال ، ولا أرى ما يدعوك الى ذلك ! »

وخفض رامش صوته ، حتى لا يسمعه الخدم وهو يقول : « أحب أن أشاركك كل ما تضطرين الى احتماله ، عملا كان أو أى شىء آخر ! » .. فأثار قوله حمرة واهنة فى خديها ، وبدلا من أن تجيب ، تحولت جانبا ونادت : « أومش ،يحسن بك أن تلقى ملء دلو آخر من الماء فى هذه البقعة . ألا أنظر الى الغبار المتراكم.. ناولنى المكنسة » . وشرعت تكنس بقوة . وصاح رامش وقد ساءه أن تضنى بمثل هذه المهمة : « ما الذى تفعلين ؟ » ، فأجابه صوت من خلفه : « عجبا يا رامش بابو .. أى ضرر فى العمل ؟ .. انكم معشر الذين تلقوا ثقافة انجليزية، تتشدقون بالحديث عن المساواة . واذا كنت ترى الكنس عملا مزريا ، فلماذا تكلف به الخادم ؟ .. اننى لم أصب ما أصبت أنت من تعليم ، ولكنك لو سألتنى رأيى لقلت لك أن كل قشة تتحول فى نظرى الى شعاع من الشمس ، كلما رأيت امرأة فاضلة تمسك بمكنسة ! » .. ثم التفت الى كمالا قائلا : « لقد أوشكت أن أفرغ من اصلاح حديقتك يا عزيزتى ، فعليك الآن أن تعينى لى أحواض الخضر » .. فقالت وهى ماضية فى عملها : « لحظة واحدة من فضلك يا عماه ، فاننى لم أفرغ بعد من هذه الحجرة » . واذ انتهت من تنظيف الحجرة، رفعت القناع الذى كانت تضعه على وجهها وتربط طرفيه الى وسطها ، ثم انهمكت فى الحديث مع « العم » عن مواقع أحواض الخضر .

وانقضى النهار سراعا ، ومع ذلك فان البيت لم يستكمل النظافة التى ترضى عنها كمالا . فما كان من السهل ازالة آثار الاهمال الطويل ، ومن ثم فقد كانت لا تزال ثمة غرف لا سبيل الى تعميرها دون تنظيف وتهوية . ومن ثم لم يجد رامش وكمالا بدا من قضاء ليلة أخرى فى دار « العم » ، الأمر الذى ساءهما . فقد كان الشاب يصبو الى أن توافيهما أولى ساعات المساء وهما فى دارهما الصغيرة ، وكان يرى بعين الخيال كمالا تبتسم فى استحياء وهى الى جواره ، تحت ضوء المصباح ، وقد راح يفضى اليها بما فى فؤاده . ولما رأى أنه ما تزال أمامهما ثلاثة أيام أو أربعة ، لم يشأ أن يرجىء قيد اسمه فى محاكم الاقليم ، ومن ثم رحل الى (الله آباد) لهذه الغاية ، فى اليوم التالى

الفصل الخامس والثلاثون

ورحل العم كذلك الى (الله آباد) بعد يوم أو اثنين ، كى يزور ابنته الكبرى « بيدو » . وفى صباح يوم رحيله ، دعت كمالا صديقتها سايلاجا الى

تناول الغداء معها فى البيت الجديد ، فلحقت بها الفتاة بعد أن قدمت لبيبين فطوره ، وودعته عند انطلاقه الى المدينة ٠ وانهمكت الصديقتان فى العمل ٠ وبمساعدة « أومش » أعدتا الغداء بجوار الشجرة الضخمة ، ثم جلستا تحتها تتحدثان بقية نهارهما ٠ وبدا ـ لكمالا ـ النسيم العليل ، وأشعة الشمس التى خففت ظلال الشجرة من حدتها ، أروع اطار أحاط بحديثهما ٠ وقبيل العصر ، تأهبت سايلاجا للانصراف ، اذ كان زوجها وشيك العودة من عمله ، فسألتها كمالا : « ألا تستطيعين أن تتحولى عن عادتك هذه مرة ؟ » ٠٠ ولكن سايلاجا اكتفت بالابتسام ، وهزت رأسها وهى تداعب ذقن كمالا ٠ وقبل أن تنصرف ألحت على كمالا بأن تعود الى دار « العم » قبل أن يهبط الظلام ٠

وما لبثت كمالا أن فرغت من العمل والشمس لا تزال عالية فوق الأفق ، فأحكمت شالا حول رأسها وكتفيها ، واستقرت تحت الشجرة الكبيرة ، تتأمل الشمس فى انحدارها للمغيب خلف ضفة النهر ، حيث كانت ترسو بضعةقوارب للصيد ، وقلاعها ما تزال تشرئب نحو السماء ٠ وأقبل « أومش » ينبهها الى أن الغسق يقترب ، فهبت واقفة ٠ وقال الصبى : « لقد أرسل العم تشاكرابارتى عربة لتقلك » ٠٠ فولجت الدار تلقى نظرة أخيرة قبل أن تغادرها ٠ وكانت فى القاعة الكبرى مدفأة على الطراز الانجليزى ، يمكن ايقاد النار بها للاستدفاء فى الشتاء ٠ وعلى الرف الذى يعلوها ، كان ثمة مصباح بترولى مشتعلا ٠ ولمحت كمالا وهى تهم بالانصراف ، ورقة على حافة المدفأة تحمل اسمها بخط رامش ، فسألت أومش : « من أين هذه الورقة ؟ » ، فقال الصبى : « كانت ملقاة فى ركن من حجرة السيد ، فالتقطتها عندما كنت أكنس الأرض » ٠ وتناولت كمالا الورقة وشرعت تقرأها ، فاذا بها الخطاب الذى كان رامش قد أفضى فيه الى



همنالينى بكل ما فى صدره ٠٠ ولابد أنه أسقطه باهماله العجيب ! ٠٠ وقرأت كمالا الخطاب بامعان ٠ وأخيرا سألها « أومش » : « لم تقفين هكذا صامتة يا أماه ؟ ٠٠ ان الظلام يشتد ! » ٠٠ وكان المرء خليقا بأن يسمع رنين الدبوس لفرط السكون ! ٠٠ وأفزع شكل كمالا الصبى ، فهتف : « ألا تسمعيننى يا أماه ؟ ٠٠ يجب أن ننصرف ، فقد تأخرنا » ٠٠ ولكنها لم تحر حراكا ، حتى أقبل خدم « العم » ينبئونها بأن العربة قد طال انتظارها !

الفصل السادس والثلاثون

◆ قالت سايلاجا لكمالا حين عادت هذه الى الدار : « ألست بخير اليوم يا عزيزتى ؟٠٠ هل تعانين صداعا ؟ » ٠٠ فأجابت كمالا : « لا ، أنا بخير ٠٠ أين العم ؟ » ٠٠ قالت الأولى : « لقد أوفدته أمى الى (الله آباد) ليزور أختى ، اذ ان صحتها لم تكن على ما يرام فى الفترة الأخيرة » ٠ وعادت كمالا تتساءل : « ومتى يعود ؟ » ، فأجابت صاحبتها : « سيغيب أسبوعا على الأقل ٠ لقد أسرفت فى انهاك قواك بالعمل فى بيتك طوال اليوم يا عزيزتى ، فأنت تلوحين جد متعبة ٠ ألا تناولى عشاءك مبكرة ، ثم اسرعى الى فراشك » ٠ وكان أشد ما يخفف عن كمالا ـ فى تلك الضائقة ـ ان تركن الى سايلاجا ، وتفضى اليها بأمرها ، ولكنهـا شعرت بأن هذا مستحيل ٠ فما كان ليغريهـا شىء على أن تعترف ـ ولسايلاجا بالذات ـ بأن الرجل الذى كانت تعتقده زوجها ، لم يكن زوجها قط !٠٠ ومن ثم احتبست نفسها فى غرفتها ، وعادت تقرأ خطاب رامش على ضوء مصباحها ٠ ولم يكن فى الخطاب أثر لاسم أو مكان المرسل اليه ، ولكن ما ورد فى الرسالة نم بجلاء عن انها كانت موجهة الى امرأة ، وان هذه المرأة كانت مخطوبة لرامش ، وان علاقة الشاب بكمالا أدت الى فصم هذه الخطبة ، ثم ان رامش لم يخف فى رسالته انه كان يحب تلك المرأة بجماع قلبـه ، وانه ما فسخ علاقتهما الا من أجل تلك البائسة كمـالا ، التى ارتبط حظها بحظـه بطريقة عجيبـة ! ٠٠ وأخـذت كمـالا تذكر كل صـغيرة من حياتها مع رامش ، منذ لقائهما الأول على شاطىء الجزيرة الرملية حتى وصـولهما الى (غازيبور) ، فاذا ما كان يبدو لها مبهما ، يتجلى بوضوح ٠ لقد أدرك رامش منذ البداية انها لم تكن زوجته ، وكان يرهق فكره بحثا عن وسـيلة للخلاص منها ، فى حين أنها حسبته ، بكل اطمئنان ، زوجها ، وكانت تتأهب ـ دون ما حياء ـ لأن تستقر معه فى معاشرة تمتد بامتداد العمر !٠٠ ونفذ الخزى الى قلبها وكأنه خنجر ، وتمنت ـ اذ عاودتها الأحداث العديدة التى جرت بينهما ـ

ان تنشق الأرض فتبتلعها • لسوف يعلق بها العار طوال عمرها •• لامفر من وصمته !

وفتحت الباب فى لهفة ، وانطلقت الى الحديقة الخلفية للمنزل • كانت سماء الشتاء المعتمة تخيم فوقها كأنها قبة من رخام أسود ، لا تشوبها قطعة من السحاب أو الضباب ، بينما كانت النجوم ترصعها متلألئة ، وفروع احدى أشجار المانجو تقوم كشبح فى الظلام • ولم يتفتح أمام بصيرة « كمالا » مهرب من تعاستها هذه ، فتهالكت على الحشائش الندية ، وجلست كتمثال جامد ، دون ان تذرف دمعة ، أو تطلق زفرة !•• ولم تفطن الى مرور الزمن ، ولكن البرد ما لبث ان تسلل شيئا فشيئا الى قلبها ، فارتجفت جوانحها • وعندما بدد القمر الظلام فى النهاية ، وبدا خلف أشجار النخيل الساكنة ، نهضت فى بطء وآبت الى غرفتها ، فأوصدت الباب خلفها • وعندما فتحت عينيها فى الصباح ، رأت « سايلاجا » تنتصب الى جوار سريرها ، فهبت لفورها ، وقد أخجلها أن تتأخر فى نومها • وقالت « سايلاجا » : « لا تنهضى يا عزيزتى ، بل خير لك أن تعودى الى النوم فترة أخرى ، فأنت لا تلوحين فى صحة جيدة • انك تبدوين منهوكة القوى ، وهناك هالات داكنة تحيط بعينيك • ألا انبئينى يا عزيزتى بما بك ؟ »•

وجلست الى جوارها ، ثم طوقت عنقها بذراعيها ، فراح صدر كمالا يتهدج بقوة ، ولم تستطع أن تكبح دموعها ، فأخفت وجهها فى صدر سايلاجا وانطلقت تجهش بالبكاء ، والشابة تضمها اليها دون أن تحاول مواساتها • وما لبثت كمالا أن تملصت من عناق سايلاجا أخيرا ، فمسحت دمعها ، وبدأت تضحك فى خجل • فقالت سايلاجا : « كفى ، كفى ! •• انك اكثر من عرفت من الفتيات تكتما ، ولكن لا تظنى اننى لا أعرف فيم كل هذا الحزن ، فلست من السذاجة الى هذا الحد !•• أأنبئك به ؟•• ان رامش بابو لم يكتب لك خطابا واحدا منذ رحيله الى (الله آباد) ، ولذلك فأنت مستاءة ، وان كانت كبرياؤك تمنعك من الجهر بهذا الاستياء • على انك خليقة بأن تذكرى ان لديه مشاغل كثيرة ، وانه عائد بعد يومين ، ومن ثم ينبغى ان لا يحزنك انه لا يجد وقتا للكتابة ، خاصة وانك تعلمين أنه لن يغيب طويلا • يا لك من حمقاء !•• ولكن ،أتعرفين ياعزيزتى اننى ، رغم نصحى لك ، ما كنت لأفعل الا ما تفعلين ، لو كنت فى مكانك ؟•• ان النساء يبكين للتوافه !•• ولكن ، ما ان تشبعى بكاء وتعودى الى الابتسام ، حتى تنسى كل شىء ! » •• وضمت كمالا الى صدرها ، وهى تستأنف قولها : « ما أحسبك الا تشعرين بأنك لن تصفحى أبدا عن رامش بابو •• أليس كذلك؟» •• قالت كمالا : « أجل •• هذا حق ! » •• فربتت سايلاجا خدها قائلة : « هكذا حدست ، ولكنا سنرى ! »

وفى ذلك اليوم نفسه ، أرسلت سايلاجا خطابا الى أبيها فى (الله آباد)

تكاشفه فيه بحزن كمالا لأن رامش لم يكتب اليهـــا ، فبادر « العم » الى لقاء رامش ، وقرأ عليه طرفا من خطاب ابنته ، ثم ألقى عليه محاضرة قاسية • وما كان صمت رامش راجعا فى الحقيقة الى عدم اكتراث منه بكمـــالا ، وانما لأن حيرته كانت تتضاعف كلما ازداد تفكيرا فى الموقف • لم يكن اهمالا ، وانما كان حيرة ! وقد دعته هذه الحيرة الى أن يتلكأ فى (الله آباد) • ثم جاء خطـــاب سايلاجا، فأشعره بأن كمالاكانت تفتقده فىأسى ، وان منعها الحياء من أن تكتب اليه • ولما كان رامش قد بلغ مفترق الطرق ، فقد اختار الطريق التى يحسن به أن يسلكها ، مهتديا بحب كمالا له ، قبل أن يهتدى بتفكيره فى سعادته !•• ان القدر لم يربط حياتيهما معا فحسب ، بل انه ربط بين قلبيهما يوم جمعهما على شاطىء الجزيرة الرملية النائية • ومن ثم عكف لفوره على كتابة الرســـالة التالية لكمالا :

« يا حبيبتى : لا تظنى اننى أستعمل هذا النداء جريا مع العرف يا كمالا ، فما كنت لأدعوك « حبيبتى » لو لم تكونى بالفعل أحب شخص فى الدنيا لدى• فاذا كانت قد خالجتك أية شكوك •• اذا كنت قد جرحت شعورك يوما ، فدعى ندائى المخلص لك : « يا حبيبتى » ، يبدد الشكوك ، ويداوى آلام الجراح الى الأبد !

« وما الداعى للاطالة فى هذا ؟ •• ان كثيرا من تصرفـــاتى فى الماضى قد آلمتك ، واذا كنت قد أدنتنى ـ فى فؤادك ـ لهذا ، فليس فى وسعى أن أدافع عن نفسى • كل ما أملك هو أن أردد أنك « حبيبتى » ، وان ليس فى الوجود من أكن له ما أكن لك من عاطفة • وقد لا يكون هذا دفاعا كاملا يشفع لما شـــاب مسلكى ، ولكنه ـ على أية حال ـ كل ما أملك أن أتشفع به • ومن ثم فاننى اذ ادعوك يا « حبيبتى » ، انما أمحو كل ماضينا الموبوء بالشك ، لنرسى معا أسس حبنا المقبل ! •• صدقينى اذا قلت أننى لا أفكر فى مخلوق ســواك ، فليس سواك ، وسواك فقط ، « حبيبتى » ! •• فاذا ما آمنت بهـــذا ، آن لشكوكك وهواجسك أن تهجع • وخليق بى أن أسألك بعد هذا عما اذا كنت قد كسبت حبك أم لم أكسبه ، ولكنى لا أجرؤ على هذا الســؤال •• فان الحب لا يقبل سؤالا ! •• ولست أشك لحظة فى أننى سأعرف الجواب يوما •• بغير كلمات ! •• وانما سيحدث قلب الواحد منا قلب الآخر •• وما يؤكد لى هذا غير حبى لك ! ولست أزعم أننى أهل لك ، ولكننى أشعر بأن هيامى بك لايمكن أن يكون بغير جدوى أو مقابل !

« اننى لألمس أن هذا الخطاب يبدو كموضوع انشائى منمق ، ولهذا تساورنى الرغبة فى أن أمزقه ، ولكن من المستحيل على أن أكتب خطابا يعبر أصدق تعبير عن مشاعرى • على أن الخطابات أشياء يجب أن يتبادلها أى شخصين مترابطين •

وفى أول خطاب يعز على الكاتب أن يعبر تعبيرا صادقا عن مشاعره · ولكننى ـ اذا ما انسجم عقلانا ـ سأملك أن أكتب لك خطابات صادقة التعبير ·· فان تيار الهواء لا يجرى فى غرفة ، الا اذا فتح فيها بابان متقابلان !! ·· فمتى أعثر على باب قلبك يا حبيبتى كمالا ؟ ! ·· اننى واثق من أن هذا لن يلبث أن يتحقق مع مرور الأيام ، وان التعجل يفسد الغاية · سأصل الى (غازيبور) فى صباح اليوم التالى لتسلمك هذه الرسالة · وأرجو أن أجدك فى بيتنا عند وصولى · لقد ظللنا طويلا بلا بيت ، ولم أعد أحتمل هذا اللون من الحياة ·· فلقد آن لى أخيرا أن أتطلع الى اللحظة التى أعبر فيها عتبة بيتنا ، فأرى مليكة قلبى ، وربة دارى · ستكون هذه اللحظة « أول لقاء ثان » لنا !

« أو تذكرين « أول لقاء لنـــا » ·· فى تلك الليلة المقمـــرة ، على ضفة النهر ، فى الجزيرة الرملية المنعزلة · كنا تحت قبة السماء ، وليس فوق رأسينا سقف ، ولا ما يشبه السقف ، وليس من آباء ولا أهل يحتفلون بزفافنا ؟ ! ·· ان قصتنا لا تبدو واقعية لى ·· انها كحلم ! ·· ومن ثم فاننى أتوق الى زفاف آخر ، على ضوء الصباح الهادىء ، الباهر ، بين جدران أربعة ، وفى الحقيقـة الواقعة · ان وجهك الصبوح ، وسط اطار من مدخل بيتنا ، سيظــل دائما متربعا على عرش ذاكرتى · انها الصورة التى أتوق الى أن أراها فى الواقع · اننى تائب أقف عند عتبـــات قلبـك يا حبيبتى ·· فلا تردينى خائبا ! ·· المخلص : رامش »

الفصل السابع والثلاثون

◆ قالت سايلاجا فى اليوم التالى ، تحاول أن تنتشل كمالا من وجومها : « ألست ذاهبة الى دارك ؟ » ·· فأجابتها : « لا ·· لم يبق ما أفعله هناك !» · قالت سايلاجا : « هل أعددت كل الغرف ؟ » · فردت كمالا قائلة : « أجل ·· فرغت منها جميعا » · وغابت سايلاجا عنها فترة ، ثم عادت فبادرتها قائلة : « ما الذى تعطينيه اذا أسلمتك شيئا ؟ » ·· قالت كمالا : « ليس لدى ما أمنحه يا ديدى ! » (و « ديدى » تقابل « أبلـــة » أو « أختى الكبرى ») ·· فقالت سايلاجا : « لا شىء مطلقا ؟ » ·· « لا شىء مطلقا ! » ·· اذ ذاك قرصت سايلاجا خدها مداعبة وقالت : « أهكذا ؟ ! ·· لا بد أنك أعطيت كل ما عندك شخصا معينا كى يصونه لك ! ·· ما قولك فى هذا ؟ ·· وتنـاولت من طيـات مئزرها خطابا أخذت تلوح به ، فشحب وجه « كمالا » اذ رأت خط « رامش » على الغلاف ، وهمت بأن تشيح عنه ، لولا أن قالت سايلاجا : « حسبك ! ·· لقد أظهرت من كبريائك هذه ما فيه الكفاية ، فكفى عنها · انى لأوقن من أنك

تتلهفين شوقا الى أن تختطفى هذه الرسالة منى ، ولكنى لن أعطيك اياها الا اذا طلبتها فى أدب • وسنرى كم يطول تمنعك ! » •• وفى تلك اللحظة أقبلت « أومى » على الحجرة صائحة : « خالتى ! خالتى ! » ، وهى تجر علبة من علب الصابون خلفها كأنها عربة ، فما كان من كمالا الا أن اختطفت الطفلة فضمتها الى صدرها ، وأخذت تغمرها بالقبلات • ورفعت « أومى » عقيرتها بالبكاء احتجاجا على اقصائها عن لعبتها ، ولكن كمالا أبت أن تفلتها ، بل أسرعت بها الى غرفتها الخاصة ، وهى تحاول اسكاتها بعبارات التدليل • وتبعتهما سايلاجا صائحة : « غلبت على أمرى ! •• كفى يا كمالا ! •• اليك الخطاب ! •• لن أقسو عليك مرة أخرى ! » •• وألقت بالخطاب على السرير ، ثم أنقذت « أومى » من قبضة كمالا ، وأسرعت بها الى خارج الغرفة • وتناولت كمالا الخطاب فقلبته بين يديها ، ثم فضته وشرعت تقرأ ما جاء به ، ولكنها لم تكد تلقى أول نظرة عليه ، حتى تولاها الغضب ، فرمت الخطاب بعيدا •• ثم غالبت ثورتها واشمئزازها ، والتقطته مرة أخرى فقرأته بأكمله !

وسواء اكانت قد فهمت كل ما جاء به أو لم تفهمه ، فهذا أمر لايمكن التكهن به ، ولكنها أحست كأنها تمسك شيئا قذرا بين يديها ، فعادت تلقى به بعيدا • كان ينطوى على دعوة لأن تكون زوجة لرجل ليس بزوجها ! •• كيف جرؤ رامش على أن يقذفها بهذه الاهانة وهو العليم بكل الحقائق • اذا كان قلبها قد مال اليه بعد وصولهما الى (غازيبور) ، فهل دار بخلده أن ذلك كان راجعا الى أنه رامش بالذات ، وليس لأنها كانت تعتقد أنه زوجها ؟ •• لقد تسرع رامش وأساء الظن ، فترك الشفقة على وحيدة تعسة مثلها تدفعه الى أن يكتب اليها رسالة غرامية • كيف تمحو الايحاء الخاطىء الذى فهمه من مسلكها ؟ •• كأنما قدر عليها أن يكون نصيبها من الحياة هو الخزى والاشمئزاز ، رغم أنها لم تجرم فى حق أحد منذ وفدت على هذه الدنيا ! •• وتمثل لها « البيت » ــ الذى كانت تصبو اليه ــ كوحش رهيب يهم بابتلاعها ، فتلفتت حولها فى قنوط تبحث عن مفر • وما كان ليخطر ببالها ــ منذ يومين فقط ــ أن رامش قد يبدى كل هذه الفظاعة نحوها !

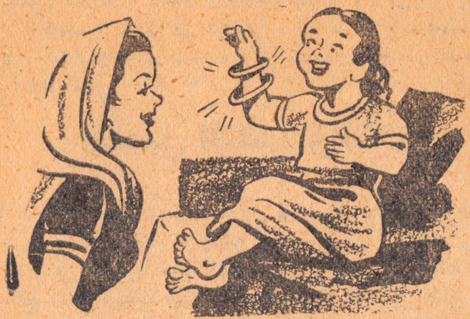
★ ★ ★

◆ وقطع عليها أفكارها سعال من « أومش » ، فاذا به لدى الباب • واذ لم تلتفت اليه ، هتف فى لطف : « أماه ! » •• فسعت الى الباب ، واذ ذاك ، قال وهو يحك رأسه : « لقد أحضرت أسرة سيدو بابو فرقة تمثيلية من كلكتا بمناسبة زفاف ابنتهم » •• فبادرت قائلة : « حسنا ، تستطيع أن تذهب لتشاهد التمثيل » •• قال : « وأى نوع من الزهور تحبين أن أحضر اليك فى الصباح ؟ » ، فأجابت : « لا داعى لأية زهور » •• و هم بأن ينطلق ، لولا أن

نادته قائلة : « مهلا يا أومش ٠٠ ما دمت ذاهبا لمشاهدة التمثيل، فهاك خمس روبيات ! » ٠ وبهت الصبى ، فان النظارة فى مثل هذه المناسبات لا يدفعون شيئا ٠ ومن ثم سألها : « أتريدين أن أبتاع لك شيئا من المدينة يا أماه ؟ » ، فقالت كمالا : « لا ، لا أريد شيئا ٠ وفر النقود ، فسوف تحتاج اليها » ٠ وهم الصبى بأن ينصرف وقد تولته الدهشة ، ولكنها نادته ثانية وقالت له : « ما الذى يقوله الناس اذا رأوك بهذه الثياب ؟ » ٠٠ وما خطر لأومش يوما أن الناس يتوقعون منه أن يبدو فى ثياب أفضل من تلك ٠٠ وما كان ليحفل بما حرم من أناقة ، ومن ثم فانه لم يتمالك أن ابتسم لقول « كمالا » ، بينما أخرجت قطعتين من ثيابها الخاصة ، وطوحت بهما اليه ٠ وكانتا قطعتين من الثيـاب الفضفاضة التى تصلح للذكور وللاناث ، كل حسب الطريقة التى يرتديها بها ٠ وكانت لهما حواف مزركشة ، مما أبهج « أومش » ٠ وألقى بنفسه على قدمى كمالا فى خضوع وعرفان ، ثم التقط الثوبين وخرج ٠

ومسحت كمالا دمعة انحدرت من عينها ، ووقفت الى جوار النافذة ٠ وما لبثت أن أقبلت سايلاجا قائلة : « ألن تريننى خطابك يا عزيزتى كمالا ؟ » ٠٠ كانت لا تكتم عن كمالا سرا ، مما جعلها تجرؤ على أن توجه اليها مثل هذا السؤال ٠ فقالت كمالا وهى تشير الى الخطاب الملقى على الأرض : « ها هو ذا يا ديدى ٠٠ اقرئيه » ٠٠ فقالت سايلاجا لنفسها فى دهشة ، وهى تلتقط الخطاب وتقرأه عن آخره : « انها لم تغالب بعد كبرياءها ! » ٠٠ كان خطابا زاخرا بالعاطفة ، بلا شك ، ولكن ٠٠ ما أغرب أن يكتب رجل مثل هذا الخطاب لزوجته ! ٠٠ كان أسلوبه غريبا ! ٠٠ فقالت سايلاجا : « هل يؤلف زوجك روايات يا عزيزتى ؟ » ٠٠ وأجفلت « كمالا » ــ وهى مهمومة ــ من كلمة « زوجك » ، وقالت : « لست أدرى » ٠٠ قالت سايلاجا : « حسنا ٠٠ ألست ذاهبة الى البيت الجديد اليوم ؟»

وهزت كمالا رأسها مجيبة بالايجاب ، وعندئذ قالت صاحبتها : « وددت أن أقضى النهار كله معك هناك ، ولكنك تعرفين يا عزيزتى أن لابد لى من أن أحضر استقبال العروس فى بيت نارسينغ بابو » ، فقالت كمالا : « لا بأس ٠٠ ان الخدم هناك ! » ٠٠ وكانت « أومى » فى تلك الأثناء قد عثرت على قلم رصاص، فانهمكت فى العبث به فى كل ما صادفت ٠ وجذبتها سايلاجا رغم صراخها ، ولكن «كمالا» اختطفتها منها ، وألقتها على سريرها وأخذت تلاعبها ، ثم تناولت من صندوقها سوارين رفيعين من الذهب ــ وكانا من أبدع ما رأته « أومى » من لعب ــ فلما أحاطت « الخالة » ساعدى الصبية بهما ، راحت هذه تهز ذراعيها وكل جسمها فى اعجاب وطرب ! ٠٠ وهرعت لتعرضهما على أمها ٠ وما أن فطنت سايلاجا ، حتى انتزعت السوارين لتردهما الى صاحبتهـا قائلة : « ما الذى جـرى لعقلك يا كمالا ؟ » ٠٠ قالت كمالا : « لقد قدمتهما هدية لأومى ! » ٠٠ فصاحت



سايلاجا : « هل جننت ؟ » .. ولكن كمالا قالت : « أتحـداك أن ترديهما يا ديدى ! » .. قالت الشابة وهى تطوق عنق كمالا : « لعمرى ، ما رأيت مجنونة مثلك ! » .. بينما قالت هذه : « لابد من أن أودعك اليوم يا ديدى .. لقد كنت جد سعيدة بالاقامةهنا ، بل ماحظيت بمثل هذه السعادة فى حياتى!».
وانسابت الدموع من مقلتيها ، فلم تقو سايلاجا على كبح دموعها هى الاخرى ، وقالت : « لا تتكلمى بهذه اللهجـة ، وكأنك راحلة بعيدا .. ما أظنك كنت سعيدة حقا هنا ، وانما ستعرفين السعادة الحقة حين تنتقلين الى بيت لا يشاركك فيه غير زوجك . ولسوف نزورك من آن لآخر ، وان كنت أعرف أنك ستقولين اذا ما أدرنا ظهورنا منصرفين : « الشكر للسماء ، لقد انصرفوا أخيرا ! »

وعندما آن لكمالا أن ترحل الى البيت الجديد بعد أن ودعت القـوم ، قالت سايلاجا : « سآتى لزيارتك ظهر غد » ، ولكن كمالا لم ترحب .. ولم ترفض . وعند وصولها الى البيت ، وجدت « أومش » هناك ، فهتفت فى عجب : « اذن فأنت هنا .. ظننتك ذهبت لتشهد التمثيل » . فقال الصبى : « كنت ذاهبا ، ولكنك كنت قادمة الى هنا ... » ، فصاحت : « لا تشغل بى ، اذهب وتفرج على التمثيل . ان بيشان هنا ، فأسرع والا تأخرت » . وانصرف أومش وقد اطمأن الى وجود « بيشان » ، الخادم الآخر ، ولكن كمالا نادته ثانية قائلة : « اسمع .. اذا جاء العم .. » ، ثم أمسكت ، وقد عجزت عن اتمام عبارتها . وحملق فيها أومش فى دهشة . ولكنها ما لبثت أن عادت تقول : « تذكر أن العم صديق حميم ، فاذا شئت أى شىء فاذهب اليه ، وسله ما تشاء واستحلفه بحبى ، تجده يلبى رغبتك . ولا تنس أن تبلغه حبى ! » .. فانطلق أومش وهو فى حيرة ، لا يفقه من أمرها شيئا .

وعند الأصيل ، رآها « بيشان » خارجة فسألها : « الى أين يا سيدتى ؟ »٠ فأجابت : « سأذهب لأغتسل فى الجانجز » ٠٠ قال : « أأرافقك ؟ » ، ولكنها قالت : « لا ، امكث واحرس الدار » ، ثم منحته روبية لغير ما سبب واضح ، وسارت فى اتجاه النهر

الفصل الثامن والثلاثون

◆ صعد « أنادا بابو » عصر ذات يوم الى غرفة همنالينى ، طامعا فى أن يتناول الشاى معها على انفراد ٠ ولكنه لم يجدها فى غرفتها ، ولا فى قاعة الجلوس ، وعلم من حارس الباب أنها لم تبرح البيت ٠ وخالجه قلق مبهم ، فصعد الى سطح الدار ليبحث عنها ، فاذا السقوف تمتد الى أقصى مرامى البصر ، وقد أرسلت عليها شمس الشتاء الذابلة ضوءا شاحبا ٠ وأخذت نسائم المساء المبكرة ، تهب تباعا ٠ ووجد الرجل ابنته غارقة فى أفكارها ، فى ظلال «المنور» المقام على رأس السلم ، فسار اليها ، ثم وقف خلفها ، ولكنها لم تبد أى شعور بوجوده ٠ واقترب منها – فى النهاية – فمس كتفيها ، واذذاك أجفلت مذعورة، ثم تضرج وجهها واعتراها ارتباك ٠ وبادر جالسا الى جوارها قبل أن تهم بالنهوض ، ثم تنهد فى أسى وقال : « أواه ، يا هيم ! ٠٠ ليت أمك كانت على قيد الحياة ! ٠٠ انها كانت أكثر منى نفعا لك ! » ٠٠ وكانت هذه الصيحة الآسية من الرجل كفيلة بأن توقظ همنالينى من شرودها ،لتتأمل وجه أبيها٠٠ آه ، يا للحب ، والعطف ، والألم ، التى لمحتها فى ذلك الوجه ! ٠٠ كان ثمة تغير حزين قد ران على ذلك الوجه فى الأيام الأخيرة ٠ كان الأب الكهل هو الذى تحمل العاصفة التى دهمت ابنته ، فلم يدخر جهدا فى تبديد غيوم الأسى عنها ، حتى اذا تبين أن جهوده لم تثمر ، أخذت أفكاره تتجه الى أم الفتاة ٠ ومن ثم كانت تلك الصيحة التى انبعثت من أعماق فؤاده، فنبهت همنالينى ،وانتزعتها من استغراقها فى أحزانها ٠٠ فاذا الدنيا التى كانت تبدو لها حلما ، تقفز فجأة الى الواقع ، واذا الشعور بالخزى يغمرها ، لأنانيتها ! ٠٠ وفى جهد وعزم ، نفضت عنها شباك الذكريات التى كانت تتخبط فى أسارها ، وتساءلت : « كيف أنت اليوم يا أبت ؟ » ٠٠ أتسأله عن صحته ! ٠٠ لقد نسى « أنادا بابو » فى الأيام الأخيرة ان الصحة أهل لأن تكون موضوعا للحديث ، فقال : « كيف أنا ؟ ٠٠ ان جسدى لا يعانى شيئا يا عزيزتى ٠٠ انما يزعجنى ويشغل بالى ما أراه باديا عليك من سقم فى هذه الأيام ٠ ان شيخا صلب العود مثلى ، يستطيع أن يحتمل ، ولكنى أخشى أن تكون الوطأة جد قاسية على شابة مثلك ! »

وربت كتفها فى حنان ، فقالت : « الا قل لى يا أبت .. كم كان عمرى حين ماتت أمى ؟ » . قال : « كنت فى الثالثة اذ ذاك ، وقد بدأت تتكلمين . وشد ما أذكر سؤالك اياى : « أين أمى ؟ » .. فكنت أجيب : « ذهبت الى أبيها ! » .. فان أباها كان قد مات قبل مولدك ، ولم تكونى تدركين المعنى الذى ينطوى عليه جوابى .. ولكنك كنت تظلين واقفة ترمقيننى فى وجوم .. ثم تمسكين بيدى ، وتجريننى الى غرفة أمك ، وكأنما كنت تخالين أننى قد أجد فيها ما يرشدنا الى مكان أمك .. كنت ترين أن أباك قادر على أن يفعل المعجزات ، وما خطر لك أن أباك يغدو أجهل وأعجز من الطفل ازاء المسائل التى تتعلق بالموت والحياة .. ولعلك الآن تشعرين بعجز أبيك ازاء محنتك ! .. ان الله وهبك أبا قادرا على حبك ، ولكنه عاجز عن مساعدتك ! » .. وأمسكت همنالينى بيد أبيها المرتعشة فراحت تتحسسها ، وقالت : « اننى لا أكاد أذكر أمى .. كل ما أذكره أنها كانت تستلقى عند الظهيرة ، وتستغرق فى القراءة ، فكنت أشد الكتاب من يديها » .. وهكذا راحا يتحدثان موغلين فى الماضى ، وأخذت همنالينى تمطر أبيها بالأسئلة عن شكل أمها ، وعاداتها ، والحياة العائلية فى تلك الأيام . وكان أبوها يجيبها قدر استطاعته . وأخذت الشمس تنحدر للمغيب ، فاستحال لون السماء الى لون النحاس الصدىء . وشملت سطح البيت سكينة وادعة ـ وسط الضوضاء التى كانت تنبعث من المدينة الكبيرة ـ فاذا هذه السكينة رباط جديد يعزز الود المتبادل بين الأب وابنته .. بين الكهل والشابة ! .. وظلا فى مجلسهما حتى خبا ضوء النهار ، وبدأ الطل الخفيف يسقط عليهما كالدموع !

★ ★ ★

◆ وفجأة ، انبعث وقع قدمى « جوجندرا » على السلم . وانقطع الحديث الخافت بين الأب وابنته فورا ، وقفزا معا واقفين . وقال « جوجندرا » وهو يتفرس فى وجهيهما : « يبدو أن هيم اتخذت من سطح الدار قاعة للجلوس فى هذه الأيام ! » . وكان شديد الاستياء للتطور الذى اتجهت اليه الأمور . فقد كانت ثمة سحابة من الأسى تخيم على البيت ليل نهار ، حتى أصبح يرى الحياة لا تطاق فى هذا البيت ، ولكنه مع ذلك لم يشعر بميل الى أن ينشد صحبة أخرى ، لأنه كان كلما زار بيوت الأصدقاء والمعارف ، ألفى نفسه مضطرا لأن يقدم الايضاحات لما حدث من فسخ خطبة همنالينى . وكان يقول لأبيه فى تلك المناسبات : « ان همنالينى تغالى فى الأسى بسبب هذا الأمر . وهذه نتيجة ترك الفتيات يقرأن الروايات الانجليزية . ان همنالينى ترى أن رامش هجرها ، فيجب أن يتحطم قلبها ، ومن ثم فهى تعمل على أن تحطم قلبها . انها فرصة فذة لشابة تقرأ الروايات كى تبين كيف تتأسى وتحتمل ما أصاب غرامها من غدر ! »

وفى هذه المرة سارع الاب الى القول : « لقد اخترت انا سطح البيت لأتحدث الى هيم فى هدوء ! » .. كان يرمى الى حماية ابنته من لذعات « جوجندرا » القاسية . ولكن هذه الكلمات لم توح الى الشاب بشىء سوى أن أبيه استدرج أخته الى سطح الدار ليجاذبها أطراف الحديث ، فقال : « أو ليس فى وسع المرء أن يتكلم على مائدة الشاى . انك تشجع هيم على حماقتها يا أبت . لسوف تضطراني معا الى أن أهجر الدار ! » .. وصاحت « همنالينى » اذ فطنت الى موعد الشاى : « أو لم تتناول الشاى بعد يا أبت ؟ » ، فقال « جوجندرا » : « ان الشاى ليس كخيال الشاعر ، والسماء لا تمطر شايا من شفق الشمس الآفلة .. ولا الأكواب قادرة على أن تملأ نفسها وتصعد اليكما فى جلستكما!» .. فبادر أنادا بابو قائلا : « ولكننى رأيت أن لا أتناول شايا اليوم » . فعقب جوجندرا قائلا : « ما هذا يا أبت ، هل أوشكت أن تصبح زاهدا ؟ » .. قال أنادا : « آه .. لا ، انها ليست مسألة زهد ، ولكننى لم أحظ بنوم طيب ليلة أمس ، ففكرت فى أن أجرب الامتناع عن الشاى ! ».

والحق أن شبح كوب الشاى كان يتراقص أمام بصر « أنادا بابو » أثناءحديثه مع همنالينى .. ولكنهما كانا قد انسجما فى الحديث ، وخرجت الفتاة عن وجومها ، فكانت أية حركة كفيلة بأن تحدث أثرا سيئا ، وأن تحمل الأفكار على أن تبادر الى الفرار ، كالغزال الخائف . على أن همنالينى لم تصدق أن أباها كان يعتزم جادا الامتناع عن « كيفه » المعتاد ، فهتفت به : « هيا يا أبت ، لابد لك من تناول الشاى » .. ونسى الرجل ما كان يشكوه من أرق ، وأسرع يرافقها . فلما دخل غرفة الجلوس بالطابق الأرضى ، ساءه أن يجد « اكشاى » متربعا فيها ، اذ كانت « هيم » قد استردت شيئا من حالها الطبيعية ، فكان منظر أكشاى خليقا بأن يحدث لديها انتكاسا . ولم تكن ثمة فرصة لانقاذ الموقف ، لأن الفتاة كانت قد ولجت الحجرة بالفعل . ونهض أكشاى لفوره ، قائلا : « يحسن بى أن أنصرف يا جوجن » . ولدهشة الجميع ، قالت همنالينى : « ماذا جرى يا أكشاى بابو ؟ .. أفى عجلة أنت ؟ .. تناول كوب شاى أولا ! » .. وعاد الى مجلسه قائلا : « لقد تناولت كوبين قبل مقدمك . على أننى قد أستطيع أن أتناول كوبا ثالثة ، اذا ألححت ! » .. فابتسمت همنالينى قائلة: « ستكون هذه أول مرة نضطر فيها الى الالحاح عليك ! » . وبدلا من أن يخجل ، بادر قائلا : « حقا .. ان عندى من الذوق ما يقينى أن أرفض الشىء الطيب !» . وقال جوجندرا : « وعلى هذا النسق نفسه ، ما أظن أن الشىء الطيب يرفض أن يذهب اليك اذا عرضت نفسك عليه !! »

ومرة أخرى ، عاد الحديث الى سابق عهده ، حول مائدة الشاى بدار « أنادا بابو » . ومع أن ضحك همنالينى لم يرق قط الى مرتبة القهقهة ، الا أنه فى

ذلك اليوم كان يعلو على الكلام بين آن وآخر ٠ وكانت تريد التسرية عن أبيها ، فقالت : « لقد نسى أكشاى بابو نفسه يا أبت ٠٠ انه في خير صحة رغم أنه لم يتناول شيئا من أقراصك منذ ايام ٠ ولو انها كانت ذات فائدة ، لشكا الآن من الصداع ! » ٠٠ فقال جوجندرا : « انه يخون أقراصه ! » ٠٠ وضحك أنادا بابو مغتبطا ، اذ رأى أسرته تعود الى تبادل الفكاهات حول أقراصه ، وأحس بأن هذه العلامة بشرى عودة الانسجام ٠ وما لبث أن قال : « انني أدرك ما تسيران اليه ٠٠ انكما تحاولان أن تزعزعا ثقة أكشاى ، فهو الوحيد الذى بقى لى من مدمنى أقراصي ! » ٠٠ فقال أكشاى : « لا تخش من هذا ، فلن يستطيعا أن يؤثرا في تحالفنا ! » ٠٠ وقال جوجندرا : « عجبا ، أيكون أكشاى كالروبية الرديئة ، اذا حاولت صرفها وقعت في المتاعب ؟ ! » ٠٠ وبدد الضحك غيوم الأسى عن مائدة الشاى ٠٠ وكان من الممكن أن يطول الحديث الفكه ، لولا أن استأذنت « همنالينى » فى الانصراف لتعنى بشعرها ٠ واذ ذاك ، حلا لأكشاى أن يتذكر أنه على موعد ، فانصرف هو الآخر !

★ ★ ★

◆ وما أن خلا جوجندرا الى أبيه ، حتى قال له : « ما ينبغى أن ننتظر الى ما بعد هذا يا أبت ٠٠ يجب أن نزوج همنالينى ! » ٠٠ فحدق فيه أنادا بابو بامعان ، بينما استطرد الشاب : « ان الأقاويل تتناثر حول انفصام خطبتها لرامش ، وليس بوسعى أن أظل أكافح بمفردى ٠ ولو أننى كنت في وضع يمكننى من الجهر بالحقيقة كلها ، لما حفلت بشىء ، ولكننى لا أبيح لنفسى الكلام اكراما لهيم ٠ فأنا أناضل وفمى مغلق ٠ وانك لتعلم اننى منذ أيام اضطررت الى أن أتشاجر مع « أخيل » اذ سمعته يتمادى فى كلامه ٠ ولو أننا استطعنا أن نزوجها فى القريب ، لانقطعت الأقاويل ، ولما اضطررت الى أن أقوم فى كل مكان بدور البطل الوحيد ، فأشمر عن ساعدى وأتحدى الـدنيا ! » ٠ قال أنادا : « ولكن ، لمن نزوجها ياجوجن ؟ » ، فأجاب الشاب : « هنـاك شخص وحيد ، من المتعذر أن نجد سواه بعد الذى حدث ، وبعد الشائعات المنتشرة ٠ هناك اكشاى المسكين ٠٠ سله أن يتناول قرصا من حبوبك ، فيبادر الى تناوله! وكذلك ، أطلب اليه أن يتزوج ، فسرعان ما يتزوج ! » ٠٠ فهتف أنادا : « أمجنون أنت يا جوجن ؟ ٠٠ أتظن أن هيم تقبل الزواج من أكشاى ؟ » ٠٠ ولكن الشاب قال : « سأعمل للحصول على موافقتها ، اذا أنت لم تتدخل ! »٠٠ فصاح الأب : « لا ، يا جوجن ، لا ٠٠ لن أسمح لك بأن ترهق هيم لاغرائها ، فان هذا لن يؤدى الا الى ازعاجها واثقالها بالأسى ٠٠ دعها وشأنها فترة من الزمن ، فان المسكينة تجتاز تجربة مضنية ، وما ينبغى أن نتعجل زواجها ! » ، فقال جوجن : « اننى لن أحاول أن أضغط عليها ، بل سأبذل كل جهد لكى

أكون معتدلا ، متلطفا معها .. أتظنني لا أجيد الحديث معها الا اذا تشاجرنا ؟ »
ولم ينتظر « جوجندرا » ، بل سارع الى همنالينى بمجرد فراغها من العناية بشعرها ، وخروجها من غرفتها . وقال : « هيم .. أحب أن أحدثك في أمر » .. وتسارعت دقات قلبها لكلماته ، وتبعته متثاقلة الى غرفة الجلوس ، ثم جلست تنتظر حديثه ، فقال : « ألم تلاحظى ما يبدو على أبينا من سوء صحة ؟ » .. ولم تقل شيئا ، ولكن محياها وشى بالقلق الذى داخلها . وعاد جوجندرا يقول: « ألا صدقيني اذا قلت انه سيصاب بمرض خطير ، ما لم نتداركه ! » .. ونمت لهجته عن أنه يحملها مسئولية ما آلت اليه صحة أبيهما ، فغضت بصرها ، وأخذت تعبث بطرف ثوبها ، بينما استطرد جوجندرا : « ان ما فات قد فات ، وكلما طال أساك على الماضى ، ازداد حزننا ، فاذا شئت أن تعيدى الى أبينـــا راحة باله ، وجب أن تمحى كل أثر لتلك المسألة غير الموفقة ! » .. وترقب ردها ، وعيناه لا تبرحان وجهها . وأجابت هيم فى ارتباك : « لا حاجة بك الى أن تخشى أن أزعج أبى بالحديث عنها » .. فقال : « أعرف أنك لا تحدثينه عنها، ولكن هذا لا يكفى لعقل ألسنة الناس ! » .. فتساءلت : «وماذا أفعل اذن؟» .. أجاب : « هناك وسيلة واحدة لوقف الأقاويل »
وأدركت همنالينى ما كان يرمى اليه ، فسارعت قائلة : « ألا يحسن أن نصحب أبانا الى الريف ، ليروح عن نفسه ؟ .. سنمكث هناك ثلاثة أشهر أو أربعة ، ولسوف يموت كلام الناس فى هذه الأثناء ! » .. ولكنه قال : « ليس هذا بعلاج شاف . يجب أن تقنعى أبانا بأن بالك قد اســـترد سكينته » . وأخذت تمسح - فى عجلة - الدموع التى انسابت من عينيها ، وتساءلت : « وما الذى تريدنى على أن أفعله ؟ » .. قال : « اننى أدرك أن الحل لا يسرك ، ولكنك اذا شئت أن تبعثى الهناءة فى كل قلب ، يجب أن تتزوجى فى الحال ! » . وعقل الاستياء لسانها . ولكنه استطرد وقد نفد صبره : « انكن ،معشرالبنات، تحاولن أن تجعلن من الحبة قبة . ان ما جرى لك جرى لكثيرات من قبل ، فكن لا يلبثن أن يتزوجن من أشخاص آخرين ، ويقضين على الأقاويل . أما التصرف على نسق ما يرد فى الروايات ، فكفيل بأن يجعل الحياة لا تطاق .. قد لاتجدين عارا فى أن تقولى للملأ : « سأنبذ الدنيا الى الأبد ، وآوى الى سطح البيت أحملق فى السماء . سأقيم ذكرى ذلك الغادر - الذى لا يستحق تقديرا - فى أعماق فؤادى ، وأروح أتعبد فى هيكلها » ! .. بيد أنك لا تفطنين الى الخزى الذى يصيبنا . ألا تزوجى من أى شخص ، وتخلى عن هذه المأساة التمثيلية فى أقرب وقت ! » . وأحست همنالينى بكلماته وكأنها خناجر تطعن قلبها ، فقالت : « وهل سمعتنى أقول اننى سأنبذ الدنيا ، واننى لن أتزوج قط ؟ »
قال جوجندرا : « اذا كانت هذه نيتك ، فبادرى الى الزواج . من الطبيعى أن

تظل عانسا طالما كنت تقولين انك لن تحبى رجلا قط ، ما لم يكن شبيها بالآلهة. اننا نادرا ما نجد الأمور فى الدنيا متمشية مع آمالنا . يجب أن نروض أنفسنا على تقبل ما يمكن أن نناله ، وأن نتخلى عما عداه ! » .. فصاحت ملتاعة : « لماذا تعذبنى بهذا الشكل ؟ .. هل قلت لك شيئا عن الحب ؟ » . فقال جوجندرا : « لم تقولى شيئا ، ولكننى ألاحظ ما تضمرين . ان ما تظهرينه من نفور نحو أصدقائنا المتواضعين يشى بما فى نفسك . وخليق بك أن تعترفى بأن ثمة شخصا ، ظل - دون كل أصدقائك - وفيا لك فى السراء والضراء ، فى الخير وفى الشر ، ومن أجل هذا أكن له كل تقدير . فاذا شئت زوجا يضحى بحياته كلها ليراك سعيدة ، فما أشك فى أنك تعرفين أين هو .. أما اذا أردت الجو الروائى الحزين ... » . وهنا نهضت واقفة ، وهى تقول : « أرجو أن لا تحدثنى بهذه اللهجة . اذا أمرنى أبى بأن أتزوج من أى شخص ، فسوف أطيع رغبته . انتظر حتى ترانى أعصاه ، ثم تكلم عن الحزن الروائى ! » . وعند ذاك، رقت لهجة جوجندرا فى الحال ، وقال : « لا تغضبى منى يا عزيزتى هيم ..انك لتعرفين اننى اذا استأت من أمر ، تهورت فى كلامى ، وقلت كل ما يخطر ببالى. لقد عرف كل منا أخاه منذ طفولتنا ، وانى لأدرك مدى رقة شعورك ، ومدى حبك لأبينا ! »

وانصرف ليبحث عن أبيه ، فوجده جالسا فى غرفته ، وقد راح ضميره يؤنبه كلما تصور جوجندرا فى مضايقته لأخته . وكان قد أوشك أن يسعى اليهما ، عندما أقبل جوجندرا قائلا : « لقد وافقت هيم على الزواج يا أبت . لعلك تظن أننى ضغطت عليها ، ولكننى فى الواقع لم أفعل . انها لا تعارض فى الزواج من أكشاى ، اذا أنت طلبت منها ذلك فى كلمات صريحة ! » .. فقال الشيخ : « أتريدنى على أن أطلب ذلك منها ؟ » . وأجاب الشاب : « أجل ، فما أظنك تنتظر أن تأتيك من تلقاء نفسها لتسألك : « هل أتزوج من أكشاى ؟ » .. اذا كنت تتردد فى أن تتحدث اليها فى الأمر ، ففوضنى فى حمل أوامرك اليها ! » ، فهتف أنادا بابو لفوره : « مستحيل أن أفعل هذا ! .. سأقول لها بنفسى ما يمكن أن يقال . ولكن ، فيم تعجلك هذا ؟ .. أرى أن علينا أن نتريث لبضعة أيام » ، فأجاب الشاب : « لا ، يا أبت . لابد أن يحدث ما يعرقل الأمر ، اذا نحن تريثنا . وليس بوسعنا أن نظل هكذا لأمد أطول مما انقضى!» .

وما كان فى الأسرة من يغلب « جوجندرا » اذا تحمس لأمر ، فهو لا يكف عن محاولة تنفيذ هذا الامر ، حتى لقد كان « أنادا بابو » يشعر فى سريرته بخوف منه . ومن ثم قال يحاول أن يرجىء الأمر : « حسنا .. سأتحدث اليها ! » . ولكن الشاب قال : « ليس أصلح من الوقت الحالى يا أبى .. انها جالسة فى انتظارك ، فحاول أن تسوى الأمر اليوم ! » .. وقال الأب : « حسنا ،انتظرنى

هنا ، فلابد من أن أخلو اليها »

* * *

◆ ووجد « أنادا بابو » حجرة الجلوس مظلمة ، الا أن شبحا هب فى الظلام، ثم واتاه صوت مثقل بالدموع : « لقد انطفأ المصباح يا أبى ٠ هل أدعو الخادم لاشعاله ؟ » ، فقال : « لا بأس يا عزيزتى ، فليست بنا حاجة الى الضوء ! » ٠ وتحسس طريقه الى مقعد بجوار ابنته ، فقالت : « انك لا تراعى صحتك كما ينبغى يا أبت » ، فقال : « ان صحتى على ما يرام ، وليست فى حاجة الى مراعاة ، انما أنت التى يجب أن تعنى بصحتك ! » ، فصاحت همنالينى : «كلكم تقولون هذا ، وما هو من الصواب فى شىء ٠٠ ما الذى يحملك على أن تظن اننى لا أكترث لصحتى ؟ ٠٠ اذا رأيت أن أتبع علاجا خاصا ، فليس عليك سوى أن تامرنى ٠٠ فما رفضت لك رغبة قط ! » ٠ واختلط صوتها بالبكاء ، فصاح فى قلق : « أبدا يا عزيزتى ٠٠ بل اننى ما احتجت قط الى أن أنبهك الى رغبة لى ، فأنت تعرفين ما يجول بخاطرى ، كما لو كنت أمى ! وأنت دائما تحرصين على أن تحققى ما أريد دون أن تنتظرى حتى أطلبه ٠ ولو أن لدعوات قلب الأب أى أثر ، لكنت سعيدة فى كل أيامك بفضل دعواتى لك ! » ٠ قالت : « ألا تحب أن تستبقينى معك يا أبت ؟ » ، فقال أنادا : « بالطبع » ٠ فعادت تسأله : «هل لى أن أمكث هكذا طالما ظل جوجن بغير زواج ؟ ٠٠ من الذى يعنى بك اذا لم أكن الى جوارك ؟ » ٠٠ قال : « يعنى بى ؟ ٠٠ لا تحملى همى يا عزيزتى ، فلست أستحق هذا ! » ٠٠ فقالت : « ان الظلام دامس يا أبى ، فهل أحضر مصباحا موقدا ؟ » ٠٠ وحملت مصباحا من الغرفة المجاورة ، وقالت : « لقد شغلنا اضطراب أفكارنا فى الأيام الأخيرة ، فلم أعد أقرأ لك الصحيفة فى الأمسيات٠ هل أقرأ لك الآن ؟ » ٠ فنهض قائلا : « حسنا يا عزيزتى ٠ انتظرى دقيقة »

وعاد الى جوجندرا ، وقد عول على أن يقول له : « لم أستطع أن أفاتحها اليوم فى الأمر ، فيحسن أن ننتظر الى غد » ٠ ولكنه ما كاد يسمع جوجندرا يبادره قائلا : « ماذا تم يا أبى ؟ ٠٠ هل حدثتها ؟ » ، حتى أسرع مجيبا : « أجل ، تحدثت اليها » ، فقد خشى أن يعاود جوجندرا حملاته على همنالينى ٠ وتساءل الشاب : « وهل وافقت ؟ » ، فأجاب : « أجل ٠٠ الى حد ما » ٠ فصاح جوجندرا : « اذن ، سأذهب فانبىء أكشاى » ٠ ولكن الاب صاح متعجلا : « لا ، لا ٠٠ لا تقل له شيئا بعد ٠ انك ستفسد كل شىء يا جوجن اذا تسرعت ٠ يحسن أن نرجىء التدابير النهائية الى أن نعود من الريف » ٠٠ ولكن جوجندرا انصرف دون أن يرد عليه ، فيمم لفوره شطر بيت أكشاى ، حيث وجد صاحبه منهمكا فى مطالعة مؤلف انجليزى عن «مسك الدفاتر التجارية» ،فدفعه عنه جانبا، وقال : « دعك من هذا الآن ، اذ علينا أن نحدد موعدا للزواج ! » ، فصاح أكشاى : « يا الهى ! »

الفصل التاسع والثلاثون

◆ نهضت « همناليني » فى الصباح الباكر ، وسعت الى أبيها ، فألفته فى غرفة نومه ، وقد جلس فى مقعد مريح الى جوار النافذة ، واستغرق فى التفكير . وكانت الغرفة متواضعة الأثاث ، لا تضم سوى فراش وصوان للثياب . والى أحد جدرانها ، علقت صورة باهتة لأم همناليني المتوفاة ، فى اطار فخم ، بينما ثبتت الى الجدار المقابل لها قطعة من الصوف نسجتها المتوفاة بيديها . كما كان الصوان يضم أساورها وحليها ومخلفاتها الشخصية ، وقد تركت على حالها . ووقفت همناليني خلف أبيها ، وراحت تمسح شعره برفق ، ثم قالت : « مارأيك يا أبت فى أن نتناول الشاى مبكرا هذا الصباح ، ثم نجلس فى غـــرفتك ، فتحدثنى عن الأيام الخالية . ليس بوسعك أن تتصور مدى شغفى بقصصـــك هذه ! » . وكان ادراك الشيخ لحالات ابنته قد غدا مرهفا الى درجة مكنته من أن يلمس الحافز الذى حملها على أن ترغب فى التعجيل بتناول الشاى . فان أكشاى لن يلبث أن يفد لتناول الشاى معهم على عادته ، وقد رغبت « هيم » فى أن تتحاشى لقاءه ، وذلك بأن تمكث ما استطاعت فى غرفة أبيها . وأحزن الشيخ ما صارت اليه أعصاب ابنته . كانت دائما وجلة ، كغزال خائف !

ولم يكن الماء المغلى للشاى قد أعد بعد ، فابتكر أنادا حجة لحث الخادم المسكين على اعداده ، فسرعان ما وافاهما به . وبدلا من أن يقبل أنادا بابو على ارتشاف ما فى قدحه فى بطء ، وهو يلعق شفتيه تلذذا ، ويتحدث الى ابنته ، عمد فى ذلك اليوم الى افراغ القدح فى جوفه بسرعة لا داعى لها ، مما جعل ابنته تسأله فى دهشة : « أفى عجلة أنت يا أبى ، هل تريد الخروج ؟ » .. فأجاب : « لا ! .. ولكن عندما يكون الجو بهذه البرودة ، أحب أن أشرب الشاى دفعة واحدة ، فان دفئه ينشر العرق على جسمى ، فيدفئنى ! » . ولكن جوجندرا لم يلبث أن أقبل ، وأكشاى فى أثره ، قبل أن يتفصد العرق المنشود . وكان أكشاى بادى الأناقة ، وقد أمسك فى يده بعصا ذات مقبض فضى ، وزين صدره بسلسلة ذهبية ، بينما حمل فى يسراه كتابا لف فى ورقة سمراء . وبدلا من أن يتخذ مجلسه المعهود ، جر مقعدا الى جوار مجلس همناليني ، وقال فى تلطف : « لابد أن ساعتكما متقدمة اليوم » . فلم تجب همناليني ، ولا نظرت اليه . بينما قال أنادا بابو : « لنصعد الى الطابق العلوى يا عزيزتى هيم ، اذ لابد من أن نعرض ثياب الشتاء للشمس » ، فقال جوجندرا : « لا داعى للعجلة يا أبت ، فلن تهرب الشمس . هلا صببت لأكشاى قدحا من الشاى يا هيم ؟ .. كذلك أريد قدحا لنفسى ، ولكن الضيف مقدم بالطبع ! » . وضحك أكشاى قائلا لهمناليني :

« هل رأيت فى حياتك مثل هذا الايثار ؟ » .

وصبت همنالينى الشاى دون أن تحفل بأكشاى ، ثم ناولت جوجندرا قدحا ، ودفعت نحو أكشاى بآخر ، وهى تنظر الى أبيها ، فقال هذا : « اذا تلكأنا فسوف يشتد الحر على سطح الدار . هيا يا هيم ، يحسن بنا أن نصعد فى الحال ! » . فصاح جوجندرا : « أف لك ! .. لقد جاء أكشاى ... » ، وتملك الغضب أنادا بابو ، فصاح : « انكما تحاولان أن تضايقانا ! .. ليس من حقكما أن تدفعا المرء – اذا ما كان يعانى آلاما نفسية – الى أن ينصاع لرغباتكما . لقد تحملت لجاجكما أياما ، ولكنى لم أعد أطيقه . لسوف نتناول الشاى فى المستقبل يا هيم وحدنا فى الطابق العلوى ! » .. وحاول أن يجرها الى خارج الغرفة ، ولكنها توقفت فى هدوء وقالت : « لا تخرج الآن يا أبت ، فأنت لم تفرغ من تناول الشاى .. هل لى أن أسألك يا أكشاى بابو عما فى هذه اللفافة العجيبة؟» .. فبسط يده باللفافة قائلا : « ليس لك أن تسألى فحسب ، وانما بوسعك أن تتبينى ! » . ونزعت « هيم » الورق ، فكشفت عن نسخة من أشعار « تنيسون » ، داخل غلاف من الجلد . وبهتت وشحب وجهها ، اذ كانت قد تلقت من قبل نسخة مثلها ، كهدية .. ولم يكن أحد ليعرف أنها تحتفظ بها ككنز ثمين فى غرفتها !

وابتسم جوجندرا وهو يرفع احدى دفتى الكتاب ، عن صفحة العنوان ، فاذا مكتوب عليها : « الى الآنسة همنالينى ، رمزا لتقدير أكشاى » . وأفلتت الفتاة



الكتاب كما لو كان جمرة متقدة ، وأشاحت ببصرها عنه قائلة : « هيا يا أبى!» .. وغادر الأب وابنته الحجرة

وتطاير الشر من عينى جوجندرا ، وقال : « لن أمكث لحظة واحدة تحت سقف هذا البيت . سأرحل عنه ، وأكسب عيشى من العمل كمدرس ! » ، فقال

أكشاى : « انك تبالغ فى الغضب يا صديقى • لقد أنبأتك بأننى أعتقد أنك مخطىء ، وقد انصعت لالحاحك ، ولكنى رأيت الآن أن همنالينى لن تحفل بى مطلقا، فدع هذه الفكرة عن بالك • واذا شئنا أن نسلك المسلك الصائب ، فيجب أن تتجه خطوتنا التالية الى حملها على نسيان رامش» • فقال الآخر : « هذا صحيح ،ولكن كيف نحملها على ذلك ؟ » •• قال : « يجب أن لا نعتقد أننى الشاب الوحيد فى الدنيا الذى يصلح للزواج منها •• ان الذى نحتاج اليه حقا ، هو أن نوفق الى شاب يعجبها •• لاالى شاب يجعلها مظهره تؤثر أن تذهب لتهوية ثياب الشتاء! »• فقال جوجندرا : «ليس ثمة متجر يقصده الانسان ويطلب عريسا «جاهزا»!» • ولكن أكشاى قال : «انك سريع القنوط •• فعلى الرغم من أن هدفنا الحقيقى هو أن نجد زوجا لهمنالينى ، الا أننا يجب أن لا نتسرع •• وينبغى ان لا تثير موضوع الزواج ارتجالا ، والا أثرت مخاوف الفريقين •• بل دع التعارف يتم على مهل ، وتربص للفرصة التى تستطيع خلالها ان تقترح عليهما الزواج ! »

وقال جوجندرا : « هذه خطة سليمة ، ولكن ما اسم المرشح ؟ » •• فأجاب أكشاى : «انك لم تتعرف اليه وان كنت قد رأيته •• الدكتور ناليناكشا» • فردد جوجندرا : « ناليناكشا ! » •• وقال الآخر : « ما الذى يدهشك ؟ •• ان طائفة البراهمة الأحرار تحيطه بفضيحة ، ولكن لاتلق لذلك بالا !» • فقال جوجندرا : «ماكنت لأفلت شخصا موفقا مثله •• ولكن ، هب انه لم يوافق ؟» • ولـكن أكشاى قال : «لسنا فى عجلة •• ان الزمن كفيل بالمعجزات ! •• اسمع •• لسوف يلقى ناليناكشا محاضرة غدا ، فاصطحب همنالينى لسماعها ، فان الشاب خطيب مصقع • وليس مثل البلاغة فى الحديث شىء يفتن النساء! ياللمسكينات! •• انهن لايدركن ان الزوج الذى يجيد الاصغاء ، خير ممن يجيد الكلام!» • فقال جوجندرا : «ولكن ، حدثنى عن تاريخه ، اذ أحب أن أعرف المزيد عنه» • وبادر الآخر قائلا : «حسنا ، سأروى لك سيرته ، على أن تتجاوز عن النقص الذى قد تكتشفه خلالها • فان النقص اذا كان تافها يعتبر - فى رأيى - ميزة ، اذ يمكن الانتفاع به ! »

ومن الممكن أن نلخص قصة ناليناكشا - كمارواها أكشاى - فيما يلى :

كان أبوه « راجبالاب » من صغار الملاك فى منطقة (فريدبور) • وقد انضوى راجبالاب فى سلك طائفة البراهمة الأحرار وهو فى الثلاثين من عمره ، ولكن زوجته أبت أن تتبعه فى ذلك ، وظلت محافظة على أصول عقيدتها ، الأمر الذى لم يرض عنه «راجبالاب» بطبيعة الحال • ولقد كان لما أوتيه ابنهما «ناليناكشا» من موهبة فى الوعظ وبلاغة فى الحديث ، الفضل فى ضمه الى الطائفة فى سن مبكرة ، وقدر له أن ينال وظيفة طبيب فى الريف ، فعاش متنقلا بين البلدان ، ككل موظفى الحكومة فى البنغال • وكان ، أينما ذهب ، ترك وراءه سمعة طيبة ،

لاستقامته ، وبراعته فى مهنته ، وتقواه • ثم انقضت على الأسرة صاعقة ، اذ قرر «راجبالاب» ـ عندما تقدم فى السن ـ أن يتزوج مرة أخرى ، ولم يقو شىء فى حمله على العدول عن عزمه • وكان عذره الذى لم يجد عنـه : «ان زوجتى الحالية لا تحل لى ، لأنها لا تتبع عقيدتى ، فمن الأفضـل أن أتزوج من امرأة تشاطرنى عقيدتى ، وتتحد معى قلبا وقالبا! »•• وتزوج من المرأة التى أرادها ، متبعا الطقوس الهندوكية !

وقررت أم نالينـاكشا أن تهجر زوجها وترحل الى (بنارس) • وكان نالينـاكشا اذ ذاك قد افتتح عيادة خاصة فى (رانجبور) ، فبادر الى التخلى عنها ، وأعلن لأمه عزمه على أن يصحبها الى المدينة المقدسة • وقالت العجوز وهى دامعة العين: « ان آراءنا متباينة يا بنى ، فلماذا تكبد نفسك متاعب لا داعى لها ؟ » ، فأجاب قائلا : « لن يكون ثمة تباين » ، فقد أحس بأثر غدر أبيه على نفسها ، فعول على أن يجعل سعادتها هدفه الأول • وصحبها الى بنارس • وكانت من قبل قـد سألته عما اذا كان لا يعتزم الزواج ، فأجابهـا : « ولماذا يا أماه ، اننى قانع بحالى » • ولكن ما طرأ على أمه قضى على سبب تردده،كما أنه ،اذ اقتطع نفسه عن الوسط الذى كان يعيش فيه ،نبذ الكثير من آرائه • ومع ذلك ، فانه لم يكن على استعداد لأن يتزوج من غير البراهمة •وقالت له أمه وهى حريصة على ان لا تقف فى طريقه : « يا بنى العزيز ، ليس لك ان تنذر نفسك للعزوبة بسببى ، تزوج ممن تشاء ، ولا تخش معارضة منى » •• ففكر نالينـاكشا فى الأمر يوما أو اثنين ، ثم قال لأمه : « سأتيح لك يا أماه كنة (زوجة ابن) تروق لك •• فتاة صغيرة ، صالحة،لن تشعرى يوما باستياء منها ، ولن تجدى من مسلكها ما يسبب لك ألما ! » • ورحل الى (البنغال) بحثا عن عروس

أما ما جرى بعد ذلك ، فقد اختلفت بصدده الروايات • فتزعم احدى القصص انه قام برحلة سرية الى مكان ما فى الريف ، وتزوج من فتاة يتيمة ، ماتت بعد الزفاف مباشرة • ولكن الثقاة يحيطون هذه الرواية بالشكوك • وقد كان أكشاى يعتقد ـ فى قرارة نفسه ـ ان نالينـاكشا عدل عن الزواج فى اللحظة الأخيرة !

ومهما تكن الحقيقة ، فقد كان من رأى « أكشاى » ان أم الشاب لن تعارض فى زواجه من أية فتاة تليق له ، بل انها لن تلبث ان تغتبط اذا ما تزوج فتاة فاتنة مثل همنالينى ، لن يجد خيرا منها مهما يبحث • فضلا عن ان من شأن طبـاع همنالينى الرقيقة ان تجعلها تعامل حماتها بما يحق لها من احتـرام • ومن ثم فان نالينـاكشا لن يلبث بعد أمد قصير من التعرف الى همنالينى ، ان يتبين انها أوتيت الميزات التى ينشدها فى عروسه !•• وكان من رأى أكشاى ـ لذلك ـ اتمام التعارف بين الشابين فى أقرب فرصة !

الفصل الأربعون

* لم يكد أكشاى يغادر البيت ، حتى صعد جوجندرا الى الطابق الثانى ، فوجد أنادا بابو وهمنالينى فى حجرة الجلوس ، منهمكين فى الحديث . وبدا على الأب شىء من الخجل حين رأى ابنه . فقد ندم لهذا الغضب الذى بدر منه على مائدة الشاى ، ومن ثم حيا جوجندرا فى حفاوة اكثر من المعتاد ، وقال : «تعال يا جوجندرا .. تعال فاجلس معنا يا بنى ! » ..وقال الشاب : «انك وهمنالينى لا تكادان تفارقان البيت فى هذه الأيام يا أبت . وطـول ملازمتكما للبيت لا تفيدكما » . فأجاب أنادا : « الواقع اننا دائما ممن يلازمون دورهم .. ثم ان المرء مضطر الى أن يعصر فكره ليجد مناسبة تحمل هيم على مرافقته ! » . وتدخلت الفتاة قائلة : « مهلا يا أبت ، فما ينبغى أن تلقى على اللوم ، اذ انك تعرف اننى على استعداد لأن أذهب معك الى أى مكان ! » . وبدا من لهجة الفتاة حرصها على أن تقنعهما بأنها لا تبغى ان تدع حزنها الدفين يستبقيها أسيرة البيت ، حبيسة جدرانه الأربعة ، فقال جوجندرا : « حسنا ، سيكون ثمة اجتماع غدا ، يحسن ان تصحب هيم اليه ! » . وكان الأب يدرك نفور همنالينى من الاجتمـاعات العامة ، فنظر نحوها يتعرف رأيها ، واذ ذاك صاحت الفتاة بحماس قـوى : « اجتماع ! .. ومن الخطيب ؟ » . فقال جوجندرا : « دكتـور نالينـاكشا » ، فردد الأب فى عجب : « نالينـاكشا ! » . قال الابن : « انه خطيب رائع ، كما ان له تاريخا عجيبا ينطوى على نكران الذات وعلى المثابرة !.. انه واحـد فى المليون ! » .. ومع ذلك ، فقد كان جوجندرا قبل ساعتين لايعرف عن نالينـاكشا سوى اشاعة عابرة مبهمة !

وقالت همنالينى وهى تصطنع الاغتباط : « حسنا يا أبت ، يجب ان نذهب فنستمع الى هذا الخطيب ! » . وما كان أنادا ليخدع بما أبدته همنـالينى من لهفة ، ولكنه شعر ـ مع ذلك ـ بشىء من الارتياح . فقد خيل اليه ان همنالينى اذا ما عاودت الخروج الى الدنيا والاختلاط مع اندادها ولداتها ـ رغم ما قـد يكلفها هذا من عناء وجهد ـ فلن تلبث أن تعود الى حالتها الطبيعية ، فان أضمن علاج للعلل النفسية ، هو الاختلاط بالناس . ومن ثم قال لجوجندرا : « حسنا ، خذنا الى ذلك الاجتماع غدا ، ولكن ، حدثنى الآن بما تعرفه عن نالينـاكشا ، فان المرء يسمع عنه روايات متباينة » . وهنا شرع جوجندرا يشن حملة على هواة الفضائح عامة ، قائلا : « ان المتطرفين فى التدين يظنون ان السماء آثرتهم عند مولدهم برخصة تبيح لهم تقبيح أبناء جنسهم والاسـاءة اليهم ، دون تورع . وليس ثمة من هم أبعد عن الخير ، وأمعن فى الشر ، من تجار التقوى ، هؤلاء !»

وقال الأب مجاملا : « اننى معك فى هذا الرأى ٠٠ ان مثابرة المرء على تناول سقطات جيرانه ، تجعله ضيق الذهن ، كثير الوســاوس ! » ٠ واذ ذاك هتف جوجندرا : « ما هذا يا أبت ٠٠ أتغمزنى بهذه الوخزة ؟٠٠ اننى لست عــلى شاكلة اولئك المتدينين ، كما تعلم ، اذ اننى أجيد الاطراء والتقدير ، بقدر ما أجيد النقد واللوم ! » ٠ فسارع أنادا قائلا : « لا تكن غبيا ٠٠ ما كنت أقصدك فى الواقع ، فأنت أدرى منى بنفسك ! » ٠٠ وتحول جوجندرا بعد ذلك يروى قصة ناليناكشا ، مضفيا على الموضوع كل ما أوتى من بيـان وبلاغة ٠ واختتم حديثه قائلا : « لقد كبت ناليناكشا رغباته الطبيعية وذهب للاقامة فى بنارس ، لكى يسعد أمه ٠ وقد استغل كل أصدقائك المتطرفين ـ يا أبت ـ هذه الفرصة ، ليشيعوا عنه أقاويل مشينة ٠ والواقع أننى شخصيا أعجب بمسلكه ٠ ما رأيك يا هيم ؟ » ٠ فأجابت : « اننى من رأيك » ٠ واذ ذاك قال : « كنت موقنا من ان هيم ستقر مسلكه ٠ ولا يداخلنى الشك فى أنها أهل لأن تبدى مثل ما أبداه من نكران الذات ـ لتسعد أباها ـ اذا ما سنحت الفرصة » ٠ ورمق أنادا ابنته فى حنان ، فتضرج وجهها ، وغضت بصرها فى ارتباك

الفصل الحادى والأربعون

◆ عاد أنادا بابووهمناليني من الاجتماع فى ساعة متأخرة من أصيل اليوم التالى ٠ وقال الشيخ وهو يجلس الى مائدة الشاى : « كان الحديث طيبا بالفعل ! » ٠ ولم يدل بتعليق آخر ، ولكن عقله راح يعمل فى استغراق ، حتى انه لم يفطن الى همنالينى حين تسللت صاعدة الى الطابق العلوى بعد الشاى ٠ كان المحـاضر ـ ناليناكشا ـ يبدو صغيرا على المنصة الى درجة غريبة ٠٠ كأنه فتى يافع ٠ فمع انه استكمل نضوج شبابه ، الا ان ملامحه ظلت تحتفظ بنضرة الصبا ، وكان الى هذا محوطا بجو من الجلال الروحى ، يبدو وكأنه ينبعث من أعماق نفسه ٠ وكان موضوع محاضرته هو : « الخسارة » ، وملخصها ان لا كسب حقيقيا بغير خسارة ٠ وما نحصل عليه دون جهد ليس من الكسب الحقيقى فى شىء ، فليس ثمــة ما يحق لنا أن ندعى اننا نملكه ـ بكل ما فى الكلمة من معنى صادق عميق ـ سوى ما نناله بالتضحية ٠ والذى يرى مقتنياته تتبدد وتفلت من قبضته ، تعيس حقا ٠ بيد ان النفس الانسانية تسترد فى الواقع ـ فى عملية الخسارة والفقد ـ القوة على الكسب ٠٠ كسب ما فقدت ، مع الفوائد !٠٠ واذا استطعنا ، حين نمنى بخسارة ، ان نحنى رؤوسنا ، ونضم أيدينا فى خشوع لنقول : « انها نعمة ٠٠ فالحرمان نعمة ، والحزن نعمة ، ودموعى نعمة ! » ، فان كل شىء ـ حتى أتفه الأشياء ـ يكتسب فى نظرنا قيمة ومعنى ٠٠ ويتحول الشىء المحدود الأجل ،

الفاني ، الى شيء خالد ، أبدى ٠ وما هو مجرد أداة أو وسيلة لنفعنا اليومى ، يصبح موضوعا جديدا يضاف الى كل ما نعتز به ونتعبده ، وندخره أبد الدهر بين كنوز معبد قلبنا !

وتركت كلماته أثرا عميقا فى نفس همنالينى ، وشعرت ـ وهى تجلس فى تفكير صامت على سطح الدار ، تحت السماء المرصعة بالنجوم ـ بأن قلبها كان يزخر بالعواطف ، وبأن الأرض والسماء لم تعودا خاويتين ، فارغتين ، كما كانت تراهما من قبل !

أما جوجندرا ، فقد قال لأكشاى أثناء عودتهما ، بعد المحاضرة : « لقد عرفت كيف تختار أبرع متكلم ! ولكن ، لشد ما هو متصوف فى فلسفته !٠٠ اننى لم أفقه نصف كلامه ! » ٠٠ فقال أكشاى : « لابد للمرء من أن يشخص المرض قبل ان يتمكن من وصف الدواء الذى يحتاج اليه المريض ٠ ان همنالينى تعانى خيبة أمل من جراء رامش ، فهى محتاجة الى فلسفة روحية تنتشلها من قنوطها ٠ والناس العاديون ـ مثلك ومثلى ـ لا يملكون ان يمدوها بهذه الفلسفة ٠ ألم تتأمل وجهها اثناء حديث الخطيب ؟ » ، فقال « جوجندرا » : « بل تأملته ٠٠ كان من الواضح انها اعجبت بمادة المحاضرة ، ولكن هذا التقدير لا يعنى انها مستعدة لأن تمنح يدها للمحاضر ! » ٠ وعاد أكشاى يقول : « أتراها كانت تتأثر بالمحاضرة لو ان أحدا منا ألقاها ؟ ان للتصوف سحرا عظيما على النساء ٠ صدقنى يا جوجن ٠٠ لو انك قدمت أى شخص لهمنالينى ، لقارنت بينه وبين رامش ، ولما خرجت من المقارنة بنتيجة طيبة ٠ اما ناليناكشا فليس شخصا عاديا ، ومن ثم فلن يخطر ببالها ان تقارنه بأى شخص آخر ٠ واذا أنت قدمت اليها أى شاب عادى ، لاستطاعت ان تحدس الباعث ، فيهب عقلها ثائرا ٠ اما اذا ابتكرت وسيلة تستطيع بها احضار ناليناكشا الى داركم ، وقدمته اليها ، فلن تخامرها أية ريبة ! ثم لا يلبث التحول ان يتم تدريجيا وبسهولة ، لمجرد الاعجاب والتقدير فقط ! » ٠ فقال جوجندرا : « اننى لا أميل الى التلاعب بالألفاظ ، وانما أوثر الصراحة ٠٠ وأصارحك بأن ذلك الشاب لم يحدث أثرا كبيرا فى نفسى » !

قال أكشاى : « سيذهب كل شيء ادراج الرياح ، اذا زججت فيه بأهوائك وميولك الخاصة ، اذ ينبغى أن لا تتوقع ان تجد كل شيء وفق هواك !٠٠ لن ننجح الا اذا أغرينا همنالينى على نسيان رامش تماما ، ولا تتصور لحظة أن بوسعك ان تحقق هذا بالشدة ٠ يجب ان تتبع نصيحتى بحذافيرها ان شئت ان تصل الى النتيجة المرجوة » ٠ قال جوجندرا : « كل ما فى الأمر اننى أجد شيئا من الغموض يحيط بالدكتور ناليناكشا ! » ، فصاح أكشاى : « لقد كنتم تغمضون أعينكم منذ البداية ازاء رامش ٠٠ كنتم تحسنون الظن به في كل

شيء٠٠كان في رأيكم منزها عن الخداع،وأعظم فيلسوف منذعهد «سانكارتشاريا»٠ أما انا ، فما كنت أميل لرامش ، فقد رأيت في حياتي كثيرين ممن على شاكلته ٠ ولكني لم أكن أجرؤ على أن أفتح فمي ، فما كنتم تصدقون ان لشخص عديم القيمة ، متواضع المقام مثلي ، أي حافز على انتقاد مثل ذاك النابغة سوى الغيرة٠ ولعلكم تحققتم الآن من ان اولئك النوابغ الممثلين يجب ان لا يمجدوا الا على البعد ، وان ليس من المأمون ان يقبل المرء واحدا منهم خطيبا لأخته » ٠ فصاح جوجندرا : « لن تقنعني مطلقا يا أكشاي بانك كنت أول من اكتشف حقيقة رامش ، ولو قلت ذلك ألف مرة ٠٠ انما كنت تحقد عليه ، فلم تكن ترى في أي عمل يأتيه صوابا ! »

★ ★ ★

◆ وما ان دخل جوجندرا واكشاي غرفة أنادا ، حتى تسللت همناليني من الباب الآخر ، فقال أكشاي في نفسه : « لابد أنها كانت تطل من النافذة ، فرأتنا مقبلين » ٠ وابتسم وهو يتخذ لنفسه مجلسا بجوار أنادا ، قائلا : « ان كلمات ناليناكشا تنفذ الى القلب ، لأنها منبعثة من القلب ! » ٠٠ فقال أنادا بابو : « انه موهوب بالفعل ! » ٠٠ فصاح أكشاي : « موهوب ! بل اكثر من ذلك ٠٠ أنه أكثر من يمشون على الأرض نصيبا من خصال الأبراروالقديسين!»٠ ومع ان جوجندرا كان زميلا له في المؤامرة ، الا انه لم يتمالك ان صاح : « لا تتكلم بالله عن الأبرار والقديسين ! ٠٠ لتحفظنا السماء منهم ! » ٠ فقال أبوه : « لا يا جوجن ، لا تتكلم بهذه اللهجة ، فاني شخصيا أوثر ان اعتبر جميع من يلوح عليهم الخير في مظهرهم ، أخيارا في باطنهم كذلك ٠ وقد أخطىء في حكمي ، ولكن هذا بالتأكيد أفضل من أن أرتاب دائما في الطيبين الأبرار ! ثم ان ناليناكشا لم يجمع مادة محاضرته كيفما اتفق ، وانما استمدها من تجاربه الروحية ٠ وقد وجدت رسالته جديدة ، وملهمة أيضا ، حتى لقد ساورني الميل الى أن أذهب اليه فأشكره شخصيا ! » ٠٠ فقال أكشاي : « كل ما أخشاه أن لا تحتمل صحته آثار هذا النشاط الذي يبذله ٠٠ انه يقضي كل يومه في الصلاة والدراسة والكتابة ، دون أن يلقي بالا الى صحته » ٠ وقال أنادا : « هذا خطأ عظيم منه ، اننا لا نملك حق اهمال أبداننا ، لأننا لسنا خالقيها ، وبالتالي لسنا مالكيها ! ٠٠ ثم أن صون الصحة لا يتطلب من المرء سوى بعض قواعد بسيطة : أولها : ٠٠٠ » ٠ وهنا نفد صبر جوجندرا فقال : « كل هذا خارج عن موضوعنا ٠٠ ان ناليناكشا في صحة جيدة ، حتى انني خلت ـ حين قابلته بعد ظهر اليوم ـ ان حياة النسك تعزز صحة البدن ! »

قال أنادا : « الواقع انني أميل الى الأخذ بصحة ما قال أكشاي ، فان أغلب عظمائنا يموتون شبانا ٠٠ وهم يقلون من نفعهم لبلادهم حين يهملون صحتهم ٠

أعتقد انك مخطىء فى تقديرك لصحة ناليناكشا بابو ٠٠ انه موهوب ، فخليق به أن يتلقى النصح للعناية بنفسه ! » ٠٠ فقال أكشاى : « اسمع ٠٠ سادعوه الى هنا وأقدمه اليك ، فلعلك تتحدث اليه فى هذا ٠٠ وأعتقد انك ما ان تاخذ بيد ناليناكشا بابو ، حتى ٠٠٠ » ٠ فقفز جوجندرا على قدميه قائلا : « أكشاى ٠٠ انك توشك أن تدفعنى الى الجنون !٠٠ انك تسرف فى اللغو ٠٠ لم أعد أطيق هذا » ٠٠ واندفع الى خارج الغرفة ، متماديا فى التظاهر بانه غير راغب فى تردد ناليناكشا على دارهم !

الفصل الثانى والأربعون

كان أنادا بابو – قبل الأزمة التى اعترضت « همنالينى » – يستمتع بصحة جيدة ، ومع ذلك فانه لم يكن يكف عن تناول الحبوب المهضمة التى يصفها أطباء الشرق والغرب ! على انه أصبح يعاف كل الأدوية ٠ كانت متاعبه الصحية شغله الشاغل حين كانت مجرد أوهام ، أما حين صارت واقعية ، فانه لم يعد يحفل بأمراضه مطلقا !

وكان قد استسلم للنعاس – فى مقعده – حين سمعت همنالينى وقع قدمى جوجندرا على السلم ، فأسرعت الى الباب تنبهه حتى لا يزعج النائم ٠ واستاءت اذ فوجئت بنالیناكشا مع أخيها ٠ واوشكت ان تدعوهما الى غرفة أخرى ، لولا أن بادرها جوجندرا قائلا : « هيم ٠٠ لقد أحضرت نالیناكشا بابو ، فتعالى أقدمه اليك ! » ٠٠ ووقفت الفتاة مستاءة ، بينما انحنى القادم يحييها دون أن يرفع بصره الى وجهها ٠ واستيقظ أنادا بابو فى تلك الأثناء ، فنادى ابنته ٠٠ وأسرعت اليه هامسة بأن « نالیناكشا بابو » فى البيت ، بينما دعا جوجندرا الضيف الى



الدخول ، فنهض « أنادا بابو » مرحبا ، وهو يقول : « اننا سعداء حقا بزيارتك لنا ٠٠ أعرفك بابنتى همنالينى يا ناليناكشا بابو ٠٠ لقـــد كانت معى تستمتع بمحاضرتك منذ أيام ، وقد أفدنا منها حقا ٠ على أننى أعجبت بنقطة فى المحاضرة، وهى التى ذكرت فيها أننا لا نفقد ما يتاح لنا يوما كسبه فحسب ، وان الكسب غير الكامل هو فى الواقع خسارة ! انها الحقيقة بالفعل ، ألا توافقين يا هيم ؟٠٠ ان الانسان لا يشعر بالخسارة الا اذا افلت من يده ما كان يقتنيه ٠ ان لى رجاء يا نالين بابو ، ذلك هو ان تزورنا من وقت لآخر ، لنتجاذب اطراف الحديث ٠٠ لسوف نعد هذا صنيعا كبيرا ، فنحن لا نغادرالبيت عادة !»٠ورمق ناليناكشا وجه همنالينى الذى كان ينم عن اعتداد صاحبته بنفسها ، وقال : « لا تظنـــونى متحذلقا لأننى استخدمت فى محاضرتى عبارات علمية معقدة ، فما فعلت ذلك الا لأحمل الطلبة على ان لا يعودوا الى احراجى لألقى عليهم محاضرات !٠٠ والحق انهم لم يكتموا ان ثلاثة أرباع ما قلت تعذر عليهم فهمه ٠ ولقد لاحظت عليـــك الشىء ذاته يا جوجن بابو ، فلم تفتنى نظراتك الى ساعتك ! » ٠٠ وهم جوجندرا بأن يعتذر ، فقال أنادا : « لا عليك يا جوجن ، فهناك أمور لايفهمها الناس الا فى سن معينة ! » ٠٠ فقال ناليناكشا : « أجل ٠٠ وفى سن معينة لا يحتاج المرء الى فهم كل شىء ! »

وقال أنادا : « وبهذه المناسبة يا نالين بابو ، أحب أن أحدثك فى أمر ما ٠ ان الخالق يرسل من هم على غرارك الى الدنيا لأداءرسالات معينة ، ومن ثملاينبغى أن تستهين بحقوق بدنك عليك ! » ٠ فقال ناليناكشا : « ما أعتقد الا أنك لن تلبث ـ اذا ما توثق تعارفنا ـ ان تتبين اننى لا أستهين بشىء فى الدنيا ٠ اننى حين ولدت كنت عالة على سواى ، فتطلبت تربية عقلى وجسمى جهودا ورعاية من كثيرين ، ومن ثم فانى أؤمن بأن ليس من حق المرء أن يقضى على الشىء الذى لا يستطيع بنفسه انشاءه ، وانما يعتمد فى ذلك على سواه ! » ٠ وهنا استأذن جوجندرا فى الانصراف للحاق بموعد ، فهم ناليناكشا أن يحذو حذوه ، ولكن أنادا قال له : « أرجو ألا تحفل بجوجندرا ،فانه يجىء وينصرف على هواه ، ومن العسير أن يستقر فى البيت ! » ٠ واذ انصرف جوجندرا ، تحـــول أنادا بابو يسأل « ناليناكشا » عن المكان الذى يقيم فيه ، فضحك هذا قائلا : « فىالواقع لا أستطيع أن أقول انى أقيم فى مكان معين ، فان لى معــــارف كثيرين ، وهم يتنافسون فى استضافتى ٠ على أن المرء يحتاج الى شىء من الهدوء والدعة ، بين آن وآخر ، ومن ثم فقد استأجر لى جوجن بابو المسكن المجاور لداركم » ٠٠ وسر « أنادا بابو » ، ولو أنه التفت نحو ابنته اذ ذاك ، للاحظ الألم الذى غشيها ٠ فقد كان ذلك المسكن لرامش يوما !

وأعد الشاي في تلك الأثناء ، فدعا أنادا بابو ابنته الى أن تقدم للضيفقدحا،

ولكن نالينا كشا اعتذر .. ثم خيل اليه أنه قرأ على ملامح همنالينى انها أساءت تفسير اعتذاره ، فقال ونظراته على وجهها : « لا تظنى لحظة أنى أضمر شيئا من التحامل على عاداتكم ، فالواقع انى اعتدت فى فترة من حياتى أن أتناول الشاى بانتظام ، ولكنك لا تعرفين ولا شك أن آراء أمى بشأن الطهر الروحى شديدة العنت ، وهى الآن وحيدة ، ليس لها فى الحياة سواى . ومن ثم فلا بد لى من أن أتجنب كل ما يعرقل الود بيننا، ولهذا امتنعت عن الشـــاى ، وان كنت أشاركم المتعة اذ أراكم تنعمون بشربه ! » .. وكانت عبارات نالينا كشا الأولى أشبه بصدمة لهمنالينى . فقد تبينت أنه فى محاضرته لم يكشف شيئا عن حقيقة نفسه ، وانما كان يخفى شخصيته الحقيقية وراء ستار الحديث . أما الذى لم تتبينه ، فهو أنه كان عاجزا بطبيعته عن أن يتحدث الى الأغراب دون أن يلزم شيئا من الكلفة ، وأن الخجل كان يحمله فى لقاءاته الأولى بالناس على أن يتشبث باعتداد مصطنع يجافى حقيقة فطرته . وكان هذا هو السر فى أنه حين تهيـأ جوجندرا للانصراف ، أراد أن ينصرف معه ، اذ أوحت اليه نفسه بأن جوجندرا يريد أن يغدر به ويتخلى عنه ! على أنه حين تحدث عن أمه ، بدا شخصا آخر، حتى أن همنالينى لم تتمالك ان راحت تحملق فيه باعجاب ، وخفق قلبها اشفاقا عليه ، حين تبينت ما تجلى على وجهه من اخلاص صادق عندما ذكـــر أمه ! وأوشكت أن تسأله عنها ، لولا أن منعها الحياء

وأخذت همنالينى - بعد انصراف الضيف - تقرأ على أبيها مقالا فى مجلـة بنغالية ، حتى أغفى فى مقعده .. فقد أصبحت الغفوات الطارئة من عادات الشيخ فى الفترة الأخيرة

الفصل الثالث والاربعون

◆ لم يلبث التعارف بين نالينا كشا وبين أنادا بابو وابنته أن تطور سريعا الى مودة . وكانت الفتاة قبل أن تعرفه تخال أن أحاديثه كلها مقصورة على النواحى الروحية ، فلم تكن تتصور أن بوسعها أن تتناول معه - فى حرية - كافة المسائل والموضوعات . ولكنها سرعان ما تبينت أن اللباقة لا تعوزه فى الأحاديث العادية، وان لاحظت أنه كان يجنح أحيانا - فى أوج الحديث - الى لون من الانطـواء والتحاشى . وحدث فى احدى المرات أن قال جوجندرا فجأة ، موجها الكلام الى أبيه : « أن أبناء الطائفة يا أبت بدأوا يسموننا « تلاميذ نالينا كشا بابو ، وقد تشاجرت مع فتى منهم لذلك ؟ » . فابتسم أنادا بابو قائلا : « لست أرى فى هذا ما يؤذى الشعور ، بل انه ليخجلنى أن أنتمى الى طائفة كل أهلهـا

أساتذة ، وليس بينهم تلاميذ ! » . وهنا قال ناليناكشا : « وانى لأنضوى تحت لوائك يا أنادا بابو ، فلنكن جميعا تلاميذ ، ولنقم بجولات نتوقف فيها عند كل موضع نرى أن بوسعنا أن نتعلم فيه شيئا ! » .. ولكن جوجندرا لم يكن يرمى الى هذا ، فعاد يقول : « ولكنها مسألة خطيرة . ان كل أصدقائك يا نالين بابو لا يستطيعون أن يزوروك دون أن يدمغوا بأنهم تلاميذك ! وعندى أنه يجدر بك أن تتخلى عن بعض تصرفاتك التصوفية .. لقد بلغنى أنك تتنفس كما يفعل أفراد مذهب (اليوجى) ، وانك تطيل تأمل الشمس فى شروقها ، وانك لاتقدم على أكل أو شراب الا بعد طقوس خاصة .. ولن يؤدى هذا الا الى أن تعتبر « خارج غمدك » بالنسبة للمجتمع ، على حد هذا التعبير الدارج ! »

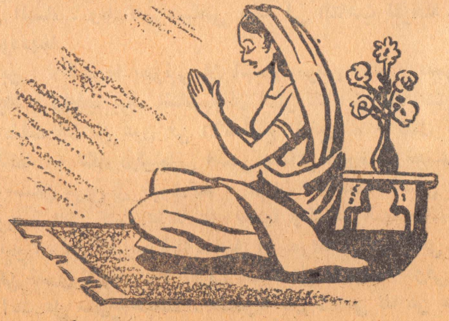
وغضت همنالينى حياء من لهجة أخيها ، ولكن ناليناكشا ابتسم قائلا : « اننى أقر بأن الرجل الذى لا يتمشى مع المجتمع العادى غالبا ما يكون منحرفا . ولكن ، هل من المؤكد ان ليس فى وسع انسان أن يظل دائما خارجا على مجتمعه ، كما لا يمكن للسيف أن يظل بعيدا عن غمده وقرابه ؟ ! .. ان الجزء الذى يخفيه الغمد من السيف ، هو أهم أجزائه .. أما الجزء الذى يظهر منه ـ وهو المقبض ـ فهو الجزء الوحيد الذى تبدو فيه الصنعة ، اذ ينقش عليه الصانع ما يروق له من نقوش ، وفق مزاجه الخاص . كذلك الأمر بالنسبة للانسان ، فهو لايستطيع أن يعرض ميزاته الخاصة الا خارج غمد المجتمع ، فما أراك راغبا فى أن تحرمه هذه الحرية ! .. على أن الذى يدهشنى هو كيف يتسنى للناس، بل كيف يجدون الفرصة ليناقشوا فيما بينهم ما أفعله فى خلواتى بعيدا عن عيون الملأ ؟ » .

فقال جوجندرا : « لعلك لا تدرك أن أولئك الذين أخذوا على عاتقهم مهمة تغيير الدنيا ، يرون أن من واجبهم أن يتبينوا ما يجرى فى بيوت جيرانهم ، فاذا أعوزتهم المعرفة ، استعانوا بموهبة أخرى لسد هذا النقص . ثم لا تنس يا نالين بابو أن اقبال المرء على أمور غير عادية ـ ولو فى خلواته ـ هو الذى يجذب انتباه الناس الى أعماله . ولو أنك سرت على العرف المألوف ، لما التفت اليك أحد . ألا ترى أن هيم لاحظت التمرينات التى تقوم بها على سطح دارك ، وتحدثت مع أبى بشأنها ، رغم أنها لم تدع لنفسها الحق فى اصلاحك ! »

وبدا على همنالينى الاستياء ، وهمت بأن ترد على أخيها ، لولا أن التفت اليها ناليناكشا قائلا : « ليس ثمة ما يدعو الى الاستياء .. فأى ذنب فى أن تستروحى النسمات على سطح دارك عند المساء ، بينما أكون منهمكا فى تدريباتى ؟ .. وليس يعيبك أن تكون لك عينان تبصران ! » .. فقال أنادا : « ولكنها لم تخبرنى مطلقا بأنهـا ترى فى طقوس عبادتك ما يعيب ! » .. واذ ذاك قـال جوجندرا : « لست أفهم ما الذى يضايقك من السير العادى للحياة البشرية ، فلماذا لا تسلك مسلك الناس العاديين .. وأى نفع فى أن تمارس طقوسا غريبة

فى خلوة تحرص على تكتمها ! .. أرجو ألا تغضب من قولى هذا ، فأنا انسان جد عادى ، أقنع بمكانى فى الصفوف المتواضعة ، ولا أطمع فى التطلع الى المقاعد الرفيعة ، اللهم الا لأرجمها بالطوب ! ولا حصر لمن هم على شاكلتى ، فاذا أنت تركتهم وراءك لترقى الى عالم بعيد عن الواقع ، أصبحت هدفا لما لا حصر له من الطوب ! » .. فقال نالينااكشا : « ولكن الطوب أنواع .. فلن يضير المرء أن تنعته بأنه مجنون ، أو قاصر العقل ، ولكنك حين ترميه بأنه متهوس دينى فانما تتهمه بأنه يقيم نفسه نبيا ويحاول أن يجمع حوله حواريين ، ولن يقوى شىء على تبرئته من هذا الهزل ! »

ولم يشأ جوجندرا أن يمضى فى الجدال ، فالتمس حجة للانصراف . ولبثت همنالينى منكسة الرأس وهى تعبث بطرف غطاء المائدة . ولو أن أحدا أنعم النظر فى عينيها ، لرأى دمعتين تتراقصان على أطراف أهدابها ! .. كان اتصالها اليومى بنالينااكشا قد كشف لها عن مواطن النقص فى شخصيتها ، فراحت تكافح جاهدة لتسلك الدرب الذى سلكه ! .. فلقد أظهر نالينااكشا الدنيا لها - فى ساعة محنتها ، وهى تتلفت حولها تنشد شيئا من العون - فى ضوء جديد ، فأخذت تزداد انصياعا للفكرة التى تولتها ، والتى راحت توحى اليها بأن تلزم نفسها نظاما قاسيا لترويض هذه النفس ، عسى أن يكون فى الترويض عون . ثم ان الأسى ليس من المشاعر التى تقنع بأن تقوم كمجرد اطار يحيط بالذهن ، وانما هو يبحث عادة عن متنفس له ، خلال الايحاء لصاحبه بأن يشغل نفسه بعمل صعب . وكانت همنالينى حتى ذلك الوقت تخشى العلانية ، وتكتم حزنها فى أعمق الغرف الخفية من قلبها . ومن ثم كان ارتياحها كبيرا حين قررت أن تقفو خطوات نالينااكشا ، وأن تروض نفسها على نظام تصوفى ، روحى : فجردت غرفتها من زينتها ، ولم تستبق فيها سوى سريرها الذى أخفته وراء ستار .



واصبحت تنثر الماء على أرض حجرتها وتكنسها بيدها فى كل صباح • ولم تحتفظ من زينة الغرفة بغير آنية للزهور • وصارت ترتدى ـ بعد الاغتســـال فى الصباح ـ ثوبا ناصع البياض ، ثم تجلس على الأرض ، والشمس تتدفق خلال النافذة ، ثم تسبح بروحها فى ضياء السماء وهوائها ! •• واغتبط « أنادا بابو» للاشراق الذى أضفته هذه الرياضة الروحية على محياها • وعندما كان ناليناكشا يفد على الدار ، كان ثلاثتهم يجلسون على أرض حجرة همنالينى ليتجاذبوا أطراف الحديث

ولم يكتم جوجندرا استهجانه ، فقال ساخرا : « لست أدرى ما الذى أصابكم جميعا ؟ •• انكم ـ فيما بينكم ـ قد حولتم البيت الى أرض مقدسة ، فلم يعد فيه موطىء لقدم شخص مثلى ! » • وكانت همنالينى تشعر فى بعض الاحيان بأن فى حديث أخيها ما يجرح شعورها ، ولكنها أصبحت تحذو حذو ناليناكشا فى هدوئه وتسامحه ، فتكتفى بأن تبتسم • لقد عثرت أخيرا على عون أكيد ،لايخيب، فأصبحت ترى فى الخجل أو الاستحياء ضعفا مزريا ! •• وكانت تدرك كل الادراك أن معارفها اعتبروا تقشفها هذا ضربا من التهوس ، ولكن ثقتها فى ناليناكشا واعجابها بمبادئه منحاها السلاح الذى تحصنت به ضد الجنس البشرى بأسره ، فأصبحت تواجه الدنيا غير متحرجة • وحدث ذات صـباح أن اغتسلت وأدت طقوسها ، ثم جلست فى خلوة على أرض غرفتها ، أمام النافذة المفتوحة ،مستغرقة فى التأمل ، واذا بأنادا بابو يقبل مصطحبا ناليناكشا • وكان قلب همنالينى قد أفعم بالتجرد والتواضع ، فسجدت أمامهما ، ومست الغبار العالق بأقدامهما، الأمر الذى جعل ناليناكشا يشعر بالاستياء • ولم يكن من عادته أن يزورهما فى مثل هذه الساعة المبكرة ، فأخذت همنالينى تتطلع اليه متسائلة • وما لبث أن قال انه تلقى نبأ من (بنارس) بأن أمه مريضة ، ومن ثم قرر أن يغـادر (كلكتا) بقطار المساء ، ولما كان سيقضى يومه فى التأهب للرحلة ، فقد رأى أن يفد مبكرا ليودعهما

وقال أنادا بابو : « شد ما يحزننى أن أسمع بمرض أمك • فعسى أن تهبها السماء شفاء عاجلا • وأحب بهذه المناسبة أن أذكر لك أننى لن أستطيع قط أن أوفيك جزاء ما بذلت لنا من عون فى الأسابيع الاخيرة » • فقال ناليناكشا : « بل أنا المدين لكما •• فلقد أوليتمانى أسمى مشاعر الجيرة ، وتجشمتما المتاعب فى سبيل توفير مسكن مريح لى بجواركما • ثم ان اخلاصكما أضفى معانى جديدة على المسائل العويصة التى كنت عاكفا على تأملها والتفكير فيها منذ زمن ! » • وهنا قال أنادا بابو : « من الغريب أننا ـ قبل أن نعرفك ـ كنا نعانى حاجة ماسة الى شىء ما لم نكن ندرى كنهه ، ولا نعرف سبيلا الى تحديده • وفى تلك الآونة المحيرة ، ظهرت انت على مسرح حياتنا ، فشعرنا بأن لا غنى لنا عن عونك • اننا

قوم لا نكاد نبرح دارنا ، ولا نكثر من الاختلاط بالمجتمع ، ولم يسبق لنا ان اغرمنا بحضور الاجتماعات والاستماع الى الأحاديث والمحاضرات . وكانت همنالينى أكثر منى بعدا عن هذه المناسبات . ومن ثم كان ما حدث نوعا من المعجزات .. اذ لم نكد نسمع من جوجن عن محاضرتك ، حتى ذهبنا لسماعها دون اقل تردد .. فكان هذا تصرفا لم يسبقه مثيل فى حياتنا ! .. مثل هذا الأمر لا يحدث ما لم يكن القدر قد ساقه الينا ، ليساعدنا فى حيرتنا ! » .
فقال ناليناكشا : « اذن دعنى بدورى أذكر لكما أمرا .. لم يسبق فى حياتى ان أدليت ببعض شئونى الخاصة لأحد غيركما ، اذ لا بد لمن يريد بلوغ أسمى درجات الصدق أن يكشف كل ما فى سريرته . وقد كان لمعونتكما الفضل فى تمكينى من تحقيق هذا الواجب . وهكذا أؤكد لكما اننى لم أكن لأستطيع أن أستغنى عن مساعدتكما ! »

ولم تشترك همنالينى فى الحديث ، ولكنها ظلت جالسة فى أشعة الشمس ، مستغرقة فى التأمل ، حتى آن لناليناكشا أن ينصرف ، واذ ذاك قالت له ببساطة: « لاتقصر فى أن تطمئننا على صحة أمك » . ومرة اخرى سجدت امامه تواضعا حين هم بالخروج !

الفصل الرابع والاربعون

◆ كان اكشاى قد غاب عن البيت فى الفترة الاخيرة ، فلما رحل «ناليناكشا» الى (بنارس) ، عاد جوجندرا يدعوه الى الشاى . وداخل اكشاى الامل فى أن يستبين ـ من تصرفات همنالينى ـ الى أى مدى كانت ذكرى رامش لا تزال متسلطة على افكارها . ولكنها فى الواقع بدت له فى خير حال . وقالت فى صداقة خالصة : « لم نعد نراك الا لماما ! » ، فرد متسائلا : « وهل تريننى أهلا لأن تروننى فى كل يوم ؟ » ، فضحكت قائلة : « اذا كنت ترى حقا ان المرء يجب أن لا يزور أحدا الا اذا كان جديرا بأن تقع عليه الابصار ، لوجب على الكثيرين منا أن يقضوا أيامهم فى عزلة ! » . واذ ذاك قال جوجندرا : « لقد ظن اكشاى أنه يستطيع أن يظفر بجائزة فى التواضع ، فاذا همنالينى تتفوق عليه ! على أننى أحب أن أعرب عن رأيى فى هذا الصدد . ان أمثالى من الناس العاديين ، رفاق مناسبون فى كل يوم ، ولكن هناك أفذاذا ، شواذا ، لا يستطيع المرء احتمالهم الا لماما ، ولا يطيق لقاءهم كثيرا ، ومن ثم فهم يهيمون فى الغابات، والجبال ، والوهاد . ولو أن المقام استقر بهم فى البيوت كبقية الناس ، لاضطر المتواضعون من أمثال جوجندرا وأكشاى الى أن ينطلقوا بدلا منهم فى الغابات ! » .
ولم يفت همنالينى ما انطوى عليه حديثه من غمزة لاذعة ، ولكنها لم ترد عليه ، وانما تحولت فصبت الشاى فى الاقداح للرجال الثلاثة . حتى اذا سألها

أخوها : « ألن تتناولى نصيبا من الشاى ؟ » ، قالت فى ثبات وهى تدرك أنها لن تنجو من تقريعه : « لقد عدلت عن تناول الشاى » • فهتف : « اذن ، فقد أصبحت زاهدة بمعنى الكلمة • لعل أوراق الشاى لا تحتوى على مقدار كاف من النكهة الروحية الصادقة ! لا ، هذا أكثر مما يحتمله المرء ، فدعى هذا التهوس يا هيم ، بحق السماء ! » •• وصب الشاى فى قدح وضعه أمامها • ولكنها قالت دون أن تمسه : « عجبا يا أبت •• انك لم تأكل شيئا مع الشاى ! » ، فأجاب أنادا بابو وصوته ويداه ترتجف : « صدقينى يا عزيزتى اذا قلت ان أى شىء آكله الآن سوف يقف فى حلقى فيخنقنى • لقد ظللت أمدا طويلا أحاول أن أتقبل فى صمت خشونة جوجن ، حتى بلغت حالا أخشى معها اذا تكلمت أن أقول فى وطيس اللحظة ما قد أندم عليه فيما بعد ! »

اذ ذاك نهضت همنالينى ، فسارت الى مقعد أبيها ، وقالت : « لا تغضب يا أبى • كان كرما من جوجن أن قدم لى القدح ، ومن ثم لم أشعر بأقل استياء • هيا ، تناول بعض الطعام ، فأنا أعرف أن الشاى لا يناسب معدتك ، ما لم تأكل معه شيئا ! » • ووضعت أمامه طبقا مليئا بالكعك ، فشرع يأكل فى تثاقل • وعادت همنالينى الى مقعدها ، وهمت بأن تشرب قدح الشاى الذى صبه لها جوجندرا ، لولا أن قفز أكشاى قائلا : « اسمحى لى بهذا القدح ، فقد فرغت من قدحى ! » • ونهض جوجندرا فأخذ القدح من أخته ، وتحول الى أبيه قائلا : « آسف ، اغفر لى ! » •• ولم يتمالك أنادا صوته ، وترقرقت الدموع فى عينيه ، فانسحب جوجندرا واكشاى من الغرفة فى صمت • وبعد لحظات ، نهض أنادا بابو فتأبط ذراع ابنته ، وصعدا معا الى الطابق العلوى .

وفى تلك الليلة ، انتابت أنادابابو نوبة من الالم ، فاستدعى الطبيب الذى ذكر أنه مصاب بالتهاب معوى ، ونصح له بأن يمكث عاما ـ أو ستة أشهر على الاقل ـ فى مكان ريفى للاستجمام • وقال الشيخ بعد أن خفت وطأة الألم وانصرف الطبيب : « لنذهب الى بنارس فنقيم بها فترة من الزمن يا عزيزتى هيم ! » •• وكانت هذه الفكرة قد خطرت ببال « همنالينى » فى الوقت نفسه : اذ أنها كانت قد شعرت عقب رحيل « ناليناكشا » بتراخ فى عبادتها ورياضتها الروحية • كأنما أصاب تحمسها فى غيابه نوع من الفتور • ولقد حاولت فى اليوم التالى أن تتبع تعاليمه فى اهتمام متضاعف ، وأخذت تجهد نفسها فى ذلك ، بيد أنها أحست بقنوط دفع الدموع الى عينيها • وعندما حان موعد الشاى ، حاولت أن تبدى مرحا وكرما ، ولكنها أحست بكابوس يجثم على قلبها وعاودها ألم الذكريات القديمة ، ولوعة الحيرة التى اكتنفتها من قبل • لذلك جاء اقتراح أبيها فى موعده الملائم ، وصادف هوى من نفسها ، فاحتضنته قائلة : « أجل ، دعنا نرحل الى هناك يا أبت ! »

واذ لاحظ جوجندرا الاستعدادات التى كانت تجرى فى اليوم التالى ، سأل عما هناك ، فقال له أبوه انه وهمنالينى راحلان الى الريف ، فسأله «جوجندرا» : « والى أى مكان فى الريف ؟ » .. فأجاب أنادا ، وهو غير راغب فى أن يصارحه: « سنقوم بجولة فى الريف قبل أن نستقر فى مكان » .. فقال جوجندرا : « كم يؤسفنى أن لا أستطيع أن أصحبكما . فقد قدمت طلبا لأحصل على منصب فى التدريس ، ولا بد لى من أن أنتظر الرد ! »

الفصل الخامس والأربعون

◆ عاد رامش من (الله آباد) الى (غازيبور) فى ساعة مبكرة من الصباح . وكانت الطرقات شبه خالية ، وبدت الأشجار التى كانت تحف بها منكمشة كما لو كانت تنشد الدفء من البرد اللاذع ! وخيم على كل مكان ضباب بدا كالبجعة الراقدة على بيضها . ولم يكن رامش ـ وهو ملتف فى معطف فضفاض ، فى العربة التى أقلته الى داره ـ ليشعر بغير وجيب قلبه الملهوف . وتوقفت العربة لدى الباب الخارجي فغادرها . لابد ان كمالا قد سمعت صوت العجلات ، فخفت لانتظاره فى الشرفة . وكان قد حمل لها من (الله آباد) قلادة ثمينة تناول صندوقها من جيب معطفه اذ ذاك . ولكنه حين ازداد اقترابا من المبنى ، ألفى جميع الأبواب مغلقة ، وقد استسلم « بيشان » ـ الحارس ـ للنعاس فى الشرفة. وتوقف برهة مكتئبا ، ثم صاح ينادى « بيشان » ، وهو يرجو أن يوقظ صوته نائما آخر كان يهفو الى لقائه !.. ما كان أبرد هذا الاستقبال لشخص سهدته اللهفة والشوق !.. وعاد يكرر النداء ، ولكن « بيشان » لم يستيقظ ، فاضطر فى النهاية الى أن ينهره . وما لبث الحارس أن استوى جالسا ، وتلفت حوله فى حيرة ، فهتف به رامش : « هل مولاتك فى الدار ؟ » .. فأجاب الرجل بصوت أثقله النعاس : « أجل ! » ، ثم عاد الى نومه !

وانفتح باب الدار لأول دفعة من يد رامش ، فدخل هذا ، وراح يطل فى كل غرفة ، فاذا بها خالية . وصاح مناديا : « كمالا » ، ولكنه لم يتلق جوابا . وجاس فى أرجاء الحديقة ، وبحث فى المطبخ ، وفى غرف الخدم ، وفى الحظيرة ، دون أن يعثر لكمالا على أثر . وفى تلك الأثناء كانت الشمس قد أشرقت ، وانطلقت الغربان تنعق ، وظهرت فتاتان أو ثلاث من القرويات يحملن الجرار على رؤوسهن ، ليملأنها بالماء . وعاد رامش الى مبنى الدار ، فاذا بيشان مستغرق فى النوم ثانية ، فانحنى يهزه فى عنف ، حتى اذا أفاق أخيرا ، قفز مستويا على قدميه . وسأله رامش : « أين مولاتك ؟ » .. فأجاب : « انها فى البيت بالطبع». قال رامش : « هراء .. انها ليست هناك ! » .. وأجاب بيشان : « ولكنها جاءت

بالأمس » . فسأله : « وأين ذهبت بعد مجيئها ؟ » .. وشهق « بيشان » اذذاك .. وأقبل « اومش » في تلك اللحظة ، محتقن العينين لطول السهر ، فسأله مولاه : « اين الأم يا أومش ؟ » .. قال : « انها هنا منذ أمس ! » ..

– وأين كنت أنت ؟

– أرسلتني أمي لأشهد التمثيل في دار سيدو بابو

وقفز رامش الى العربة ، وأمر الحوذي بالانطلاق الى دار « العم » .. فاذا الاضطراب يسود الدار . واتجه فكره الى أن«كمالا» قد فوجئت بمرض ما..ولكنه أخطأ الحدس . فقد أصيبت الطفلة « أومي » خلال الليل بمرض جعل اهل الدار يتوقعون موتها ، فلم يغمض لأحد منهم جفن . وخطر لرامش انهم استدعوا « كمالا » لتساعدهم في تمريض الطفلة ، ولكن « بيبين بابو » – الذي استقبله – لم يكن يدرى ان كانت « كمالا » قد وفدت على الدار او لم تفد . وأقبل «أومش» في تلك الأثناء ، فنفذ الى داخل البيت ، وسأل « سايلاجا » عنها ، فهتفت هذه: « عجبا .. ألم تذهب معها الى داركم بالأمس ؟.. لقد فكرت في ايفاد الخادم اليها في الليلة السالفة ، ولكن مرض أومي شغلني » .. فهتف أومش في انين : « اذن ، فهي ليست هنا ! » .. وهنا صاحت به سايلاجا : « ما الذى تعنيه ؟.. اين كنت طيلة الليل ؟ .. وأين كان بيشان ؟ » .. فقال الصبي : « لقد استحثتني على أن أذهب لمشاهدة التمثيل..اما بيشان فلا يدرى شيئاعلى الاطلاق .. لقد أسرف في احتساء البلح المخمر في الليلة السالفة ! »

وأمرته « سايلاجا » بأن يدعو اليها زوجها . وما أن عرف الرجل ان «كمالا» لم تكن في دارها ، حتى جزع ، فهتفت به : « اذهب مع رامش بابو فابحثا عنها » . واستقل الرجلان العربة وعادا الى دار رامش ، فراحا يستدرجان بيشان مرة أخرى ، ولكن جهودهما لم تنتزع منه سوى القصة الهزيلة التالية : « خرجت كمالا وحدها قبيل الغروب الى النهر ، وقد عرض عليها بيشان ان يصحبها فأبت ، ومنحته روبية . وجثم عند الباب الخارجي يحرس الدار ، واذا ببائع يحمل قدرا مليئا بشراب البلح المخمر .. ولا يذكر بيشان ما حدث بعد ذلك ! » .. وأشار الى الطريق الذى سلكته كمالا نحو النهر ، فانطلق فيه رامش وبيبين وأومش ، بين النباتات الندية ، للبحث عن كمالا . وتوقف ثلاثتهم عند ضفة النهر . فقد كانت تمتد أمامهم مساحة شاسعة من الرمال المتوهجة تحت شمس الصباح . ولم يبد خلال المنظر أثر لنفس حية !.. وصاح أومش : « اواه ، يا أماه !.. أين أنت ؟ » .. ولكنه لم يتلق ردا ، اللهم الا رجع الصدى . وفيما كان أومش يتفرس في المكان ، أبصر على بعد شيئا أبيض ، فاندفع اليه .. واذا بحزمة من المفاتيح مربوطة الى منديل ، وملقاة عند حافة الماء . ولم يكن ثمة شك في انها مفاتيح كمالا !.. وعلى مقربة من المكان ، رأوا

آثار قدمين صغيرتين ، سارتا على الأرض الرطبة ، نحو الماء • ووقع بصر أومش في الماء الضحل على شيء يلمع ، فأسرع اليه ، واذا به قلادة ذهبية مرصعة بالميناء، كان رامش قد أهداها الى كمالا !•• واذ بدا جليا ان كل هذه الظواهر تشير الى نهر (الجانجز) ، طار صواب أومش ، فقفز الى الماء صارخا : « أماه •• أواه ، يا أماه ! » •• وراح يغطس ويطفو وهو يتخبط كالمجنون • وكان رامش مذهولا،



مضعضع الحواس • على ان « بيبين » راح ينادى الصبى ، فكان اومش يصرخ : « لا •• لن أخرج من الماء •• أواه يا أماه ! •• كيف تتركينني هكذا ! » •• وبعد لأى ، زحف الى البر وارتمى على الرمل يبكي في حرقة مريرة !

★ ★ ★

◆ ألقى « بيبين » يده على كتف رامش ينبهه من وجـومه الآسى ، قائلا : « هيا يا رامش بابو •• اننا نضيع الوقت هنا • يجب أن نبلغ الشرطة الأمر ، ليتولوا البحث والتحرى »

ولم يحظ أحد من المحيطين بسايلاجا بشيء من الطعام أو النوم فيذلك اليوم، بل راحت صيحات الحزن تدوى في الدار •• واستؤجر بعض الصيادين ليبحثوا في النهر ، كما أرسل الشرطة داوريات في ارجاء الريف ، واجريت تحريات خاصة في محطة سكة الحديد ، فتبين ان قطار الليل لم يقل أية فتاة تنطبق عليها أوصاف كمالا !

ووصل « العم » بعد ظهر ذلك اليوم ، فلما ألم بالتفصيلات ، وسمع بما كان من تصرفات « كمالا » الغريبة قبل اختفائها ، ازداد اقتناعا بانها اغرقت نفسها في النهر • واذ ذاك قالت الخادم : « الآن عرفت لماذا صرخت أومى وأصـابها المرض الداهم في الليلة الماضية ! » • وكانت الصدمة من القسوة عـلى رامش بحيث جعلت الدموع تتحجر في عينيه •• وأخذ يقول لنفسه : « من يتصور أن

يمنحني نهر (الجانجز) كمالا ، ثم يعود النهر ذاته فيبتلعها هكذا ٠٠ كزهرة طاهرة ألقاها الى الماء مؤمن يعبد النهر ! » ٠ وعاد الى الضفة بعد الغروب ، فظل واقفا فى البقعة التى كانت المفاتيح ملقاة عندها ، يحدق فى آثار القـــدمين الصغيرتين ٠ ثم خلع نعليه ، ونزع عنه ثيابه حتى خصره ، وخاض فى الماء حتى منتصف المجرى ٠ وفى هدوء ، تناول القلادة من صندوقها وألقى بها فى النهر !

ولم يطل مقامه فى (غازيبور) ، ولكن أهل دار « العم » كانوا على درجة من الحزن لم يفطنوا معها الى غيابه !

الفصل السادس والأربعون

◆ بدا المستقبل أمام رامش فارغا ، فلم يعد له أمل يصبو اليه ، ولا عمل منتظم ، ولا مقام يستقر فيه ٠ ولا ينبغى ان نظن انه كان قد نسي همنالينى ، بل انه كان يقصى ذكراها عن باله ، قائلا : « ان الضربة القاسية التى وجهها الى القدر ، جعلتنى لا أصلح لهذه الدنيا ، فما أنا الا شجرة محطمة اجتثت من غابة يانعة ! » ٠٠ وأخذ ينشد العزاء فى الترحال ، متنقلا من مكان الى آخــــر ٠٠ فشاهد معابد (بنارس) الوثنية وهو فى سفينة على نهر (الجانجز) ، ثم توجه الى (دلهى) ، ونزل فى (كتب‌منار» ، ثم رحل الى (آجرا) حيث زار « التاج‌محل» فى ضوء القمر ٠ ومن (امريتسار) بمعبدها الذهبى ، رحل الى (راجبوتانا) فحج الى الأضرحة المقدسة على جبل (آبو) ٠ وما كان لجسده ولا لعقلـــه أن يعرفا الراحة ، بعد ان استبدت به روح الترحال ٠ على ان الحنين الى بلدته ما لبث ان خالجه ٠٠ الحنين الى البلدة الآمنة ، الوادعة ، التى شهدت طفولته ، والتى نسيها !

وأخيرا ، استقل القطار السريع الى (كلكتا) ٠ وظل أياما قبل أن يجد من نفسه الجرأة على أن يزور حى (كالوتولا) ٠ وبلغ فى أحد الأيام مدخل الحارة التى كان يقطنها ٠ وفى الليـلة التالية ، اسـتجمع جرأته وسار حتى بلغ دار « انادا بابو » ، فاذا النوافذ والأبواب مغلقة وموصدة بالمزاليج ، ولا أثر لانسان حى فى البيت ٠ وخطر له أن « سوخان » ــ الحارس ــ قد يكون هناك ، فطرق الباب مرارا ، وراح يناديه ، ولكنه لم يحظ بجواب ٠ وأخيرا ، فطن اليه جار يدعى « تشاندرا موهان » كان يجلس فى شرفة داره وهو يدخن الغليون ، فصاح: « اهلا بك يا رامش بابو ٠٠ أهذا أنت حقا ؟٠٠ كيف حالك ؟٠٠ ليس فى دار أنادا بابو أحد » ٠ فسأله : « أتعرف أين ذهبوا يا سيدى ؟ » ٠ قال « تشاندرا موهان » : « لست أعرف ٠٠ كل ما ادريه انهم ذهبوا الى الريف » ٠٠ قال : « ومن الذى ذهب منهم ؟ » ٠٠ فأجاب الرجل : « أنادا بابو وابنته » ٠٠ فعاد

يسأله : « أولم يصحبهما أحد ؟ » ٠٠ فقال « تشاندرا » : « لا ٠٠ فقد شاهدتهما بنفسى عند رحيلهما »

ولم يعد « رامش » يقوى على تمالك نفسه ، فقال : « لقد قيل لى ان سيدا يدعى نالين بابو صحبهما » ٠ واذ ذاك قال تشاندرا : « هذا النبأ غير صحيح ٠ لقد أقام نالين بابو فترة فى مسكنك القديم ، ثم رحل الى بنارس قبل مغادرتهما كلكتا ببضعة أيام » ٠ وهنا أخذ رامش يمطر الرجل بالاسئلة عن « نالين بابو » فعرف منه ان اسمه « ناليناكشا تشاتبودياى » ، وقد عرف عنه انه كان يمارس الطب فى (رانجبور) ، ولكنه أصبح يقيم مع أمه فى (بنارس) ٠ وما لبث رامش أن سأل عن « جوجندرا » ، فعرف أنه يقيم فى بلدة (بيسايبور) بولاية (مايمنسينغ) ، حيث عين ناظرا لمدرسة ثانوية هناك

ولم يمض وقت طويل على انصراف رامش ، حتى أقبل « أكشاى » ، اذ كان « جوجندرا » قد أوصاه بأن يتفقد الدار فى غياب الأسرة ، فبادره « تشاندرا موهان » قائلا : « لقد كان رامش بابو هنا منذ دقائق ٠٠ ولم يمض وقت يذكر على انصرافه ! » ٠ فهتف أكشاى : « أحقـا ؟٠٠ وماذا جاء يبغى ؟ » ٠٠ قال تشاندرا : « لست أدرى ، ولكنى أبلغته كل أنباء الأسرة ٠ وكان يبدو سقيما معلولا ، حتى اننى لم أكد أعرفه ! » ٠٠ فسأله أكشاى : « أفتعرف أين يقيم الآن ؟ » ٠٠ قال : « كان فى غازيبور ، ثم غادرها ، ولم يقرر بعد أين يكون مقامه » ٠٠ فهتف أكشاى : « آه ! » ، ثم انصرف الى شأنه

أما رامش فقد عاد الى مسكنه وهو يفكر ، قائلا فى نفسه : « لا يزال القدر يلعب بى فى قسوة ٠ ان علاقتى بكمالا ، وعلاقة ناليناكشا بهمنالينى ، موضوع صالح لرواية ٠٠ ورواية مشوقة ، مؤثرة !٠٠ مثل هذه العقدة لا يقوى علـى ابتكارها سوى القدر الذى لا يتورع عن شىء !٠٠ ان اغرب الأمور لا تحدث الا فى الحياة الواقعية ٠٠ أغرب الأمور التى لا يجرؤ روائى على أن يقدمها الى الرأى العام ! » ٠٠ ومع ذلك ، فقد شعر بانه تحرر من أضـنى حيرة ٠٠ ولابد ان القدر لن يقسو عليه اذا ما شرع يؤلف الفصل الأخير من رواية حياته !

★ ★ ★

◆ كان « جوجندرا » يقيم فى منزل من طابق واحد ٠ وفيما كان مستغرقافى مطالعة احدى الصحف ، فى صباح يوم الأحد من أحد الأسابيع ، اذا برجل من السوق يدفع اليه برسالة ٠ وفرك عينيه غير مصدق حين رأى الخط الذى كان على غلافها ٠ فلما فضها ، وجدها من رامش ، يذكر فيهـا أنه يرتقب رده ، اذ لديه حديث هام يريد أن يفضى به اليه ٠ وقفز « جوجندرا » عن مقعده ، وقـد نسى الفراق العاصف الذى حدث بينه وبين رامش ، وتملكته ذكـريات زمالة

الصبا • والواقع أنه ابتهج حين فكر فى لقاء رامش ، كما تملكه نوع من الفضول• ولم ير أى بأس فى ان يقابله ، لا سيما وقد كانت همنالينى بعيدة عنهما • ومن ثم انطلق مع الرسول الى حيث كان رامش فى الانتظار • والفاه جالسا على صفيحة مقلوبة من صفائح البترول ، فى متجر بدال ، فسار اليه ، وشده من يده صائحا : « لعمرى ، اننى لا أكاد أفهم طباعك ، فهى غريبة كعهدى بها دائما •• لماذا لم تأت فورا الى دارى بدلا من أن تقبع فى حانوت بدال ؟ » •• وبهت رامش لهذه الحفاوة ، فلم يحر جوابا ، واكتفى بالابتسام ، بينما صحبه جوجندرا فى عجلة ، وهو لا يكف عن الكلام : « ليقل علماء الدين عن القدر ما يحلو لهم ، ولكنى لا أكاد أفهمه مطلقا • ألا انظر الى ما صرت اليه !•• لقد نشأت فى المدينة، على خير ما ينشأ عليه ابناء المدن ، فاذا بالقدر يلقى بى فى هذه البطاح المقفرة ، حيث تعانى روحى الجوع ! » •• فقال رامش وهو يجيل بصره فيما حوله : « ما هذه ببلدة سيئة ! » •• قال جوجندرا : « ما الذى ترمى اليه ؟ » •• فاجاب رامش : « أعنى ان الوحدة والعزلة تتوفران فيها •• والمهم فى الأمر ، هو راحة البال ! » ، فصاح جوجندرا : « لا تحدثنى عن هذا ! •• لقد قضيت فترة كدت أختنق فيها براحة البال ، فلم يمض وقت طويل حتى عدت الى هوايتى التى اقتل بها الوقت والسأم •• هواية المشاغبة والخصام ، وانا الآن فى شقاق محتدم مع سكرتير مجلس ادارة المدرسة ! » •• ومضى يحدثه عن متاعبه فى المدرسة ، ومع السيد الاقطاعى فى المنطقة !

وبلغا أخيرا دار « جوجندرا » ، حيث تهالك « رامش » فى مقعد • ولكن الآخر صاح : « لا تجلس الآن ، فانا لم أنس بعد اعتزازك بحمام الصباح ، فاذهب واغتسل ريثما أضع الماء على النار ، واتخذ من وصولك حجة لأحظى بقدح آخر من الشاى ! » • وقضيا يومهما فى أكل ، وكلام ، واستجمام ، دون أن يدع جوجندرا لرامش فرصة يذكر فيها المهمة التى حملته الى (بيسايبور) • حتى اذا فرغا من العشاء ، اتخذا مجلسيهما الى جوار المصباح • وبينما كانت الذئاب تعوى فى الخارج ، وجد رامش الفرصة ليفضى بمهمته ، فقال : « لعل غريزتك قد انبأتك يا جوجن بما أحضرنى الى هنا • لقد سألتنى مرة عن أمر لم يكن بوسعى ان اجيبك عنه • اما الآن ، فلم يعد ثمة ما يمنعنى من الاجابة ! »

واخلد رامش الى الصمت • ولكنه ما لبث بعد لحظات ، ان شرع يروى - فى بطء - قصة علاقته بكمالا ، من البداية حتى النهاية • وكانت العبرات فى بعض الأحيان تخنق صوته ، وفى أحيان أخرى كان هذا الصوت يتهدج • وكان الشاب يكف عن الكلام فى بعض المواضع •• وجوجندرا يصغى فى صمت • حتى اذا فرغ رامش من قصته ، تنهد جوجندرا ، ثم قال : « لو انك رويت لى هذه القصة ، فى ذلك اليوم ، ما صدقتك ! » •• فقال رامش : « وانها لا تزال

اليوم ، كما كانت اذ ذاك ، بعيدة عن العقل ٠ ولكنى أريد أن أصحبك الى القرية التى تزوجت فيها ، ثم الى خال كمالا » ٠٠ فقال صاحبه : « لن أتحرك من هنا ٠ فأنا على استعداد لأن أصدق كل كلمة ، دون أن أغادر مقعدى ٠ ولقد كنت دائما متعودا على أن أصدقك دون أن أطالبك بدليل ، ولابد الآن من أن تغفر لى المرة الوحيدة التى حدت فيها عن هذه العادة ! » ٠٠ ونهض من مجلسه ، فتعانق الصديقان الحميمان ٠ وعندما قوى رامش على الكلام مرة أخرى ، قال : « لقد أوقعنى القدر فى شباك من الزيف لا فكاك منها ٠٠ اما وقد تخلصت منها أخيرا ، فلم يعد ثمة ما يدعونى الى الكتمان ، وها قد آن لى أن أتنفس فى ارتياح وحرية! اننى حتى اليوم لا أعرف - ولا اظننى سأعرف مطلقا - السبب الذى حدا بكمالا الى الانتحار ، ولكنى موقن من أن هذا كان الحل الوحيد لها ! كنا معا فى موقف معقد ، أرانى أرتجف كلما ذكرت الصعاب التى كانت تحوطه ، لو لم تقدم هى على قطع الخيوط٠ لقد انتزعت فجأة ، وعلى غير توقع ، من بين فكى الموت، ولكنها عادت ففابت بينهما فجأة ، وعلى غير توقع ٠٠ أيضا ! »

قال « جوجندرا » : « ما ينبغى أن تسلم بأن كمالا انتحرت ٠٠ على ان الطريق واضحة أمامك ٠٠ ليس هناك الآن سوى نالينا كشا ٠ اننى لا أكاد أفهم هذا الصنف من الناس ، وقد اعتدت أن لا أميل الى ما لا أفهمه !٠٠ ولكن معظم الناس على النقيض ، يستهويهم ما لا يفهمونه ٠ وهذا هو سر خوفى على هيم ٠ فلقد بدأ تطورها يزعجنى حين امتنعت عن شرب الشاى ، وعن تناول اللحوم والأسماك !٠٠ ثم فقدت عيناها بريقهما القديم ، وأصبحت تبتسم فى هدوء ، ولو وخزها المرء بكلامه ٠ على أننا نستطيع أن ننقذها قبل فوات الفرصة ، اذا أنت ساعدتنى ٠ فهيا نتعاون فى الكفاح ضد النسك والتصوف ! » ٠٠ فضحك رامش بينما استطرد جوجندرا : « كل ما علينا هو ان ننتظر حتى تبدأ عطلة عيد الميلاد » ، فقال رامش : « لا تزال أمامنا بضعة أيام ، فهلا يحسن أن أسبقك ؟ » ٠٠ ولكن جوجندرا أجاب : « لا ، لن يكون هذا صوابا ٠٠ انا الذى فسخت الخطبة ، وانا الذى يجب ان يجاهد لاعادتها ٠ لن أدعك تسبقنى وتستأثر بشرف الفوز ٠٠ انك ضيفى للعشرة الأيام الباقية ٠ لقد أقصيت عنى كل الناس هنا ، بمشاكستى ، ومن ثم فأنا فى حاجة الى زمالة صديق ، لأسترد حسن المعاشرة ٠ لم يكن لدى ما يؤنسنى فى الليالى سوى عواء الذئاب ٠ وقد أوحشنى سماع الأحاديث ، حتى ان صوتك ليبدو فى أذنى أعذب من الموسيقى ! »

الفصل السابع والاربعون

◆ كان النبأ الذى تلقاه « أكشاى » من «تشاندرا موهان» مادة لتفكير عميق٠

فقد راح يسائل نفسه : « ترى ما وراء هذا الأمر ؟ .. لقد كان رامش يمارس المحاماة فى غازيبور ، كما قال لتشاندرا ، فما الذى جعله يترك عمله ، ويجسر على أن يظهر بوجهه فى هذا الشارع ؟ .. انه لن يلبث أن يتبين أن أنادا بابو وهمنالينى فى (بنارس) ، فيطير الى ذلك المكان ! » . ومن ثم قرر أكشاى أن يرحل الى (غازيبور) ليجمع ما يمكن أن يصل اليه هناك من أنباء ، ثم يتجه الى بنارس ، حيث يقابل أنادا بابو . وهكذا لم يلبث - بعد أيام - أن رؤى يهبط فى (غازيبور) فى أصيل يوم من أيام شهر ديسمبر وشرع يستدرج أصحاب المتاجر فى السوق ، سائلا عن عنوان محام من البنغال يدعى « رامش بابو » ، بيد أن مساعيه المرهقة أسفرت عن أن أحدا فى المنطقة لا يعرف محاميا بهذا الاسم . فعمد الى السؤال فى المحاكم ، واستطاع أن يعــرف أن ذلك « الرامش » كان يقيم بعض الوقت فى دار « العم » ، ولكن أحدا لا يعرف ان كان لا يزال هناك .. فقد اختفت زوجته ، ومن المعتقد أنها غرقت . ومن ثم يمم شطر بيت « العم » ، وهو يحدث نفسه : « الآن عرفت لعبة رامش .. لقد ماتت زوجته ، ولن يلبث أن يقنع همنالينى بأنه لم يتخذ يوما أية زوجة . ولسوف تصدق همنالينى - فى حالها الحاضرة - أى شىء يقوله رامش . ان هــؤلاء الطيبين متعبون حقا ! » .. وهنأ نفسه على سعة تفكيره !

وما أن سأل أكشاى « العم » عن رامش وكمالا ، حتى عجز الرجل عن كبح عواطفه ، فتدفقت الدموع من عينيه ، وهو يقول : « أما وقد كنت صديقا حميما لرامش بابو ، فلا بد أنك عرفت العزيزة كمالا معرفة وثيقة . لذلك لن يدهشك أن تعلم أننى لم أكد أعرفها يوما أو يومين ، حتى نسيت تماما أنها ليست ابنتى . وكيف كان بوسعى أن أتنبأ بأن تقدم فتاة رقيقة مثلها على توجيه مثل هــذه الصدمة لشخص أسرت عواطفه فى مثل هذه الفترة الوجيزة ! » .. فقال أكشاى متظاهرا بالعطف : « ان الأمر كله يبدو متعذرا على الفهم ، ومن الواضح أن رامش ما كان ليستطيع أن يسىء معاملتها ! » . فقال الشيخ : « ان رامش صديق لك ، فلا تستأ اذا قلت لك اننى فى الواقع لم أستطع أن أفهم هــذا الشاب . كان لطيفا حقا ، ولكن من المستحيل أن تعرف ما يدور بخلده ، ولا بد أنه انسان غير عادى ، والا فكيف يفسر المرء اهماله مثل تلك الزوجة الصغيرة الفاتنة ؟ .. لقد كانت وفية له ، ولكن ابنتى تستطيع أن تجزم أن كمالا كانت تبدو فى بعض الأحيان مهمومة من أجل مسألة تكتمتها فى نفسها .. لشد ما يحطم قلبى أن أتصور ما عانته فتاة مثلها من عذاب قبل أن تضع لحياتها مثل هذه الخاتمة . ولعل أقسى ما فى الأمر أننى كنت فى (الله آباد) . ولو أننى كنت هنا ، لما صدقت بأن قلبها يطيعها على أن تهجرنى ! »

وفي الصباح التالي ، اصطحب « العم » أكشاى الى دار رامش ، كما زارا البقعة التي اختفت عندها كمالا • ولم ينبس أكشاى ببنت شفة ، حتى عادا الى دار «تشاكرابارتى» ، واذ ذاك قال الشاب للشيخ : « أتعرف ياسيدى •• اننى لا أعتقد أن كمالا قد انتحرت فعلا باغراق نفسها فى الجانجز » ، فقال العم :« وما رأيك اذن ؟ » • قال أكشاى : « اننى أميل الى الأخذ بأنها فرت من البيت ، ومن الواجب أن نمعن فى البحث عنها » • وقفز العم من مكانه في انفعال ، وهتف : « ربما كنت على حق ! •• انه أمر ليس ببعيد الاحتمال » •• فقال أكشاى : « ان بنارس ليست بعيدة عن هنا • وثمة أسرة كانت صديقة لرامش ولى ، تقيم هناك ، فلعلها لجأت اليها ! » ، فصاح العم : « كيف ؟ •• ان رامش بابو لم يحدثنى قط عن هذا ؟ •• ولو عرفت ، لما توانيت فى السؤال عنها هناك » • واذ ذاك قال أكشاى : « بوسعنا أن نذهب معا الى بنارس ، وأنت خبير بهذا الاقليم ، ففى وسعك أن تقوم بكل التحريات الممكنة »

وبادر « العم » الى الموافقة • وما كان أكشاى ليطمع فى أن تصدقه همنالينى ، ولكنه أيقن بأن شهادة « العم » كفيلة بأن تعزز أقواله ، فتتأكد همنالينى من خداع رامش • ومن ثم رحل الشيخ الى (بنارس) دون أن يفطن الى أنه اتخذ شاهدا لاثبات ادانة صديقه !

الفصل الثامن والاربعون

◆ كان أنادا بابو قد استأجر دارا فى مكان منعزل من الضاحية القائمة خارج المدينة • وكان عند وصوله الى (بنارس) قد علم أن الحمى والسعال البسيطين اللذين أصابا « كشمنكارى » ـ أم ناليناكشا ـ قد تطورا الى التهاب رئوى ، وضاعفت رطوبة الجو من وطأة الحمى ، كما ساعد على استفحالها تشبث السيدة بالاغتسال فى نهر (الجانجز) فى كل صباح ، وفقا للتقاليد الدينية !•• على أن أخطر مراحل المرض لم تلبث أن ولت بفضل ما بذلته همنالينى من رعاية لا تهن • بيد أن المرض خلف السيدة العجوز فى ضعف شنيع • وهنا لم تكن لهمنالينى حيلة ، اذ كانت « كشمنكارى » متعصبة لتقاليد دينها ، فكانت ترفض أن تتناول الأدوية المقوية والأغذية التى وصفها الطب لها ، من يدى فتاة براهمية • ولقد اعتادت فى حياتها أن تطهو طعامها بنفسها ، فأصبح نالينا كشا ـ فى مرضها ـ يعد لها القوت ويقدم لها الوجبات جميعا • وكانت تأسى لهذا وتقول له : « كان ينبغى أن أموت منذ زمن •• لماذا شاء الرب أن يستبقينى على قيد الحياة ، ويجعلنى عبئا عليك ؟ » •• ولقد كانت العجوز ـ رغم زهدها وتقشفها ـ دقيقة فى حرصها على أن توفر الجمال والنظافة فيما حولها ، وعلمت

« همنالينى » من « نالينا كشا » بهذه الخصال ، فحرصت على أن تعنى بالبيت وتنظفه بنفسها • وكانت تهتم باختيار ثيابها اذا ما تاهبت لزيارة السيدة العجوز • وكان « انادا بابو » يوافيها بالزهور ، التى اعتادت « همنالينى » أن تنسقها فى ذوق بديع حول فراش المرض

وكان « نالينا كشا » يحاول أن يغرى أمه على أن تسمح باستئجار خادم للعناية بها ، اذ لم تكن تقبل أن تتلقى خدمة من أجير ! •• ومع أن البيت كان يضم عددا من الخدم بالفعل ، الا أن السيدة العجوز كانت تحرص على أن يقتصر عملهم على المهام الخشنة • أما الأعمال التى تتعلق بها شخصيا ، فكانت تأبى أن يقوم بها اجراء ، طبقا لتقاليدها الدينية • وكانت مولعة بذوى الحسن من الاطفال ، من الجنسين • وفى أثناء عودتها من الاغتسال فى (الجانجز) ، فى كل صباح ، كانت لا تلبث ـ وهى ماضية تنثر الزهور والماء المقدس على كل صورة أو تمثال للاله « سيفا » ـ أن تلتقط صبيا فلاحا مليحا ، أو فتاة براهمية بيضاء البشرة ، لتصحب هذه اللقية الى البيت • وبفضل ماكانت تغدقه من لعب ، ونقود ، وحلوى ، استطاعت أن تكتسب قلوب أطفال الجيرة • وكان هؤلاء الصغار يقبلون على البيت فى بعض الأحيان ، فينتشرون فى أرجائه ، مما كان يبعث الاغتباط فى نفس السيدة العجوز • وكانت لها هواية أخرى ، تلك هى أنها لم تكن تمر بأية سلعة بديعة ـ مهما تكن تافهة الشأن ـ الا وبادرت الى شرائها ، لا لتدخرها كتحفة ، وانما لتخلعها على واحد من أولئك الذين كانت تعرف أنهم



يقدرون هداياها • وكثيرا ما كان أقرباؤها ومعارفها يتلقون لفافات ثمينة لا يعرفون مرسلها •• وهى صاحبتها فى الواقع ! •• وكانت تقتنى صندوقا من الأبنوس تحتفظ فيه بعدد من الأساور البديعة ، والثياب الحريرية الجميلة ،

استعدادا لتقديمها الى الزوجة التى يبنى بها « ناليناكشا » يوما • وكان تصور هذه العروس يمد السيدة العجوز بأحلام بهيجة !

ومع أن « كشمنكارى » كانت حريصة على التزام الزهد والتقشف ، الا أنها كانت تعارض - فى شدة - حياة التقشف التى جنح اليها « ناليناكشا» ، وكانت ترى أن الامعان فى هذا اللون من التصوف لا يليق بالرجال ، لأن الرجال - فى نظرها - كانوا مجرد أطفال كبار ، ومن ثم كانت تبدى اشفاقا وتسامحا نحو من يبدى منهم زهدا وتقشفا فيما يتعلق بالطعام والشراب • وكانت تتساءل فى استنكار : « لماذا يقسو الرجل على نفسه ؟ » •• وما كانت لترضى عن تنكب التقوى ، ولكنها كانت ترى أن قواعد التزمت فيها لم توضع للرجال • ولو أن ناليناكشا أبدى شيئا مما يبديه الشباب من نزق وأنانية ، لاغتبطت فى قرارة نفسها • وحالها - عندما غادرت فراش المرض - أن ألفت ان همنالينى لم تكن وحدها المتحمسة لتعاليم ناليناكشا ، وانما شاركها ابوها الكهل فى ذلك • ومن ثم انتحت بهمنالينى جانبا ، ذات يوم ، وقالت ضاحكة : « انكما يا عزيزتى تشجعان ناليناكشا فى تزمته الأحمق ، لماذا تلقين - انت بالذات - بالا الى اللغو الذى يقوله ؟ •• ان فتاة فى مثل سنك يجب أن تستمتع بالحياة كل استمتاع ، وان تتجه بفكرها الى الشباب ، والى اللهو لا الى الدين ! وقد تقولين : لماذا لا أفعل أنا ما أوصيك به • على أن لى عذرى الخاص ، فان أبوى كاناشديدى التعصب ، وقد نشأنا - فتيانا وفتيات - فى جو من التقوى المتزمتة • ولو أننا غيرنا عاداتنا ، لارتبكت حياتنا • أما أنت فقد كانت نشأتك تختلف ، وانى لأرى ان كل امرىء خليق بان يتبع ما فطر عليه فى مثل هذه المسائل • يجب ان تكفى يا عزيزتى عن تقشفك ، فان الصلاة والصوم لا يناسبانك • وما صار ناليناكشا واعظا وصاحب تعاليم الا منذ عهد قريب ، وكان قبل ذلك يسير وفق هواه • ولعله ما اتجه هذا الاتجاه الا ارضاء لى ، واخشى أن ينتهى يوما الى الجموح والانطلاق ! »

* * *

◆ جرى هذا الحديث عصر ذات يوم ، والسيدة العجوز منهمكة فى تنسيق شعر همنالينى ، اذ لم ترض عن البساطة التى عقصت بها الفتاة شعرها • وعادت تقول : « قد تعتقدين أنى من طراز عتيق يا عزيزتى ، واننى لا أدرى شيئا عن آخر المبتكرات فى هذا الصدد • ولا أظننى مغرورة اذا قلت انى أعرف أكثر مما تعرفين • ولقد كنت اعرف يوما سيدة انجليزية لطيفة ، اعتادت أن تأتى فتلقى على دروسا فى الحياكة ، وقد علمتنى الكثير عن تنسيق الشعر

كذلك . وكنت بطبيعة الحال أغتسل بعد انصرافها وأستبدل ثيابى (١) بعد كل من هذه الزيارات .. هكذا نشأت ! .. لقد كانت صدمة مروعة لى أن كف أهل زوجى عن أن يكونوا من الهندوكيين الأتقياء ، ولكننى لم أعترض أو أحتج . كل ما قلته هو : ليطع كل ضميره ، وأنا امرأة جاهلة ، وليس بوسعى أن أتحول عما اعتدت »

وكانت العجوز تجد متعة فى أن تبسط شعر همنالينى ثم تعود فتعقصه وتجدله على نمط حديث . بل انها لم تلبث أن فتحت صندوقها الأبنوسى ، وأخذت تستمتع بأن ترى الفتاة فى الثياب البراقة التى كانت تدخرها لعروس ابنها !

كذلك كانت « كشمنكارى » مولعة بقراءة الروايات البنغالية ، فحملت اليها همنالينى كل ما كانت تقتنى من كتب ومجلات . وكانت الفتاة تعجب من دقة تعليقات المرأة العجوز على القصص والمقالات ، مما لا يتسنى الا لسيدة انجليزية التربية . وقد ساعدت لباقة الحديث ـ مع التقوى ـ على اظهار أم ناليناكشا كسيدة جد رائعة فى نظر همنالينى ، فكان الكلام معها مبعث غبطة وسرور للفتاة!

الفصل التاسع والأربعون

❖ لم تلبث كشمنكارى أن وقعت صريعة الحمى من جديد ، ولكن هذه النوبة لم تكن طويلة المدى كسابقتها . وفى ذات صباح ـ أثناء فترة النقاهة ـ أقبل نالينا كشا فحياها كما ينبغى أن يحيى الابن الصالح أمه ، اذ مس قدميها فى احترام ، ثم أخذ يهيب بها أن تسمح بأن تتلقى ما ينبغى لمريضة مثلها أن تتلقاه من علاج ، وأن تتخلى عن تقشفها المفرط .. فصاحت العجوز : « أفتريدنى على أن أنبذ عاداتى القديمة ، فى الوقت الذى تنبذ أنت فيه الدنيا .. ليس بوسعك يا عزيزى نالين أن تمضى على هذا النسق . ألا افعل ما توصيك به أمك ، فتزوج ! » .. وسكت نالينا كشا ، ولكن كشمنكارى مضت تقول : « انك لتعلم يا عزيزى أن جسدى العتيق لن يعيش طويلا ، ولن أموت هانئة الا اذا كنت متزوجا . لقد مرت بى فترة من الزمن كنت أتطلع فيها الى زواجك من فتاة صغيرة أستطيع أن أعلمها بنفسى ، ولكن عينى تفتحتا خلال نوبة المرض الأخيرة ، فلم أعد أدرى الى أى أجل أعيش ، ولم يعد من المضمون أن يطول عمرى ، وليس من الانصاف أن أتركك بين يدى فتاة غير ناضجة ، ومن ثم يحسن بك أن تتزوج فتاة تضارعك فى السن . لقد كنت أقضى الليل مسهدة ـ خلال

---

(١) ترى بعض الطوائف الهندوكية أن أبناء الطوائف الأخرى غير طاهرين ، وأن مجرد الاجتماع بهم يجلب الدنس ، ولذلك يتطهرون عقب لقائهم !

مرضى - أفكر فى هذا ، لأنى أشعر كل الشعور بأن هذا هو آخر واجب أدين لك به ، ولابد لى من أن أعيش كى أؤديه ، والا فلن أموت قريرة البال ! » •• فسألها نالليناكشا : « ولكن ، أين لى بالفتاة التى تسعد بالاستقرار معى فى حياة واحدة ؟ » •• فقالت : « لا تشغل بالك ، فسأدبر كل شىء » • ولم تكن كشمنكارى قد قابلت أنادا بابو شخصيا ، اذ كانت تلزم مخدعها كلما زار البيت • ولكنها أعربت عن رغبتها فى مقابلته عندما أقبل فى ذلك المساء ، فسرعان ما اقتيد اليها • وبادرت الى مفاتحته فيما أرادت ، اذ قالت : « ان ابنتك جد فاتنة ، وانى جد مشغوفة بها • ثم انكما تعرفان ابنى نالين ، فليس فى مسلكه ما يعيب ، كما أن سمعته ذائعة فى مهنته • أفلا ترى معى أن من العسير أن ترى زوجا أفضل منه لابنتك ؟ » • فهتف الرجل : « أحقا تعنين هذا ؟ •• ما جرؤت على أن أتمنى شيئا كهذا •• اننى لأعتبر نفسى حقا محظوظا اذا ما كان نالليناكشا زوجا لابنتى •• ولكن ، ما رأيه هو ؟ » • قالت : « لسوف يوافق نالين ، فهو على العكس من معظم شبان العصر الحاضر ، ينصاع لما تطلبه اليه أمه • ثم ان أحدا لا يملك الا أن يحب ابنتك العزيزة • على أننى أحب أن تتم خطبتهما فى أقرب وقت ممكن ، فقد لا يطول بى العمر! »

وعاد « أنادا بابو » وقد استخفه الفرح ، فاستدعى « هيم » ، وقال لها : « اننى كهل يا عزيزتى ، وصحتى ليست بالجيدة ، ولن أختم أيامى بسلام ما لم أطمئن الى حياتك • فدعينى أصارحك يا هيم : لقد فقدت أمك ، فاضطلعت وحدى بأعبائك •• وكل ما أخشاه أن يحدث ما يحول دون أن أستمر فى ذلك• وقد خطبتك أم نالليناكشا لابنها الليلة ! » • وتضرج وجه همنالينى ، وقالت متلعثمة : « كيف ؟ •• هذا مستحيل ! •• نالليناكشا ! •• كيف يمكن هذا ؟» •• ولاذت الفتاة بالشرفة تفكر فى الأمر • وتحطمت آمال أنادا بابو ، فما كان يتوقع هذه المعارضة ، بل ظن - مطمئنا - أن ابنته ستسر بخطبتها الى نالليناكشا • وراح الكهل يتأمل ذبالة المصباح المتراقصة ، وهو مشدوه ، يعجب من طباع الأنوثة ، ويرى فيها لغزا مستعصى الحل •

وجلست همنالينى فى الشرفة المعتمة ، وهى لا تفطن الى مرور الساعات • وأخيرا ، حانت منها التفاتة الى داخل الغرفة ، وما أن رأت أمارات الأسى على وجه أبيها ، حتى تمرد عليها ضميرها ، فأسرعت ووقفت خلف مقعده ، تمسح رأسه متمتمة : « هيا يا أبت ، لقد أعد عشاؤك منذ زمن ، ولابد أنه برد » • ونهض أنادا بابو بحركة آلية ، فسار الى قاعة الطعام ، ولكن نفسه عافت العشاء • كان قد اطمأن الى أن الغيوم انقشعت عن حياة همنالينى ، فأسرف فى تخيل آمال المستقبل ، ومن ثم كان رفضها الخطبة مبعث أسى مرير له • وقال لنفسه آسفا : « اذن ، فهمنالينى لم تنس رامش بعد ! »

وكان من عادته أن يأوى الى فراشه بعد العشاء مباشرة ، ولكنــه فى ذلك المساء تلكأ ، واستلقى فى مقعد قماشى فى الشرفة ، مسرحا بصره فى الحديقة . وراحت همنالينى تتحايل لتحمله على أن يأوى الى سريره ، حتى نهض أخيرا وسار الى مخدعه صامتا . وكانت همنالينى قد قررت فى حزم أن تقصى رامش عن بالها ، حتى لا تحيد عما أخذت به نفسها من تقشف وانكار للذات .. ولقد كبدها هذا صراعا نفسيا قاسيا . ولم يكن الأمر يتطلب أكثر من صــدمة خارجيــة كى يعود الجرح الى النزيف ! كانت قد عانت حيرة بالغــة فى تدبر مستقبلها والمسلك الذى تنتهجه ، فلما استقرت فى النهاية على أن ترى فى نالينا كشا رائدا روحيا ، وأن تكيف حياتها وفقا لتعاليمه ، ظنت انها تخلصت من حيرتها . فلما جاء حديث هذا الزواج ، وحاولت أن تجتث الحب القديم من منبته ، تبينت أنه أمنع من أن يجتث ! .. كان مجرد احتمال قطــع الرباط القديم ادعى لأن تتشبث به همنالينى فى استماتة وعزم أكثر من ذى قبل !

الفصل الخمسون

◆ أرسلت كشمنكارى - فى تلك الأثناء - تستدعى نالينا كشا ، ثم أفضت اليه بأنها عرضت مشروعا لزواجه ، وأن الخطبة لقيت قبولا ، فابتسم قائلا : « هل دبرت كل شىء نهائيا ؟ .. ما أسرعك ! » . قالت : « أجل ، فاننى لن أعمر مدى الدهر . لقد أعجبت جدا بهمنالينى ، فهى فتاة فذة . صحيح أن شكلها ليس غاية فى الجمال ... » . فقال : « اعفينى من هذا يا أماه ، فلست أفكر فى شكلها ، وانما أنا أفكر فى استحالة زواجى منها .. لا أستطيــع حقا ! » .. فهتفت : « لا تهرف ! .. لست أرى ما يمنع ! » . ولم يكن من السهل على نالينا كشا أن يصوغ أسباب معارضته ، ولكن هذا هو ماجال بخاطره فى صمت : « لقد كانت همنالينى فتاة قام بدور المرشد الدينى لها ، فكان مجرد التفكير فى أن يتحول اليها فجاة ليعرض عليها الزواج ، أمرا مستهجنا » . ولكن أمه حملت صمته على محمل القبول ، فشرعت تقول : « لن أقبل أى اعتراض فى هذه المرة . كأنى بك مصر على أن تنبذ الدنيا وتصبح ناسكا من أجلى . هذا عبث لم أعد أقبله ، فلا تدع الفرصة تفلت من يديك فى هذه المرة . ولابد من أن تنفذ المشروع فى أول يوم سعيد الطالع ! »

ومضت فترة قبل أن يجرؤ نالينا كشا على أن يقول : « هناك أمر لابد من أن أصارحك به يا أمى . ولكنى أستحلفك أن لا تكربى أو تحزنى . ان ما سأقصه عليك قد وقع منذ تسعة شهور أو عشرة ، فمن غير المجدى أن تأسى عليه الآن . ولما كنت أعرف أنك تجزعين من المصاب ، حتى بعد حدوثه ، فقد أشفقت أن

اروى لك هذه القصة من قبل ! » .. وازعج كشمنكارى حديثه ، فقالت : «لست ادرى ما الذى تزمع قوله يا بنى ، ولكن المقدمة تجعلنى أتوقع أسوأ الاحتمالات. فهات ما عندك ، ولا تهتم اذا كان النبأ طيبا أو سيئا » . ومن ثم شرع نالينا كشا يقول : « لقد بعت فى فبراير الماضى عيادتى فى رانجبور ، وأجرت بيتى ، واتجهت الى كلكتا . فلما بلغت نقطة عبور النهر عند (سارا) ، خطر لى أن أتحول عن السفر بالقطارات ، وأن أتم الرحلة عن طريق النهر . ومن ثم استأجرت قاربا ريفيا ، حتى اذا قضينا يومين فى النهر ، رسونا عند جزيرة نهرية ، فهبطت الى البر ، واذا بى ألتقى بصديقنا القديم « بوبن » يحمل بندقية . وظهر أنه كان « نائب حكمدار » المنطقة ، وأنه كان فى جولة تفتيشية. ولما كنا لم نلتق منذ سنوات ، فقد رفض أن يتركنى ، وأصر على أن أرافقه فى جولته . وفى ذات يوم ، هبطنا قرية (دوبا بوكور) ، وانطلقنا نجوس خلالها . وما لبث « بوبن » أن قادنى فجأة الى ساحة ذات سياج تتصل ببيت يقوم على حافة ارض محروثة ، وأحضر لنا صاحب الدار مقاعد ، وجلس معنا . وما لبث الرجل ـ وكان يدعى «تادينى تشاتورجى» ـ أن استدرج « بوبن » حتى عرف جلية امرى وسيرتى . وفيما كنا عائدين الى معسكرنا ، قال بوبن : « انك اليوم محظوظ ، فلن تلبث أن تتلقى عرضا للزواج .. ان هذا التارينى تشاتورجيى مراب لم يخلق من هو أبخل منه . وقد كانت له أخت خلفها زوجها ـ عند موته ـ معدمة ، فأواها تارينى . وكانت حاملا .. ثم ماتت بعد أن وضعت ابنة . وكان موتها نتيجة حرمانها من الرعاية الطبية . وكانت له أخت أرملة أخرى تقوم بأعباء البيت ، وتوفر عليه أجر الخادم ، فتولت المسكينة أمر الطفلة اليتيمة ، ولكنها ما لبثت بدورها أن ماتت بعد سنوات . ومنذ ذلك الحين ، عاشت الفتاة عيشة الكلاب ، تعمل كالجارية فى خدمة خالها وزوجته ، دون أن تحظى بغير الجحود . ولقد أوشكت أن تجتاز سن الزواج ، ولكن من العسير أن تعثر على زوج ليتيمة لا حول لها ولا نصير ، لا سيما وأن أحدا من أهل القرية لا يعرف أبويها . ثم انها ولدت بعد موت أبيها ، مما أثار الأقاويل فى القرية حول أصلها !

ولما كان تارينى تشاتورجيى يتقلب فى الثراء ، فقد عمد أهل القرية الى تحقير الفتاة ، ليحملوه على أن يجزل العطاء ويمنحها « دوطة » كبيرة فى سبيل تزويجها . ولقد كان ـ منذ اربع سنوات ـ يزعم أنها فى العاشرة ، فلو حسبنا هذه الفترة ، لوجدنا أنها الآن فى الرابعة عشرة من عمرها على الأقل . ومع ذلك ، فهى أجمل فتاة رأيتها . انها تدعى « كمالا » ، تيمنا بالربة «لاكشمى» ، وانها لأكمل صورة لمعنى اسمها ! وكلما وفد شاب براهمى على القرية ، ركع تارينى أمامه ، ضارعا اليه أن يتزوج منها ، ولكن شائعات القرية لا تلبث أن

تنفر الشاب ولو كان راغبا . وها قد حان دورك ! » .. وكنت اذ ذاك يا أماه في حال لا يعلم بها الا الشيطان ، فبادرت قائلا دون ما تفكير : « حسـنا ، سأتزوج من الفتاة !» .. مع أنى كنت دائماأتوق الى أنأفاجئك بزوجة هندوكية، اذ كنت أوقن أن أحدا منا لن يسعد اذا تزوجت من براهمية . وذهل « بوبن » وصاح : « ما أظنك جادا ! » ، فأكدت له انني جاد .. وفي ذلك المساء زار معسكرنا تاريني ، وراح يعرض على الفتاة وهو يضم يديه الى صدري ضارعا على طريقة البراهمة . وتقرر أن يتم الزواج في اليوم بعد التالى . وكان منالطبيعي أن يدرك المرء سر ضراعته وتعجله . كان يريد أن يتفادى الانفاق على الفتاة ، واقامة حفل عرس لها . وتم الزواج في الموعد ! » . فصاحت كشمنكارى في جزع : « أحقا تم الزواج ؟ .. أجاد أنت ؟ » . فقال نالينا كشا : « كل الجد يا أماه . و عدت الى قاربى بعروسى ، ثم أقلعنا بعد ظهر اليوم التالى للعرس . وكنا قد أصبحنا في شهر مارس . وفي مساء ذلك اليوم ، ولما ينقض على رحيلنا أكثر من ساعتين ، انقضت علينا ريح لافحة قلبت القارب بطريقة لاأدرك كنهها ، وغيبت كل أثر له ! »

وصاحت كشمنكارى مذعورة : « يا للسـماوات الرحيمة ! » .. فقال نالينا كشا : « وعندما أفقت ، وجدت نفسى أكافح التيار ، ولا أثر هناك للقارب أو ركابه . وأخطرت البوليس ، فقام ببحث دقيق ، دون ما ثمرة ! » .واكفهر وجه الأم ، وقالت : « ما فات قد مات ، فلا تذكره ثانية » .. فقال : « ما كنت لأروى لك هذا يا أماه ، لولا اصرارك على زواجى » . فهتفت : « وكيف تمنعك هذه النكبة عن الزواج ؟ » .. قال : « ربما كانت الفتاة قد نجت .وهذا ما يصدنى عن الزواج » . وصاحت كشمنكارى : « أمجنون أنت ؟ .. لو أنها كانت على قيد الحياة ، لسمعت عنها » . فقال : « ولكنها لا تعرف عنى شيئا ، لأنى كنت غريبا عنها ، وما أظنها عرفت ملامحى . ولقد كتبت الى « تاريني » عندما وصلت الى (بنارس) ، ولكن رسالتى لم تصل الى يديه ، اذ ردت الى ، لأنه مات ! .. وقد قررت أن أنتظر عاما ، قبل أن أعتبرها ميتة ! » . فقالت في لوم : « انك دائما تعقد الأمور . لماذا تتريث عاما بأكمله ؟ » . قال : « لن يلبث العام أن ينتهى يا أماه ، فنحن في شهر ديسمبر . ولما كان الشهر الذى يليه منحوسا ، بالنسبة للزواج ، لذلك لن يبقى سوى فبراير ، ثم ينتهى العام في مارس »

قالت كشمنكارى : « جميل جدا .. اذن فاعتبر نفسك خطيبا لهمنالينى ، وقد طلبت يدها رسميا من أبيها » . فقال نالينا كشا : « ان العبد يدبر ، ولكن هناك من يدبر فوق تدبيره ، فلندع الأمر له ! » .. قالت : « فليكن ! .. ولكن ، ما أرهب ما رويت لى يا عزيزى ! » . قال : « ولعلك فهمت الآن سر ترددى في انبائك بالقصة »

الفصل الحادى والخمسون

◆ كانت شمس ديسمبر القصيرة العمر قد هبطت الى حافة السماء الشاحبة، عندما بلغت « كمالا » ضفة نهر (الجانجز) ، فأدت الفتاة للشمس تحية الغروب ، ونثرت بعض قطرات من ماء النهر المقدس على رأسها ، ثم خاضت فى مجرى النهر ، مغترفة من مائه ، ناثرة الزهور على صفحته • وانحنت اجلالا لكافة القوى السماوية ! وفيما هى ترفع رأسها ، تذكرت كائنا آخر تدين له بالاجلال والتوقير •• انها لم تجرؤ قط على أن تتفرس فى وجهه • وما وقعت عيناها – طوال الليلة الوحيدة التى قضتها الى جواره – على وجهه ، بل ولا على قدميه • لقد سمعته يقول كلمة أو اثنتين لمن رافقوها الى غرفة الزفاف ، ولكن صوته لم يكد ينفذ خلال حجابها ، ولا خلال تحفظها وصدها • وأخذت تحاول جاهدة – وهى تقف على حافة النهر – كى تذكر صوته ، ولكنها لم توفق ! •• كان الزفاف بمراسمه قد امتد الى ساعة متأخرة من الليل ، وكانت منهوكة القوى ، فانقض عليها النعاس بغتة • واستيقظت فى الصباح التالى ، لترى جارة شابة متزوجة تهزها لتوقظها وهى تضحك • وألفت نفسها وحيدة على أريكة فى المخدع

اجل ، كان السيد الذى تربع على عرش حياتها كالكتاب المغلق بالنسبة لها ، فهى لا تكاد تذكر وجهه ، ولا صـوته ، ولا ملامحه •• لا شىء قد علق بذاكرتها !

وكان الخطاب الذى كتبه رامش لهمنالينى لا يزال مربوطا الى طرف من ثوبها، فجلست على رمال الشاطىء ، وأعادت قراءة صفحة منه على ضوء الغسق • كانت تلك الصفحة هى التى تضمنت ذكر زوجها ، فلم تجد شيئا عنه اللهم الا أنه كان يدعى « ناليناكشا تشاتوباديای » ، وأنه كان طبيبا فى (رانجبور) ، وأن رامش لم يستطع أن يعثر له على أثر • ناليناكشا ! •• كأنما كان الاسم بلسما لجراح نفسها ! •• بل خيل اليها أنه يملأ قلبها حتى الا تراع • وانهمرت الدموع مدرارة من عينيها ، فخففت من وطأة أساها • وهتف صوت فى أعماقها: « لقد امتلأ الفراغ ، وانجاب الظلام •• الآن عرفت اننى الأخرى جزء من العالم الحى ! » •• وهتفت من أعماق فؤادها : « اذا كنت زوجة صادقة له ، فلا بد لى من أن أعيش لأسجد عند قدميه • اننى لن أفقد الأمل فى العثور عليه ما امتد بى العمر • ما أنقذنى الرب من الموت ، الا لأعيش وأخدمه ! » • وتناولت حزمة المفاتيح فرمتها بعيدا • وتذكرت أنها تضم طرفين من ثوبها بقلادة أهداها اليها رامش ، فخلعتها هى الأخرى ، وألقت بها فى الماء • ثم تحولت نحـو الغرب ، وسارت دون أن تكون لديها فكرة واضحة عن وجهتها ، ولا عن الطريقة

التى ستسلكها فى البحث عن رجلها ! .. كل ما كانت تعرفه هو أن لا بد لها من أن تمضى قدما ، وأن لا تتلكأ لحظة حيث كانت !

وسرعان ما خبا الشفق من سماء الشتاء ، وبدت حافة النهر الرملية متلألئة بوميض خافت فى غمرة الظلام ، وكأنما محا رسام ما معالم المنظر الذى كان قد رسمه ، ولم يترك سوى صفحة اللوحة الخالية من كل لون ! .. وكانت السماء التى غاب قمرها ، وبدت نجومها غير متألقة ، تحنو على ضفة النهر الصحراوية فى حنان . ولم يكن فى وسع كمالا أن تتبين أمامها سوى فضاء موحش ،مهجور، لا نهاية له . ولكنها كانت تدرك أن لا بد لها من المضى قدما ، فلم تتوقف لتفكر فيما وراء سيرها هذا . على أنها قررت أن تتبع ضفة النهر ، حتى يعفيها هذا من الحاجة الى السؤال عن طريقها ، وحتى اذا تهددها خطر ، لاذت بصدر (الجانجز) الحانى العطوف ! .. وكان الظلام يلف كمالا ، ولكنه لم يكن مدلهما بدرجة تحرمها من الرؤية . وكانت الذئاب تخرج خلال الليل من حقول القمح ،



وتروح تعوى بأصوات رهيبة . وبعد ساعات ، تبينت أن الأرض المنبسطة انتهت بها الى ضفة عالية ، وأن الرمال أفضت بها الى أرض زراعية . واعترضت طريقها قرية ، ولكنها حين اقتربت منها بقلب واجف ، تبينت أن أهلها فى نوم عميق . وبدات قواها تخور ، فدارت حول القرية فى اعياء ، وصعدت الى قمة ما بدا لها كثيبا مهجورا ، ثم تهالكت تحت شجرة ، ونامت نوم المرهقة المكدودة .

و عندما استيقظت قرب الفجر ، كان القمر قد بزغ واهنا ، فبدد بعض الظلمة . وكانت تقف الى جوارها امرأة مسنة ، تمطرها باسئلة باللغة البنغالية : « من أنت ؟ .. ما الذى تفعلينه هنا ؟ .. وكيف تنامين تحت شجرة فى ليلة باردة كهذه ؟ » .. واجفلت كمالا مذعورة ، فتلفتت حولها ، واذا بها

ترى مرساة استقرت فيها مركبان من مراكب نقل البضائع • وكانت السيدة العجوز مسافرة على احداهما ، وقد نهضت مبكرة لتغتسل قبل أن يستيقظ مرافقوها • وعادت المرأة تسألها : « يبدو أنك بنغالية •• ألست كذلك ؟ » ، فاجابت : « بلى » •• فسألتها : « وماذا تفعلين هنا ؟ » •• فقالت : « كنت فى طريقى الى بنارس ، فدهمنى النوم فى أواخر الليل » •• صاحت المرأة : « يا للعجب ! •• تسافرين الى بنارس على قدميك ؟ •• يحسن بك أن تصعدى الى تلك المركب ، وسألحق بك بعد أن أغتسل » •• وبالفعل ، لم تلبث السيدة المسنة ان لحقت بها ، وأخذت تحدثها عن نفسها ، فعرفت كمالا أنها تدعى « نابينكالى » ، وأن زوجها يدعى «موكوندالال داتا » ، وانهما ينتميان الى طائفة « الكايستا » ، ومن أبناء (البنغال) ، ولكنهما يقيمان مؤقتا فى (بنارس)• ثم تحولت « نابينكالى » تسألها عن اسمها ، وقالت : « أراك تلبسين خلخالا من حديد ، اذن فزوجك حى ؟ » •• فاجابت كمالا : « لقد اختفى صبيحة زفافنا»• فهتفت السيدة : « ما رايت رجلا يفعل ما فعل ، لا سيما وأنك تبدين صغيرة ! •• لا يمكن أن تكونى قد تجاوزت الخامسة عشرة ! » •• واخذت تفحصها من راسها الى قدميها ، بينما قالت كمالا : « لست أدرى عمرى تماما ، ولكنه لابد أن يكون حوالى الخامسة عشرة ! » • وعادت نابينكالى تسألها : « انك براهمية•• ألست كذلك ؟» ، فاجابت « بلى » •• قالت : « وأين يعيش قومك ؟»، فقالت كمالا : « ما ذهبت قط الى موطن زوجى • أما أبى ، فقد كان من بيسوكالى • على ان أبى وأمى قد ماتا » • فهتفت السيدة : « وما الذى تنتوين عمله ؟ » •• فاجابت كمالا : « لست أرجو سوى سقف يظلنى ، ووجبتين فى اليوم • فاذا وجدت قوما طيبين فى بنارس يكفلون لى هذا ، عملت بنفقات اقامتى • فانا اجيد الطهو »

★ ★ ★

◆ واغتبطت « نابينكالى » فى سريرتها لما بدا لها من أنها ستحظى بخدمات طاهية براهمية بغير مقابل • على أنها حرصت على أن تخفى فرحها ، قائلة : « لسنا بحاجة اليك ، فلدينا خدمنا ، فضلا عن أننا لا نستطيع أن نستخدم شخصا لاميزات له سوى أنه براهمى •• ولكنى لا أستطيع أن اتركك فى ضيقك وأنت براهمية ، وفتاة ، لذلك فقد يكون من الأفضل لك أن تصحبينا على اية حال • ان لدينا عددا كبيرا من الأفواه التى تنشد القوت ، كما أننا نلقى الكثير من فضلات طعامنا ، فلن يضيرنا أن نعول شخصا فوق من نعول • ولن تجدى العمل مرهقا ، اذ لا يقيم الآن فى دارنا سواى وزوجى ! •• لقد زوجت كل بناتى ، ولم يعد لنا سوى ابن عين اخيرا « حكمدارا » فى (سيراججانج) ، وقد تلقينا من الحكومة قرار تعيينه منذ شهرين » •

وانطلقت السفينتان ، تدفعهما الريح سراعا ، فوصلتا (بنارس) بعدساعات قلائل ، فانتقل القوم الى منزل ذى طابقين ، فى حديقة باحدى الضواحى القائمة فى أطراف المدينة • ولم تر كمالا أثرا لطاه براهمى ، ولا لأكثر من خادم واحد ، على نقيض ما زعمت السيدة ! •• وحتى هذا لم تلبث « نابينكالى » أن سرحته بعد أيام ، دون أن تنقده أجره • واضطلعت كمالا بكل أعباء المطبخ ! •• ولم تضن نابينكالى عليها بالنصح ، فكانت تقول لها : « انك لتعلمين يا عزيزتى أن بنارس مدينة موبوءة بالنسبة للفتيات أمثالك ، ومن ثم يجب أن لا تبرحى الدار وحيدة • ولسوف أصطحبك اذا ما ذهبت الى (الجانجز) للاغتسال ، أو اذا ذهبت لأتعبد الى الاله بيسويسوار » ! •• واتخذت كل احتياط حتى لا تفلت كمالا من مخالبها ، فلم تتح للفتاة فرصة تلتقى فيها بأحد من جنسها ولا من عنصرها ، وكانت أعمال البيت تستغرق كل نهارها ، بينما تنصت فى المساء الى نابينكالى وهى تحدثها عن النفائس والمجوهرات والذهب والفضة التى منعها الخوف من اللصوص من أن تحضرها الى بنارس !

وكانت تقول : « ان زوجى لم يعتد قط أن يتناول طعامه فى اطباق من نحاس ، وكان فى البداية يزمجر غاضبا ويقول : « وما قيمة أن يسرق أحد بضعة تحف من ثروتنا ؟ •• فى وسعنا أن نعوضها بسواها ! » •• ولكننى لم أوافقه قط على هذا التبذير •• ان لنا فى بلدنا الأصلى بيتا هائلا ، وحشدا من الخدم ، أكثر مما أستطيع احصاءهم ! •• ولكننا لا نستطيع أن نصطحب عشرين أو ثلاثين خادما أينما ذهبنا » •• وهكذا كانت تمضى فى أكاذيبها !

الفصل الثانى والخمسون

◆ كانت حياة « كمالا » فى دار « نابينكالى » تشبه حياة سمكة حبيسة فى بركة ضحلة موحلة ، ولم يكن لها من خلاص الا فى الفرار ، ولكن الفرار كان أمرا مستبعدا ، ما دامت لا تعرف له غاية • فان تجربتها الأخيرة علمتها كيف تبدو الدنيا ـ خارج جدران الدور ـ رهيبة فى الليل ، فكانت تحجم عن أن تسلم نفسها مرة أخرى لقبضة المجهول • وكانت « نابينكالى » من ناحيتها مغرمة بكمالا ، ولكن •• على طريقتها الخاصة ، فكان عطفها يتخذ أشكالا بغيضة • كانت قد ساعدت الفتاة فى وقت المحنة ، ولكنها ـ بتصرفاتها ـ جعلت كمالا لا تكاد تشعر بشىء من العرفان ، وحملتها على أن تؤثر أعمالها فى خدمة البيت ، على سويعات الفراغ المضجرة ، التى كانت تضطر الى قضائها فى صحبة السيدة • وفى ذات صباح ، استدعتها السيدة العجوز وراحت تلومها على

الاسراف فى استعمال المسلى . ولم تكن كمالا تجيب قط على أى تأنيب ، بل اعتادت بعد كل تقريع أن تعود فى هدوء الى عملها ، وكأنها لم تسمع شيئا . ولكن لهجة السيدة فى ذلك الصباح أصابت من قلبها مرمى ، فظلت كمالا مهمومة تفكر وهى عاكفة على تنظيف الخضر . وكانت قد انتهت الى أن الدنيا مكان خلو من البهجة ، وأن الحياة عبء ثقيل ، حين التقطت أذناها كلمات استرعت انتباهها . فقد استدعت « نابينكالى » حارس البيت ، وراحت تصدر اليه أمرا : « اسمع يا تولسى .. اهرع الى المدينة واستدع الدكتور ناليناكشا فورا ، وقل له أن مولاك متوعك ! »

ناليناكشا ! .. وتراقص شعاع الشمس أمام عينى كمالا كأنه أوتار قيثارة تعزف عليها أصابع خفية . وألقت الخضر من يديها ، ووقفت لدى باب المطبخ فى طريق « تالوسى » ، فما أن أقبل ليذهب الى مهمته ، حتى سألته عن وجهته، فقال : « اننى ذاهب لأستدعى الدكتور ناليناكشا » . وسألته : « ومن يكون؟» .. قال : « انه خير طبيب فى المدينة ! » .. وعادت تسأله : « وأين يقيم؟ » ، فقال : « فى المدينة .. على بعد ميل من هنا » . وكانت كمالا قد اعتادت أن توزع على من يكون فى البيت من خدم ، كميات قليلة من الغذاء الذى يتبقى بعد أن يشبع سيدا الدار نهمهما . وعلى الرغم مما كانت تلقاه من تقريع «نابينكالى» وخشونتها ، فانها لم تكن ترعوى عن هذه العادة ، مما حببها الى الخدم ، وجعلهم « عبيدا » مختارين لها . وانبعث صوت رفيع من أعلى السلم صائحا : « ماذا تدبر عند باب المطبخ يا تولسى ؟..أتظن اننى لا أراقبك ؟ .. ألا تستطيع ان تذهب الى المدينة دون ان تستشير الطاهية أولا ؟ .. لا عجب اذن ، اذا كانت أشياء كثيرة تختفى من الدار ! اسمعى أيتها الشابة ، تذكرى من فضلك اننى التقطتك من الطريق وآويتك ، أفهذا جزاء الاحسان ؟ » .. كانت تؤمن بأن كل من فى البيت يتآمرون لسلبها . على أن ثورتها لم تلق من كمالا فى هذه المرة سوى اذن صماء ، فواصلت الفتاة عملها وقد تزاحمت السحب فى رأسها . ثم عادت الى باب المطبخ تنتظر عودة « تولسى » . وجاء أخيرا ، ولكنه كان وحيدا ، وسألته عن الطبيب ، فقال انه لم يستطع الحضور لأن أمه مريضة ، فهتفت : « أمه ؟ .. أليس لديه من يعنى بها ؟ » ، قال : « لا ، لأنه غير متزوج ! » . وانبعث اذ ذاك صوت السيدة ، فأسرعت كمالا الى داخل المطبخ ، وهرع « تولسى » الى السيدة

واستبدت الشكوك بكمالا .. ناليناكشا .. وكان يمارس الطب فى رانجبور! .. لذلك لم يكد « تولسى » يظهر مرة أخرى ، حتى سألته عما اذا كان الطبيب براهميا ، فلما رد بالايجاب ، سعت « كمالا » لفورها الى نابينكالى ، وأنبأتها بأنها قد فرغت من عملها ، وأنها تريد أن تذهب للاغتسال فى النهر عند

(داساسواميد غات) ، فقالت السيدة : « هذا لا يليق ، فزوجي مريض ، ولا يدرى أحد ما قد يحتاج اليه . ولماذا تريدين الذهاب الى هذا المكان البعيد فى هذا اليوم بالذات ؟ » ، فقالت : « لأننى علمت أن لى قريبة في بنارس تمس بى الحاجة الى لقائها » ، فصاحت نابينكالى : « لا ! .. لست غضة بلهاء ! .. من الذى أخبرك بهذا ؟ .. لعله تلوسى ؟ .. يجب أن نطرد هذا الولد . ألا افهمى أيتها الشابة أن لا سبيل لك الى الذهاب للاغتسال، أو لمقابلة أقاربك فى المدينة وانت وحيدة ، طالما كنت فى هذا البيت ! » .. وطرد « تلوسى » فورا ، وتلقى الخدم أوامر صارمة بأن لا يتصلوا بكمالا ، فاذا صبر هذه ينفد ، واذا بها لا تعود تطيق البقاء لحظة أخرى تحت سقف غريب ، خاصة وان زوجها يقيم فى المدينة !.. ومن ثم أخذ نشاطها فى العمل يخبو . ولم يفت ذلك نابينكالى فقالت : « اسمعى أيتها الشابة .. اننى لا أرتاح الى تصرفك » . فقالت كمالا: « وانا لم أعد راغبة فى العمل فى خدمتكم . لم أعد أطيق ، فدعينى أرحل » .. فصاحت نابينكالى ساخرة : « أحقا ؟.. هذه عاقبة الاحسان الى الناس فى هذه الأيام !.. أتزعمين أنك براهمية صالحة !.. ألا حاولى الفرار ، وسوف ترين كيف يعاملك الشرطة . ان ابنى « حكمدار » ، وكم من أفراد أرسلوا الى السجن بكلمة منه ! »

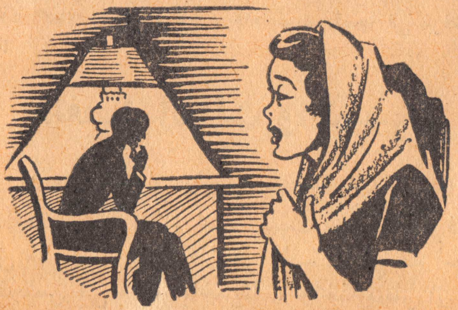
★ ★ ★

● ونضب معين صبر كمالا ، وهي ترى ان السعادة المرتقبة أضحت على قاب قوسين منها . كان القدر يسخر منها فى قسوة ! وغدا سجنها بين جدران البيت أمرا لا يطاق ، فاعتادت ان تتسلل الى الحديقة فى الأمسيات ، فتقف فى البرد ترقب الطريق المؤدية الى المدينة . وكانت تقف الساعات الطويلة ، جامدة ، مستغرقة فى التفكير ، ثم لا تلبث فى النهاية ان تنحنى الى الأرض فى طاعة ، وتدلف الى غرفتها . بيد ان هذه السلوى الضئيلة لم تلبث ان حرمت عليها أيضا . فقد حلا لنابينكالى ذات مساء أن تستدعيها بعد أن فرغت من عملها ، فلما لم تجدها فى المطبخ ، بحثت عنها فى كافة أرجاء البيت وقد خيل اليها انها هربت ، وصاحت تأمر بابلاغ الأمر الى الشرطة..ثم عثرت عليها فى الحديقة، فصاحت بها : « أى سوء كنت تهمين به ؟ الى أين ذهبت ؟ » . فقالت الفتاة : « كنت أتمشى فى الحديقة » . فصبت نابينكالى عليها جام غضبها ، ولكن كمالا لم تسعدها برؤية دموعها ، بل وقفت كتمثال جامد تحت سيل دافق ، حتى اذا فثأت السيدة غضبها ، قالت لها : « أرى أنك لست راضية عنى ، فخليق بك أن تسرحينى ! » . فصاحت السيدة : « سأفعل بكل تأكيد ، ولكننى سأعلمك أولا مع من تتعاملين ! »

ولم تجرؤ كمالا بعد ذلك اليوم على أن تبرح باب البيت ، وأصبحت تحتبس نفسها في غرفتها ، لتتعزى بالتفكير في أن عذابها قد بلغ ذروته ، ومن ثم فلن تلبث السماء ان تبعث اليها بالخلاص !

وحدث ذات مساء أن خرج « موكوندا بابو » للنزهة • وما لبث أن أقبل زائر توقف عند الباب الخارجي • ولم يكن حارس الباب موجودا • ونادت السيدة على الخادم الآخر ، فلم تجده • وفي تلهفها ، رأت أمامها كمالا ، فهتفت بها : « ان الدكتور ناليناكشا بالباب •• اسرعي وافتحي له ، واخبريه بأن زوجي قد خرج للنزهة ولن يلبث أن يعود سريعا ، فليتكرم بانتظاره »

واسرعت كمالا وقد اشتد وجيب قلبها ، وتخلخلت أوصالها ، وتحولت يداها الى كتلتين باردتين • ورفعت المزلاج ، ثم أسدلت خمارها على وجهها وفتحت الباب ، ودعت الطبيب الى الدخول • وجلس ناليناكشا ، سارحا في تأملاته ، بينما تسللت الفتاة الى ركن من الشرفة ترقبه منه ، وصدرها يتهدج بعنف ، وقلبها يخفق بقوة ، وقد سرت في كل جسدها رعدة شديدة ! •• وراحت تنعم النظر اليه ، والدموع تفيض من عينيها دون انقطاع •• بل انها حشدت جماع نفسها في عينيها ، حتى خيل اليها أن قوة نظراتها لن تلبث أن تجذب ناليناكشا اليها ! ولاح لها وكأن كل شيء يتضاءل ويذوب في الفراغ المحيط بها • ولم يعد أمامها سوى وجهه المغمور بضوء المصباح الوحيد في الحجرة •• كان هذا



هو الشيء الحقيقي الوحيد ، أما ما عداه فبعيد عن الحقيقة والواقع ! وغابت كمالا في نوبة استيقظت منها فجأة لتجد ناليناكشا يتهيأ للانصراف ، وقد وقف يتكلم مع « موكوندا بابو » • وتسللت الى المطبخ ، ومنه الى ساحة صغيرة لا بد لمن يغادر الدار أن يجتازها ، وراحت تنتظر وقد سرت في جسمها وعقلها

وقدة من لهب .. كيف يمكن أن يكون مثل هذا الرجل زوجا لتعسة بائسة مثلها ؟ .. كانت على محياه نفحة الهيبة من جمال مهيب ووقار .. فلما تبينت كمالا أن عذابها لم يذهب هباء ، وانما كان فى سبيل رجل يستحقه ، راحت تنحنى شكرا للسماء ! .. وعندما اتجه ناليناكشا أخيرا الى الباب الخارجى ، ألفت نفسها ترمقه وهى تناجيه فى أسلوب الشعراء : « يا مولاى ، ان جاريتك مستعبدة تحت سقف غريب ، وانك لتمر بها الآن دون أن تفطن اليها ! » .. وتسللت الى الغرفة التى كان بها ، فسجدت أمام المقعد الذى كان جالسا عليه ، وعفرت جبينها فى التراب ، وقبلت الأرض ! .. ما أشد تعاستها اذ لم تسجد له هو !!

وعلمت كمالا فى اليوم التالى أن الطبيب نصح « موكوندا بابو » بأن يقضى فترة استجمام طويلة ، فى مكان يبعد عن المدينة بمئات الأميال غربا ! وفيما كانت الاستعدادات للرحلة تجرى على قدم وساق ، ذهبت كمالا الى سيدتها قائلة : « ما أرانى مستطيعة أن أغادر بنارس » ، فصاحت نابينكالى وهى تظن أن الفتاة تتخذ من الدين ستارا للبقاء : « بل تستطيعين .. ما الذى جعلك توغلين فى التقوى فجأة ؟ » .. قالت كمالا : « قولى ما شئت ، ولكننى سأبقى هنا .. أتوسل اليك أن تسرحينى ! » ، فصاحت العجوز : « انك فظيعة حقا ! .. لقد أعددنا عدتنا للرحيل ، فما هذا الخبل الذى أصابك بغتة ؟ .. كيف نستطيع أن نجد طاهية أخرى ، وأنت لم تخطرينا فى وقت مناسب ! » .. وذهبت توسلات كمالا أدراج الرياح ، فاحتبست نفسها فى غرفتها ، وراحت تبكى وتصلى !

الفصل الثالث والخمسون

◆ فى مساء اليوم التالى لحديث « أنادا بابو » مع ابنته بشأن الخطبة ، عاودته نوبة الألم التى كانت قد أصابته فى كلكتا ، فقضى الليل متوجعا ، وان كان فى الصباح قد أحس ببعض الراحة ، فجلس فى مقعد بالحديقة ، وأخذ ينظر الى الطريق ، ويغفو تحت شمس ديسمبر ، بينما كانت همنالينى تعد الشاى . وكان وجهه ممتقعا ، مكفهرا من أثر العناء الذى لاقاه فى ليلته ، وقد أحاطت بعينيه هالات سوداء ، وبدا وكأنما تقدمت به السن أعواما خلال الليل ! .. وكانت همنالينى ،

كلما رمقته ، شعرت بالندم يخز فؤادها · فقد عزت النوبة الى استيائه من رفضها الخطبة · وراح ضميرها يؤنبها ، واستولت على بالها فكرة العمل على التخفيف عنه · وفجأة ، ذهلت اذ رأت أكشاى مقبلا مع « العم » · وهمت بأن تنسحب ، لولا أن صاح أكشاى : « أرجو أن لا تنصرفى · ان هذا السيد هو مواطننا الجليل تشاكرابارتى ، من (غازيبور) ، واسمه ذائع فى كل الاقليم ·· وقد جاء فى أمر هام ! » · وجلس القادمان على مقعد حجرى بالقرب من مجلس « أنادا بابو » ، ثم شرع « العم » يوضح مهمته قائلا : « بلغنى أنكما من الأصدقاء الحميمين لرامش بابو ، ولذا جئت أسأل ان كان فى وسعكما أن تمدانى بأنباء عن زوجته ! » · وسلبت المفاجأة أنفاس أنادا بابو ، حتى اذا غالب دهشته ، هتف « زوجة رامش ! » ·· وغضت همنالينى بصرها ، بينما استطرد « تشاكرابارتى » فى حديثه : « قد تظنانى جلفا عجوزا ، ولكنى أومن بأنكما لن تلبثا أن تتبينا أننى ما قطعت هذه الرحلة قادما من (غازيبور) لمجرد الخوض فى سير الناس معكما ! ·· لقد قابلت رامش بابو ، أثناء عطلات « البوجا » ، وكان مصطحبا زوجته فى رحلة على باخرة نهرية · وأنكما لتعلمان أن أحدا لا يمكن أن يرى كمالا دون أن يقع أسير سحرها ! ·· وكان رامش بابو مترددا بشأن المكان الذى يغادر فيه الباخرة ، ولكن كمالا لم تلبث أن تعلقت بشخصى المكتهل ، وأغرت زوجها على الهبوط فى غازيبور والاقامة معنا · ولست أحتمل الحديث عما جرى بعد ذلك ·· لقد اختفت الفتاة العزيزة فجأة ، وتركتنا كسيرى القلوب ! »

وتملك التأثر « العم » ، فسكت · وما لبث أنادا بابو أن سأل عما جرى للفتاة ، فأخذ « أكشاى » يروى القصة كلها · وبدون أن يعلق بحرف أو يضيف حرفا ، استطاع أن يبرز تصرفات رامش فى أسود اطار · ثم قال : « لكم كنا نتخبط فى الظلام ، اذ لم نكن موقنين من أنه متزوج من كمالا ! » · والتفت الى العم

قائلا : « أواثق أنت ياسيدى من أنها كانت زوجته ، وليست أخته أو احدى قريباته ؟ » .. فصاح العم : « ما الذى تعنيه يا اكشاى بابو ؟ كانت زوجته بكل تأكيد ، وكانت خير زوجة يحظى بها رجل ! » . قال أكشاى : « من الغريب أن الزوجة كلما كانت فاضلة ، كان جزاؤها سيئا ! » .. فقال أنادا بابو، وهو يتخلل شعره الناحل بأصابعه : « لم يعد ثمة مجال لعمل شىء ، ففيم التحسر ؟ » .. واذ ذاك قال اكشاى : « اننى لم اقتنع مطلقا بأن كمالا انتحرت ، بل بدا لى من المحتمل أنها فرت من بيتها . ولذلك جئت وهذا السيد نبحث عنها فى بنارس »

وتساءل أنادا بابو : « وأين رامش الآن ؟ » .. فأجاب العم : « لقد غادرنا دون أن يترك عنوانا » . وتحول أكشاى قائلا : « لقد علمت أنه عاد الى كلكتا » .. ثم توجه الى « تشاكرابارتى » يسأله أن ينطلق معه الى المدينة ليشرعا فى البحث ، فسأله أنادا بابو : « هل ستقيم معنا يا أكشاى ؟ ».. فأجاب : « أخشى أن لا أستطيع أن أجزم بذلك ، فلقد وهبت هذه المسألة كل اهتمامى ، وسأكرس كل وقتى فى بنارس من أجل البحث . تصوروا حال الفتاة الرقيقة النفس .. لا بد أنها وجدت الحياة فى دارها لا تطاق ، فلاذت بالفرار ! .. تصوروا ما قد تكون فيه الآن من عذاب ! »

* * *

◆ **وظل** « أنادا بابو » طويلا يتأمل وجه ابنته فى قلق ،بعد انصراف الرجلين . وبذلت « همنالينى » مجهودا جبارا لتتمالك نفسها ــ اذ كانت تدرك مدى قلق أبيها من أجلها ــ ثم قالت أخيرا : « أرى يا أبت ان لا بد من استدعاء طبيب لفحصك اليوم ، فان أتفه الأمور يتعب صحتك فى هذه الأيام » .. وارتاح الشيخ اذ رأى ان ابنته ما زالت تهتم بصحته رغم ما سمعته عن رامش . فانتهز الفرصة ليقول : « هذه فكرة طيبة، ويحسن بى أن أستدعى الدكتور ناليناكشا فورا ! » .وأجفلت

الفتاة لذكر « ناليناكشا » ، ولكنها تمالكت نفسها وقالت فى اغتباط : « هذا أفضل ، وسأبعث فى طلبه » • وشجع حال همنالينى أباها على معالجة المسألة الشائكة ، فقال لها : « بهذه المناسبة يا هيم ، ان مسألة رامش ••• » ، ولكنها قطعت عليه الحديث قائلة : « ان الشمس حامية يا أبت ! » • وقبل أن يجد فرصة للمعارضة ، كانت قد تأبطت ذراعه وقادته الى داخل الدار ، فأجلسته فى مقعد ، وأسلمته صحيفة ، ثم قالت : « سأتركك قليلا يا أبت ! » • وحاول أنادابابو أن يتمرد عليها، فى جهد الطفل الصغير ، اذ ما لبث بعد قليل أن نهض يبحث عنها ، ولكنه وجد باب مخدعها موصدا ، فعاد الى الشرفة ، وجلس فيها والقلق يفرى أعصابه ، حتى وصل الدكتور ناليناكشا

وفحصه الطبيب فى عناية ، ثم وصف له العلاج ، وتحول يسأل « هيم » عما اذا كان ثمة ماشغل بال الشيخ أو أقلقه فى الفترة الأخيرة • وردت الفتاة بالايجاب ، فقال : « يجب تجنيبه كل أسباب القلق ما أمكن •• اننى ألاقى نفس العناء مع أمى ، فهى تتأثر بكل مسألة الى درجة يصعب معها صون صحتها • اننى أحاول بطبيعة الحال أن أجعلها بمنجى عن كل ما يثير الانفعال ، ولكن من الصعب تحقيق هذا فى دنيانا الحافلة بالمتاعب » ، فقالت له همنالينى : « انك أنت أيضا لا تبدو فى صحة طيبة اليوم ! » ، فقال : « آه ، اننى بخير • كل ما هنالك اننى ظللت ساهرا شطرا من الليل » • وقالت هيم : « من الأفضل أن تبحث عن امرأة ترعى أمك باستمرار ، اذ ليس بوسعك ان تعنى بها كما ينبغى ، فضلا عن أن عملك يتطلب منك جهدا ! » •• ولم تكن همنالينى تفكر فى نفسها حين قالت ذلك ، ولكنها ما أن نطقت بالكلمات حتى فطنت ، فتضرج وجهها حياء ، اذ خطر لها أن ناليناكشا قد يؤول قولها على غير ما قصدت • ولاحظ بدوره ارتباكها ، فتذكر ما عرضته عليه



٠٠ ولم تتوقف « كمـالا » لتفكر فيما وراء سيرها هذا ،
ولكنها قررت أن تتبع ضفة النهـر ، حتى يعفيها هذا
من الحاجة الى السـؤال عن طريقهـا (ص ١٨٤)

أمه بصددها ،ومن ثم حدثها عن تقاليد أمه الدينية التى تجعلها تأبى أن يقوم بخدمتها أجير . ولم تصغ همنالينى الى حديثه ، اذ شغلها أمر ، فما لبثت أن قالت : « **اننى حين أعمد الى اتباع تعليماتك لا ألبث أن أصطدم بعقبات متوالية تضطرنى الى أن أحيد عن هدفى . انها ترهبنى وتسلمنى الى اليأس !» . فقال بعد تفكير : « يجب أن تدركى أن الصعاب لا تقوم فى طريقنا الا لتحفزنا على العمل والكفاح ! » .. ورجته أن يزورها فى اليوم التالى ، اذ وجدت فى لهجته المطمئنة الواثقة ما بعث فى نفسها السكينة المنشودة ! وظلت بعد انصرافه تشعر بأن كلماته كانت بلسما لجراحها !** ووقفت فى الشرفة تسرح البصر فى الفضاء الذى غمرته أشعة الشمس .وفى بهاء الظهيرة ،خيل اليها أنها ترى عالم المخلوقات فى نصب وفى استجمام ، فى آن واحد .. تمثلته مفعما بالقوة ولكن فى هدوء و دعة .. وأحست بأن الشمس الحامية ، والسماء ذات الصفاء الباهر ، تسبغان على نفسها بركة وأمنا !

واتجهت أفكار همنالينى الى أم ناليناكشا . كان سبب هم العجوز وأرقها جليا . وكانت الفتاة قد تغلبت على المفاجأة ،فلم تعد تجفل من تدبر فكرة الزواج المقترح . **بل انها كانت أكثر حاجة الى ناليناكشا عن ذى قبل ، لا يشوب ولاءها له سوى وخزات قلقة يبعثها فى نفسها الحب المهجور ! .. وكانت تدرك أن ناليناكشا فى غير حاجة - من الناحية العاطفية - الى حب المرأة ، ولكنه كان فى حاجة الى خدماتها ، لا سيما وقد كانت امه مريضة ولابد لها من رعاية. ولاشك فى ان خدمة رجل مثله تعتبر نوعا من التقوى والعبادة !** .. ولقد كان الفصل الذى سمعته عن حياة رامش فى ذلك الصباح ، صدمة ساحقة اضطرت الى أن تستنجد بكل قواها لتدفع عنها وقعها . وأحست - فى حالها الراهنة - بأنها لم تعد تأسى على رامش ، ولا تجد من نفسها ميلا الى أن تحكم على أعماله . بل ان ميلا

غريزيا أوحى اليها بأن تقصى عن ذهنها كل تفكير فى رامش . وكانت اذا تصورت مصير كمالا ، ارتجفت فرقا . ثم لاتلبث أن تسائل نفسها : أية علاقة لها بحادث الانتحار التعس ؟ .. ولكن الحزن ، والسخط ، والاشفاق ، لا تلبث أن تتنازعها ، فتضم راحتيها الى صدرها وتهتف : « رباه ! لماذا تضنينى هذه الأفكار وأنا لم أرتكب ذنبا ؟ .. ألا خلصنى من هذه الروابط الدنيوية .. حررنى منها تحريرا كاملا ! »

★ ★ ★

• ومع أن أنادا بابو كان يتحرق شوقا ليعرف تأثير قصة رامش وكمالا على ابنته ، الا أنه لم يجرؤ قط على أن يمس الموضوع ! .. على أنه حين جلس الى جوارها فى المساء ـ يشرب قدحا من اللبن أذيب فيه الدواء ـ وجد فرصة سانحة ، اذ سأل همنالينى أن تغلق مصاريع النافذة ، فسادت الحجرة عتمة وادعة .. واذ ذاك قال : « ان الكهل الذى زارنا اليوم رجل طيب ! » .. ولم تجب ، فتشجع واتخذ خطوة أخرى ، فقال : « شد ما أذهلنى مسلك رامش ... » ، ولكنها قاطعته فى ضراعة : « دعنا من ذكره يا أبت ! » ..قال : « ما أردت أن أبحث شئونه يا عزيزتى ، ولكن القدر شاء أن ترتبط سعادتنا وتعاستنا بشخص أو بآخر ، فليس بوسعنا أن نتجاهل تصرفاته ! » .. ولكنها صاحت : « لا .. لسنا نملك أن نقيم سعادتنا وتعاستنا على أى فرد .. انك تجعلنى أشمئزمن نفسى يا أبت اذا كدرت نفسك ظنا منك اننى متأثرة بشىء ! » .. فقال : « لقد اكتهلت يا ابنتى ، ولن أهنأ حتى أراك مستقرة فى حياتك . كيف أرتاح فى موتى اذا تركتك غير متزوجة ؟ . . **ان تعرضنا للأحزان والصدمات القاسية ، يجب أن لا يحولنا عما تستطيع الحياة أن تقدم لنا من أنعم أخرى ! .. انك فى أساك قد لا تبصرين الطريق التى تؤدى بك الى حياة سعيدة ، نافعة .. ولكن ، تذكرى أولا أن لا هم لى سوى خيرك .. وانى**

لأعرف أين تكمن مصلحتك ورفاهيتك ، فلا ترفضى الخطبة التى عرضتها عليك اليوم ! » ٠٠ واختلج جفنا الفتاة ، وقالت :« ما كنت لأرفض لك طلبا يا أبت ، ولكن دع لى الفرصة كى أطهر قلبى من الهواجس وأهيىء نفسى ! »

ومد « أنادا بابو » يده فى الظلام ، فتحسس وجنتى ابنته المرطبتين بالدموع ، دون أن يتكلم !

وكان الأب وابنته يجلسان الى مائدة الشاى ، حين أقبل أكشاى ٠ وقال وهو يتقبل قدحا من الشاى : « لم نعثر بعدعلى أثر ! ٠٠ على أن لرامش وكمالا بعض أمتعة لدى تشاكرابارتى ، وانه لحائر بصددها ٠٠ ولو أن رامش عرف بمكان وجودكما ، لأتى اليكما ، ومن ثم ٠٠٠ » ٠ وهنا صاح أنادا بابو مغضبا : « ظننتك أكثر ادراكا من هذا ٠٠ لماذا يأتى رامش الينا ، ولماذا نحتفظ بأمتعته ؟٠٠ انك انما تحاول أن تستثيرنا بالدأب على ذكره يا أكشاى ٠ وانى لأطلب اليك أن لا تذكر هذا الموضوع مطلقا ، ومهما تكن الأسباب ! »

الفصل الرابع والخمسون

◆ **وحانت** الليلة السابقة على رحيل « موكوندا بابو » ، فأخذت كمالا تتوق الى حادث يعطل الرحيل ! وراحت تصلى عسى أن يفد الدكتور ناليناكشا على الدار قبل الرحيل ، ولكن أمنيتيها لم تتحققا ! ٠٠ وكانت « نابينكالى » قد حرصت على أن تستبقيها تحت رقابتها ، خشية أن تهرب خلال جلبة الاستعداد للرحيل ٠ وأمرتها فى تلك الليلة بأن تنام معها فى غرفة واحدة ، لتصطحبها فى العربة التى تستقلها الأسرة الى القطار فى الصباح

وغادر القطار (بنارس) فى موعده ، فانطلق فى سرعة وضجيج ، كأنه فيل هائج يعيث فسادآ ٠ وأحست كمالا كأن

نابى هذا الفيل يمزقان نفسها . وأخذت تطل خلال النافذة بعينين نهمتين . وعند ما درج القطار فوق الجسر ، مالت كمالا بجذعها خارج النافذة ، تلقى نظرة أخيرة على المدينة المترامية على ضفة النهر . وصاحت نابينكالى : « عجبا ، ماالذى يدعوك الى أن تشرئبى بعنقك هكذا ؟.. أتظنين أنك طير يستطيع أن ينشر جناحيه ويطير ؟! »

واختفت (بنارس) عن بصر كمالا ، فتهالكت فى مقعدها تحملق فى الفضاء. وما لبث القطار أن وصل الى (موجالسيراى)، وكان على القوم أن يهبطوا ليستقلوا قطارا آخر الى (ميروت). وخيل لكمالا - وسط ضجيج المحطة وزحامها - أنها فى حلم!.. وفجأة ، أذهلها أن سمعت صوتا مألوفا يهتف : « أماه ! » .. والتفتت صوبه .. فاذا بها ترى « أومش » وقد أشرق وجهه حبورا . وقفز الصبى من عربة أحد القطارات ، وارتمى عند قدميها يتحسس التراب تحتهما ويحسوه على رأسه فى توقير!.. **وفى اللحظة التالية ، تحرك القطار الذى كانت نابينكالى وحاشيتها قد استقلوه . وصرخت العجوز : « ماذا تفعلين ؟ .. هيا .. اصعدي .. لقد تحرك القطار ! » .. ولكن كمالا لم تكن تسمع شيئا .. والقطار ماض بسرعة مطردة ، حتى غادر المحطة**

وقالت كمالا : « من أين أتيت يا أومش ؟ » .. فأجاب : « من غازيبور » .. وأمطرته بالأسئلة عن القوم،وقد اغرورقت عيناها بالدموع .. ثم عادت تسأله : « والى أين ستذهب ؟ » .. قال : « معك يا أماه !» .. فقالت : « ولكنى لا أملك شروى نقير ! » . قال : « لا تحملى هما .. اننى لم أنفق درهما من الروبيات الخمس التى أعطيتنيها ! » .. فهتفت : « اذن ، هيا يا أومش .. لنعد الى بنارس .. اذهب فابتع لنا بطاقتى سفر » . وان هى الا لحظة حتى عاد بالبطاقتين ، فقادها الى القطار الذاهب الي (بنارس) ، وبعد أن اطمأن الي استقرارها

فى المقصورة الخاصة بالحريم ، اتخذ لنفسه مكانا فى مقصورة مجاورة

واذ هبطا فى (بنارس) ، قالت كمالا : « الى أين نذهب ؟ » ، فقال الغلام : « سأصحبك الى أصلح مكان » ، فهتفت فى عجب : « أصلح مكان ؟ ! » .. وقال وهو يدفع بها الى عربة : « سترين ! » . وما لبثت العربة ان استقرت بهما أمام دار ، فدعاها « أومش » الى الهبوط ، وصاح وهو يلج الدار : « أأنت هنا يا جداه ؟ » .. فواتاه الجواب من احدى الغرف : « أهذا أنت يا أومش ؟ » .. وبرز « العم » اذ ذاك من احدى الغرف ، فأشرق محيا « أومش » .. **وذهل الشيخ حين رأى كمالا أمامه تبدى له آيات التوقير ! وانقضت لحظة قبل أن يقوى الرجل على الكلام ، ولكنه لم يفقه ما بدر منه . وما لبث فى النهاية ان أمسك بذقن كمالا ، ورفع وجهها الصغير نحوه ، وهتف : « ها قد ردت ابنتى الصغيرة الى !** » . ثم صاح بأعلى صوته : « سايلاجا ! سايلاجا ! .. تعالى ! » .. وأقبلت سايلاجا تطل من الطابق العلوى ، ثم طوت درجات السلم . وانحنت كمالا ومست قدميها ، فضمتها « سايلاجا » الى صدرها ، وقبلت جبينها ، ثم قالت والدموع تنساب من عينيها : « يا عزيزتى ! .. كيف تتركيننا هكذا ؟ .. أما عرفت أن عملك قد حطم قلوبنا ؟ » .. وفى اللحظة التالية أقبلت « أومى » تهزذراعيها ، وتصرخ فى غبطة : « خالتى ! خالتى ! » ، فاختطفتها كمالا بين ذراعيها ، وضمتها الى صدرها ، وأغرقتها بالقبلات

وكانت « سايلاجا » قد أصرت على أن تصحب أباها ، حين أخذ برأى « أكشاى » ووافق على أن يصحبه الى (بنارس) . وفيما كانوا يهبطون من القطار ، لمحوا « أومش » يهبط خلفهم ، اذ كان قد تسلل الى القطار ليرافقهم خلسة . ولكن الأب وابنته ما زالا به حتى قبل أن يعود الى (غازيبور) . بيد أن الصبى لم يطق بقاء هناك ، لا سيما وكمالا ليست في البلدة ، فما لبث

أن استغل النقود التى كان « العم » قد منحه اياها ، فى العودة الى (بنارس) ٠٠ فكان هذا اللقاء !

الفصل الخامس والخمسون

◆ **أقبل** « أكشاى » لزيارة « تشاكرابارتى » فى اليوم التالى ، فلم يقل له أحد شيئا عن عودة كمالا ، اذ كان « العم » قد بدأ يحدس كراهية الشاب لرامش ٠ ولم يسأل أحد كمالا عن سبب هربها ، ولا اين كان ملاذها ، وكأن مجيئها الى الأسرة كان أمرا طبيعيا بعد غياب عادى !٠٠ ودعت « سايلاجا » كمالا فى تلك الليلة الى أن تشاطرها مخدعها ، وضمتها فى احضانها ، وراحت تمسح رأسها فى رفق وحنان ، مما هفا بأعصاب كمالا ، فشرعت تروى لها سرها : « لست أدرى لم لم أستطع أن أروى لك القصة من قبل؟!٠٠لم أكن اذ ذاك أقدر تطور الأمور ، فلقد جاءتنى الصدمة بغتة ، فشعرت بأن ليس فى وسعى أن أواجهكم ثانية !٠٠ لقد حرمت من أبى وأمى يا ديدى ، ولكنك لى أم وأخت ، ولهذا أرانى على استعداد لأن أروى لك ما لم أكن لأرويه لأى مخلوق ! »

واستوت كمالا جالسة فى الفراش ، فحذت سايلاجا حذوها ٠ وراحت الأولى تروى قصتها مذ تزوجت ٠ وعندما ذكرت كيف ان الرجل الذى وقعت بين يديه عقب نجاتها من الغرق ، والذى ظنته زوجها ، لم يكن زوجها البتة ، حملقت فيها « سايلاجا » فى دهشة ، وأحاطت عنقها بذراعها ، قائلة : « واها لك يامسكينة !٠٠ الآن فهمت كل شىء !٠٠ ولكن ، ألم يفطن رامش بابو الى الحقيقة ؟ » ٠٠ فقالت كمالا : « فى ذات يوم ـ بعد الزواج بمدة ـ نادانى باسم « سوسيلا » ، فقلت له : « لم تدعونى سوسيلا ، وانا ادعى كمالا ؟ » ٠ وانى لأدرك الآن انه فطن الى الأمر »

وانتزعت سايلاجا القصة كلها منها ، قطعة فقطعة ، حتى اذا

فرغت كمالا منها ، قالت سايلاجا : « انه لأمر فظيع بالنسبة لك يا عزيزتى ، ولست أملك الا ان أرى انك كنت محظـوظة حين وقعت بين يدى رامش بابو دون سواه ٠٠ لكم أنا آسفة لحال ذلك الرامش بابو المسكين ! »

وكانت كمالا ما تزال تحتفظ بالخطاب الذى كان رامش قد كتبه لهمنالينى ٠ فلما أفضت سايلاجا لأبيها بالقصـة فى الصباح التالى ، قرأ الخطاب فى امعان ، ثم وضعه فى مظروف ، وخلع نظارته عن عينيه ، وقال لابنته : « وما الذى ينبغى عمله الآن ؟ » ٠٠ فقالت : « لقد أصيبت أومى ببـرد فى الليلة الماضية ، وأحب ان أدعو الدكتور نالينا كشا ، فان المرء يسمع كثيرا عنه وعن أمه فى بنارس ! »

وأقبل الطبيب ، ففحص الطفلة ٠٠ وأظهـرت « سايلاجا » تلهفا الى رؤيته ، وهتفت بكمالا كى تصحبها ، **ولكن كمالا التى لم تقو على مقاومة شوقها الى رؤيته فى دار نابينكالى ، لم تقو فى هذه المرة على رؤيته لفرط حيائها !**

★ ★ ★

◆ **وفى** ذات يوم ، سعى « العم » بنفسـه الى دار الطبيب ، متخيرا وقتا لا يجده فيه هناك ٠ والتمس رؤية أم نالينا كشا ، فلما اقتيد اليها ، قدم اليها نفسه قائلا : « ان المرء ليسمع عنك فى بنارس كثيرا يا أماه ، ومن ثم جئت ألتمس حظوة لقائك ٠ ان لى حفيدة مريضة ، وقد جئت أنشد ابنك ، فاذا هو غـير موجود ، ولم أر أن أنصرف قبل ان أرفع اليك احتـراماتى » ٠ وارتاحت اليه كشمنكارى ، فدعته الى الجلوس ريثما يعود ابنها ٠٠ وقالت : « يجب أن تأتى غدا لتتناول الغداء هنا ، اذ اننى غير متأهبة لاستضافتك اليوم ! » ، فقال العم : « أرجو ان لا تنسى الشيخ الماثل أمامك ، حين تكونين فى حاجة اليـه ٠٠ بوسعى أن أصحب خادمك فأريه دارى ٠٠ وهى جد قريبة من هنا » ٠ وبعد عدد من الزيارات ، أصبح « العم » من أصدقاء

الأسرة المترددين على البيت !

وظل الأب وابنته يرسمان خطتهما بدقة وحذر ، الى ان كان ذات صباح ، اذ قال العم لكمالا : « هيا يا فتـــاتى ، يجب ان نذهب للاغتسال ، فاليوم عيد دساسواميد »

وتخلفت سايلاجا عن مرافقتهما متعللة بتوعك ابنتها . حتى اذا آن لهما ان يعودا ، سلك العم بكمالا طريقا غير التى سلكاها فى المجىء . **والتقيا في تلك الطريق بالسيدة العجوز عائدة من النهر ، ترفل فى غلالة من الحرير ، وتحمل جرة مليئة بمـــاء (الجانجز) ، فاعترض العم طريقها وقال لكمالا : « هــذه ام السيد الطبيب يا عزيزتى ، فحييها ! » .. وأجفلت الفتـــاة مأخوذة ، ثم سجدت عند قدمى كشمنكارى ، ومست الغبـــار العالق بهما ، فهتفت السيدة : « يا عجبا !.. من هــذه ؟.. يا لجمالها ! » .. وانزاح النقاب عن وجه كمالا . وســألتها العجوز : « ما اسمك يا عزيزتى ؟ » . وقبل ان تجيب كمالا ، قال العم : « اسمها هاريداسى ، وهى ابنة ابن عم لى ، فقـدت أبويها فكفلتها ! »**

ودعتهما الى دارها . وهناك قال العم : « أحب أن أذكر لك ان قريبتى هذه كانت منحوسة الحظ . ففى صبيحة يوم زواجها ، زهد زوجها الدنيا ، وفارقها فلم تره منذ ذلك الحين . وقـــد اعتزمت ان تكرس حياتها للعبادة فى أحد الأماكن المقدســة . ولكننى لا أقيم هنـــا ، ولا أستطيع ان أستغنى عن عملى فى (غازيبور) . ولهذا أسألك ان تسدى لى صنيعا . لسوف أزيح عن رأسى عبئا يشغلنى ، اذا استطاعت ان تمكث معك وتغـدو ابنة لك . فاذا سئمت يوما عشرتها ، فرديها لى فى غازيبور . ولكننى أؤكد لك انك لن تلبثى ان تتبينى ـ خلال يومين ـ انها كنـــز غال ، ولن تطيقى فراقها لحظة واحـــدة ! » .. فهتفت السيدة : « هذا اقتراح طيب ، فكم من مـــرة سرنى ان ألتقط الغريبات من الطريق،فكنت آتى بهن لأمنحهن الكساء والقوت،

ولكنى لم أكن أستطيع استبقاءهن معى ٠ أما وقد أسلمتنى هاريداسى ، فلا تحمل لها هما ٠ ولابد انك سمعت عن تقوى ابنى ٠٠ وليس سوانا يقيم هنا ! » ٠٠ فقال العم : « كل انسان سمع عن نالييناكشا ، وانى لمغتبط من صميم فؤادى اذ أعرف انه مقيم معك ٠ لقد سمعت ان زوجته غرقت بعد زواجهما ، وانه يعيش ناسكا ! »

وما ان انصرف « العم » ، حتى ادنت كشمنكارى الفتاة منها قائلة : « دعينى أنظر اليك ٠٠ انك طفلة ٠٠ اى زوج غبى هذا الذى فارقك !٠٠ انى لأدعو ان ترده اليك السماء ، فان القدر لم يخلق مثل جمالك ليذهب هباء ٠٠ انك لن تجدى لدات من سنك هنا ، فهل تطيقين العيش معى وحيدة ؟ » ٠٠ فقالت كمالا وعيناها الجميلتان تفيضان بالرضى : « أجل يا أماه ٠٠ ولسوف أؤدى لك كل الأعمال ! » ٠ ٠٠ وآذ ذاك هتفت السيدة : « أهكذا ؟! » ٠٠ وتحولت تحدثها عن زهد ابنها ، وانه لا يسر خاطرها مرة بطلب نوع من الأكل ، ثم قالت : « اذا كنت ستقضين ساعات اليوم الأربع والعشرين معى ، فدعينى أنذرك مقدما بأنك لن تلبثى أن تسأمى سماعى وانا أتغنى بمديح ابنى ٠ ولكن عليك ان تحتملى ! »

وسألتها ان كانت تعرف الحياكة ، فقالت كمالا : « الى حد ما » ٠٠ قالت السيدة : « سوف ألقنك دروسا فى ذلك ٠ وهل تجيدين القراءة ؟ » ٠٠ فقالت كمالا : « أجل ٠٠ كذلك تعلمت الطهو والتدبير المنزلى » ٠ وأحست بأن أمامها فرصة لكى ترضى رغبة تملكت فؤادها ، فهمست : « ألا دعينى أقوم بالطهو اليوم يا أماه ! » ٠٠ فابتسمت كشمنكارى قائلة : « ان مخزن المؤن والمطبخ هما مملكة الزوجة الصالحة »٠ومن ثم انهمكت « كمالا » فى أعمال المطبخ ، بينما آبت العجوز الى الغرفة التى أعدتها لتتعبد فيها

وكان من عادة « نالييناكشا » ـ اذا ماعاد الى البيت ـ ان

يبادر الى رؤية أمه قبل كل شيء ، اذ كانت صحتها شغله الشاغل • فما ان دخل الدار فى ذلك اليوم ، حتى أنبأه أنفه وأذناه ، بأن الطهو يجرى على قدم وساق فى المطبخ ، فظن أن أمه هناك ، **وسعى فوقف فى مدخل المطبخ • وانتبهت « كمالا » الى وقع قدميه ، فالتفتت ، واذا بها تجد نفسها وجها لوجه مع نالليناكشا ، فتركت المغرفة من يدها ، وحاولت أن ترخى القناع على وجهها ، ولكنها أخفقت •• بينما استدار « نالليناكشا » وانصرف**

★ ★ ★

◆ **لم** يمض طويل وقت حتى فرغت كشمنكارى من عبادتها ، وعادت الى المطبخ ، فاذا كمالا قد فرغت من الطهو ، ونظفت المطبخ تماما • وعندما أعد الطعام ، جلس نالليناكشا وأمه الى المائدة ، بينما وقف شخص صغير ، منفعل ، يتسمع خارج الباب • وسمعت كمالا « كشمنكارى » تقول : « ما رأيك فى الطعام اليوم يا نالين ؟ » •• ولم يكن «نالليناكشا» نهما بطبعه ، ولا كانت الأم قد عرفت أن ابنها قد علم بوجود فتاة غريبة فى المطبخ ، وانه سر لذلك ، اذ كان دائما يسعى لاغراء أمه على استخدام طاهية ، بعد ان ضعفت قواها • ولم يتمالك الشاب ان قال : « آن الطعام رائع يا أماه ! » •• ولاذت كمالا بأقرب غرفة ، وعقدت ذراعيها على صدرها تحاول ان تخفف من تهدجه• وما لبث نالليناكشا ان لاذ بغرفة مكتبه ، فعكفت أمه على تنسيق شعر كمالا ، فى فترة ما بعد الظهر ، ثم راحت تدير رأسها يمنة ويسرة ، تتأمل منظرها ، و « كمالا » فى درجة من الخجل لا تقوى معها على التطلع • **وارسلت السيدة العجوز زفرة حرى ، وهمست لنفسها : « آه ، ليتنى أجد لابنى زوجة مثلها ! »**

وفى تلك الليلة ، اقترح نالليناكشا على أمه ان ترافقه بعيدا عن (بنارس) بضعة أيام للاستجمام ، ولكن كشمنكارى هتفت : « لا يا بنى •• آننى لا أضمن أن أعيش أياما ، ولا أريد أن أقضى

آخر عمرى فى مكان غريب ! » ٠٠ ثم التفتت الى كمالا ، قائلة : « اسرعى يا عزيزتى الى غرفتك ، ولا تضيعى شيئا من وقت النوم ٠ وانت يا نالين ٠٠ الى غرفتك ، فقد آن لك أن تنام ! » ٠٠ ولكن كمالا ظلت حتى أسلمت العجوز الى سريرها، وجلست تدلك لها قدميها ٠ وقالت السيدة :« **ما الذى فعلت لأكون جديرة بهذا ؟٠٠ لقد فطرت بحيث لا أطيق ان يخدمنى غريب ، ولكن لمستك تبعث القوة فى كيانى !٠٠ ما أغرب أن أحس بأننى عرفتك منذ سنوات ، فلست أراك غريبة عنى !٠٠** والآن ، هيا الى فراشك يا عزيزتى ، ولا تحفلى ، فان مخدع نالين لصق مخدعى ، وهو لا يسمح لأحد غيره بالسهر على أمه ٠٠ فمن فضائله وميزاته انه يستطيع ان يقضى الليل ساهرا ، وان يحتمل كافة المتاعب ، دون ان يبدو عليه أثر لذلك ٠ أحسبك ستضحكين فى قرارة نفسك لأننى لا أكف عن الحديث عنه ٠٠ ولكنه ابنى الوحيد ٠ بل اننى أخال أحيانا انه ابى ، واننى عندما أكبر سأستطيع أن أجزيه عن كل ما يفعله من أجلى ! »

وعكفت « كمالا » فى اليوم التالى على أعمال البيت ٠ وعندما دخل نالين حجرة مكتبه فى الصباح ، وجدها رائعة النظافة ، وقد أزيل الغبار عن الكتب التى رتبت على الأرفف بعناية ٠ وكشفت أشعة الشمس المنسابة عن مدى نظافة أرض الغرفة ٠ كذلك وجدت كشمنكارى ـ عند استيقاظها ـ ان كمالا تجثم فى انتظارها ، حاملة جرة من مياه (الجانجز) ، فهتفت بعد ان غسلت وجهها : « هل ذهبت الى النهر وحيدة يا عزيزتى ؟ ٠٠ انك صغيرة وما ينبغى ٠٠٠» ، فقالت كمالا : « لقد عجز أحد خدم عمى يا أماه عن ان يكبح نفسه عن المجىء لزيارتى ليلة أمس ، فاصطحبته الى النهر » ٠٠ وكان ذلك « الخادم » هو « أومش » ، الذى سرت السيدة العجوز لمرآه ، فسمحت لكمالا بأن تستبقيه فى البيت ليساعدهافى أعمالها ٠ وهكذا استطاعت كمالا ان تفرغ من أعمال البيت مبكرة بمساعدته ٠ ثم تحولت

فجمعت ثياب نالينا كشا المتسخة فغسلتها وجففتها ونسقتها

★★★

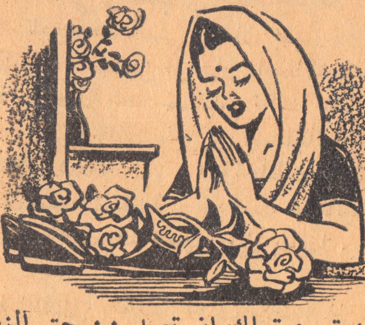
◆ **أقبلت** همنالينى ـ بعد ظهر ذلك اليوم ـ تحمل باقة من الزهور ، فانحنت راكعة لكشمنكارى ، التى جلست فى فراشها قائلة : « تعالى يا هيم ·· اجلسى ·· هل أنادا بابو بخير ؟ » ، فأجابت الفتاة : « كان متوعكا أمس ، ولهذا لم أستطع الحضور ، ولكنه تحسن اليوم »

وتحولت السيدة العجوز تعرفها بكمالا ، قائلة : « انـــك لتعرفين يا عزيزتى ان أمى ماتت فى طفولتى ، وها هى ذى قد بعثت بعد كل هذه السنين ، فالتقيت بها فى الطريق بالأمس ، على غير توقع ! ·· لقد كان اسمها هاريباجينى ، فاتخـذت فى تقمصها اسم هاريداسى ·· أرأيت من قبل مثل هذا الجمـــال يا هيم ؟ » ·· ونكست كمالا رأسها فى استحياء ، ولم تستطع ان تتخلص من خجلها فى حضرة همنالينى الا بعــــد وقت · وسألت همنالينى السيدة عن صحتها ، فأجابت : « ان المرء اذا بلغ ما بلغت من السن ، لم تعد ثمة حاجة للسؤال عن صحته · والواقع اننى قانعة بانى ما زلت على قيد الحيـــاة ، ولكنى لن أستطيع ان أخدع الزمن طويلا ! ·· وبهذه المناسبة ، أحب ان أتحدث اليك فى أمر طال ترقبى الفرصة الملائمة لمفاتحتك فيـــه ·· هل ذكر لك ابوك الاقتراح الذى عرضته عليه منذ أيام ؟ » ·· فأجابت همنالينى وقد غضت بصرها : « أجل ، ذكره لى »

فقـــالت كشمنكارى : « ولكنك على ما يبـــدو لم توافقى يا عزيزتى ، لأن أنادا بابو لم يوافنى برد · **لقد حسبت نالين ناسكا يقضى نهاره وليله مستغرقا فى العبادة ، فشعرت بأن لا قبل لك بالزواج منه · والواقع ان من لا يعرفه يظنه عاجزا عن الحب ، ولكن الناس يخطئون فى هذا ·· ان عواطفه لعارمة ، ولهذا فهو دائما يحرص على السيطرة على مشـــاعره !·· انك لست طفلة يا عزيزتى هيم ، بل انك فتاة مثقفة ، وقد ارتحت**

الى تعاليم نالين ، وانى لأموت راضية اذا وجدتك مستقرة فى بيته !٠٠ صارحينى يا عزيزتى ، ما الذى لا يروق لك منه ؟ » ٠٠ فقالت همنالينى وهى تغض بصرها : « ليس لدى اعتراض اذا رأيتنى صالحة له يا أماه ! »

واذ ذاك ضمت كشمنكارى الفتاة اليها ، وطبعت قبلة على جبينها ، ثم التفتت الى « هاريداسى » ، ولكنها لم تجد لها أثرا ٠ فقد تسللت الفتاة من الحجرة وهما تتحدثان ٠ وما ان انصرفت همنالينى ، حتى استدعت السيدة العجوز نالينا كشا ، وهنأته وتقبل الشاب النبأ فى هدوء ، وهو يرجوها ان لا تنفعل ، وان تستسلم للنعاس ٠ واذ خرج ، نادت السيدة « كمالا » ، وأسلمتها الزهور التى احضرتها همنالينى ، فوضعت بعضا منها فى آنية للزهور على مكتب نالينا كشا ، كما وضعت بعضا آخر فى مخدعه ، ووضعت الباقى على نعلين كانا فى صوان ملابسه ، ثم ركعت أمامهما ، والدموع تنحدر من عينيها ، وهى



تفكر فى انها لن تعود تملك ان تعبد ٠٠ حتى النعلين!٠٠ **وفجأة، سمعت وقع قدمى نالينا كشا ، فأسرعت تغلق الصوان ، والتفتت ، فاذا به لدى الباب ٠ وتمنت لو أنها ذابت فى أشباح الليل المقبل !٠٠ أما هو ، فقد تحول عن الغرفة فجأة حين رآها ٠ واذ ذاك غادرتها كمالا مسرعة،فأسرع بدوره الى الصوان**

يحدوه الفضول الى معرفة ما كانت تفعل . وما ان أبصر النعلين وقد غطتهما الزهور اليانعة ، حتى تحول الى النافـذة ، وكأنه يريد أن يعب من آخر أشعة الشمس المحتضرة !

الفصل السادس والخمسون

• **أخـذت** همنالينى - بعد أن وافقت عـلى الزواج من نالنياكشا - تحاول ان تقنع نفسها بأنها كانت سعيدة الحظ ، وشرعت تحاول التحرر من الماضى وأشجانه . وداخلتها السكينة التى تعقب اختتام فصل من فصول الحياة البشرية . حتى اذا عادت الى دارها في ذلك المساء ، كانت تشعر براحة سابغة . ووجدت أباها قد أوى الى مخدعه مبكـــرا ، فأوت بدورها الى غرفتها ، وعكفت - حتى ساعة متأخرة - على تسجيل مشاعرها فى مذكراتهـــا ، فكتبت : « **كنت قـــد قطعت كـل الروابط الانسانية ، واعتبرت نفسى ميتة بالنسبة للدنيا ، وما خطر لى قط ان الله قد ينقذنى ويكتب لى حياة جديدة !** »

وكان أنادآ بابو وهمنالينى يهمان بمبارحة دارهما - بعد ظهر اليوم التالى - قاصدين الى دار نالنياكشا ، حين أقبلت على الدار عـــربة يقودها أحد خـــدم نالنياكشا ، فهبطت منهـــا كشمنكارى . واسرع انادا بابو الى استقبالها ، فبادرته قائلة : « لقد جئت أبارك ابنتك ! » .. وأحاطت معصمى الفتاة بزوج من الأساور الذهبية الثقيلة ، فركعت همنالينى عند قدميها ، واذ ذاك احتضنت السيدة وجهها بين يديها ، وطبعت قبلة على جبينها

وفى الصباح التالى ، جلس الأب وابنته فى الحديقة يتناولان الشاى ، والشيخ فى أقصى درجات الغبطة ، يتأمل وجه ابنته ، ويخال ان روح زوجته المتوفاة قد هبطت على الفتاة وخففت من فورة الفرح لديها ، بمسحة من وجوم !.. وفجأة ، وقفت عربة أمام الباب الخارجى ، وقد ظهرت فوقها بعض الحقائب ، فصاحت

همنالينى : « هذا جوجن ولابد ! » ٠٠ وخفت الى الباب ، فاذا جوجندرا يهبط من العربة ، بادى البشر والسرور ٠ وسألته وهو يحييها فى مودة : « هل معك أحد ؟ » ، فضحك قائلا : « أجل ، لقد أحضرت هدية عيد الميلاد لأبى ! » ٠ وبرز رامش اذ ذاك من العربة ، فما ان وقع بصر همنالينى عليه حتى نكصت على عقبيها وأسرعت بالدخول ٠ وأسرع جوجندرا خلفها يناديها، ولكنها لم تحفل به

ووقف رامش حائرا ، فارتد اليه جوجندرا قائلا : « تعال يا رامش ، فان أبى يجلس فى الحديقة » ٠ وتأبط ذراعه ، وقاده الى أنادا بابو ٠ ولم يصدق الشيخ عينيه ٠٠ وأخذ يتمتم لنفسه فى استياء : « ها هى ذى عقبة جديدة ! » ٠٠ وانحنى رامش أمام الشيخ ، فدعاه هذا الى مقعد ، وقال لابنه : « جئت فى موعد مناسب يا جوجن ، فقد كدت أبرق لك » ٠٠ وهتف الابن : « لماذا ؟ » ، فقال الشيخ : « لقد اعتزمنا تزويج همنالينى من ناليناكشا » ٠٠ قال جوجندرا : « اتقصد انكم اتخذتم قرارا نهائيا يا أبت ؟٠٠ أما كان ينبغى أن استشار فى الأمر ؟ » ٠٠ فقال الأب : « ان أحدا لا يعرف لك قولا يا جوجندرا ٠٠ ألم تكن متحمسا لهذا الزواج ؟ » ٠ قال الشاب : « هذا حق ، ولكن دع الماضى ٠٠ آن لدى حديثا طويلا ، فاسمعنى ٠٠ » ، فقال أنادا بابو ، وهو ينهض عن مقعده : « سأسمعه فيما بعد ، فاننى وهيم مدعوان لتناول الفطور لدى أم نالیناكشا »

الفصل السابع والخمسون

• **كانت** كشمنكارى قد قالت لكمالا فى اليوم السالف : « لقد دعوت همنالينى وأباها لتناول طعام الفطور غدا ، فماذا نعتزم أن نقدم اليهما ؟٠٠ على اننى اعرف انك طاهية بارعة يا عزيزتى ٠٠ما سمعت قط ابنى يبدى رأيافى الطعام ، ولكنه لم يجد - أمس - العبارات التى يطرى بها طعامك !٠٠ ولكن ، لم

لا تبدين مشرقة الوجـــه يا عزيزتي ؟ » ٠٠ فاغتصبت كمالا ابتسامة وهى تقول : « اننى بخير يا أماه ، فشكرا ! » ٠٠ ولكن كشمنكارى هزت رأسها قائلة : « بل أراك مهمومة من أجل أمر ما ٠ لا داعى لأن تكتمى عني ٠٠ لا تعتبرينى غريبـــة عنك يا عزيزتى فانى أعتبرك ابنة لى ! » ٠٠ ولما عجزت السيدة العجوز عن حملها على الكلام ، قالت : « قد يكـــون من الخير أن تذهبى لعمكفتمكثي لديه بضعة أيام ، ثم تعودى ان شئت ! »، فصاحت كمالا فى لوعة : « أماه !٠٠ طالما أتيـــح لى أن أمكث معك ، فلست بحاجة الى ان أرى فى الدنيا ســـواك ! » ٠٠ فربتت العجوز خدها قائلة : « هذا مما يجعلنى ازداد اعتقـــادا بأنك كنت أمى فى حياتك السابقة يا عزيزتى ! »

وأوت كمالا الى غرفتها فى تلك الليلة ، فأطفأت المصباح ، واغلقت الباب ، وجلست على الأرض تفكر فى الظلام ٠ وانتهت بها أفكارها الى هذه الصيغة : « **لن أستطيع ان أواصل رعايته ، اذا كانت السماء ستحرمنى هذا الحق ٠ يجب أن أروض نفسى على اليأس منه ، وان أقنع بأن أؤدى له خـدمة بين آن وآخر ٠ فليهبنى الله القوة على أداء هذه الواجبات بوجه باسم !٠٠ ومـن الغد ، يجب ان اتخلص من حسرتي ، وان لا أبدو مطلقا شقية ٠ لن أسمح أبدا لزفرة حزينة بأن تنبعث من صدرى ٠ سـأقنع بأن أخدمه طوال أيام حياتى ، ولن أطمع فى مزيد أبدا ٠٠ أبدا ٠٠ أبدا !** »

وأخذت تردد هذه العبارة وهى تتقلب فى فراشـــها ٠ حتى اذا أسفر الصباح ، نهضت مستجمعة كل مالديها من قـــوة الارادة ، وهى لا تزال تردد العبارة ٠ وأسرعت تغتســـل فى (الجانجز) ، حتى اذا عادت ، سعت الى كشمنكارى بوجه باسم، فهتفت السيدة : « لماذا بكرت وسبقتنى الى النهر ؟ » ، فقالت : « لم يكن بوسعى أن أتلكأ يا أماه ، فهناك عمل كثير لاعـــداد الفطور للضيوف » ٠ وخرج « نالليناكشا » من غرفته اذ ذاك ،

فقالت له أمه : « أخارج أنت الآن؟٠٠اذن لا تتأخر فى الخارج !»، فسألها : « ولماذا يا أماه ؟ » ٠٠ قالت : « لقد نسيت أمس أن انبئك بأن أنادا بابو قادم ليباركك ! » ، فقال : « ليباركنى ؟ ٠٠ كيف أصبح مباركا الى هذه الدرجة فجأة ؟ » ٠٠ فصاحت به : « لقد ذهبت أمس فأهديت همنالينى سوارين وباركتها ، وهو قادم بدوره ليباركك ، فلا تتأخر ! » ٠٠ وسار نالينا كشا خافض الرأس ، مستغرقا فى التفكير !

الفصل الثامن والخمسون

• **ما** أن فرت همنالينى من أمام رامش ، حتى أوت الى حجرتها ، وأوصدت بابها خلفها ٠ وساءلت نفسها بعد ان غالبت انفعالها : « **لماذا عجزت عن أن أقابل رامش بابو دون أن أفقد جلدى ؟٠٠ لماذا أقدمت على هذا التصرف المؤسف عندما حدث الشىء الذى لم يكن مرتقبا** ؟ » ٠٠ ونهضت ، فاستجمعت جأشها ، وخرجت لتقابل « رامش بابو » وقد عولت على أن تصمد للموقف ٠ ثم تذكرت أمرا ، فعادت الى غرفتها ، وأحاطت معصميها بالسوارين اللذين تلقتهما من كشمنكارى ، وهبطت الى الحديقة ، ولكن رامش وجوجندرا كانا قد انصرفا٠٠فتأهبت لمرافقة أبيها الى دار نالينا كشا

ولم تكن الساعة قد تجاوزت العاشرة والنصف حين بلغا الدار ٠ ولم يكن الطبيب قد عاد بعد ، فتولت كشمنكارى استقبالهما والحفاوة بهما ٠ وادهشها ان لا ترى الفتاة بالغة الابتهاج فى ذلك الصباح ، فأثقل وجوم همنالينى استبشار السيدة العجوز ، اذ خيل اليها ان الفتاة غير راضية عن الزواج من ابنها ، وانها ترى نفسها أهلا لمن هو أفضل منه !٠٠ وأفلت منها عنان الحديث فى غمرة أفكارها ٠ وفجأة ألفت نفسها تقول : « لا داعى هناك للتعجيل بالزفاف ، فهما فى سن يستطيعان أن يقررا فيها شئونهما ، ولا يليق بنا ان نوجههما٠

ولست أدرى بالطبع ما تشعر به هيم ازاء هذا الأمر ، ولكنى استطيع ان أقول ان نالين لم يرض نفسه تماما على تقبل الفكرة بعد ! » ٠٠ وكان كلامها موجها الى همنالينى اكثر منه الى أبيها، فقد رأتها موزعة البال ، فشاءت ان تشعرها بأن ابنهـا لم يطر فرحا بالزواج المرتقب !

والواقع ان همنالينى كانت قد اقبلت فى ذلك الصباح وهى تغتصب الابتهاج اغتصابا ، ولكنها لم تكد تجتاز عتبـة دار كشمنكارى ، حتى دهمها ذعرطارىء ، وبدت لها الطريق الجديدة ـ التى وجهت اليها حياتها ـ مليئة بالصـخور ، والمفاوز ٠ **وعندما أبدت السيدة العجوز فتورها نحو الزفاف ، استولى على الفتاة شعوران متضاربان : فقد رأت ـ من ناحية ـ ان التعجيل بالزواج يتيح لها التحرر الذى تنشده من حالها الراهنة ، ومن تشتت بالها ، وحيرتها ! ولكنها ـ من ناحية أخرى ـ وجدت راحة فى الاشارة الى احتمال العـدول عن المشروع ! وكانت العجوز ترمقها من طرف خفى ، فخيل اليها ان أسارير الفتـاة اكتست هدوءا وطمأنينة عقب قولها ذاك ، فاذا قلبها يقسـو عليها ، وقالت لنفسها : « لقد أوشكت أن أبيع ابنى الحبيب بثمن بخس ! »** ٠ وسرها انه تأخر عن الحضور ، فتحولت الى همنالينى قائلة : « هكذا هو نالينا كشا ٠٠ انه يعرف تمـاما انكما قادمان اليوم ، ومع ذلك فلم يبد له أثر » ٠ ثم تعللت بتفقد العمل فى المطبخ ، وغادرت الضـيفين وقد اعتزمت ان تستدعى كمالا لتشغل بها همنالينى ، ريثما تخلو الى الشيخ فى حديث خاص

ووجدت كمالا قد فرغت من اعداد الطعام وجلست فى ركن من المطبخ ، وقد استغرقت فى التفكير ، الى درجة انها ذعرت حين فطنت الى وجود السيدة العجوز ، فقفزت من مكانها وهى تبتسم فى ارتباك ٠ وسألتها السيدة : « لماذا تجلسين هنـا واجمة يا عزيزتى ؟٠٠ ان « هيم » هنا ، وأرى ان تصحبيها الى

غرفتك فتجاذبيها الحديث ، حتى لا تضجر من حديث عجوز مثلى ! » ٠٠ وأحست السيدة بعد هذه العبارة بأن الفتور الذى بدا على همنالينى قد ضاعف من عطفها على كمالا ٠ وقالت هذه مراوغة : « ولكنى لن أجيد الحديث معها ، فهى متعلمة وأنا لا أعرف شيئا ! » ٠٠ فصاحت العجوز : « ماذا تعنين ؟ ٠ انك لا تقلين عنها شأنا ٠ ومع ذلك ، فان اللاتى يفخرن بتعليمهن كثيرات ٠٠ اما اللاتى اوتين مثل جمالك ، فقليلات ! » ٠٠ وعقدت كشمنكارى عزمها على ان تظهر جمال همنالينى باهتا الى جوار الجمال الغض الذى أوتيته هذه الفتاة غير المتعلمة ، فقادتها الى غرفتها ، وخلعت عليها ثوبا من الحرير الأصفر ، وعقصت لها شعرها على أحدث نسق ، وتأملتها طويلا ، ثم طبعت على خدها قبلة وهى تقول : « **لعمرى ، ان لك من الجمال مايرشحك لقصر ملك ! » ٠ حتى اذا فرغت من تزيينها ، قالت لها : « هيا بنا الآن يا عزيزتى ، ولا تخجلى ٠ ان فتاة الجامعة لن تلبث ان تشعر بالغيرة اذا رأتك ٠ ارفعى رأسك عاليا أمامها ! »**

★ ★ ★

◆ **وكان** ناليناكشا قد وصل فى تلك الأثناء ، واندمج فى حديث مع الضيفين ٠ وما ان رأته كمالا ، حتى استدارت تهم بالفرار ، ولكن امه أمسكت بها قائلة : « ليس ثمة ما يدعوك للخجل يا عزيزتى ! » ٠ وراحت كشمنكارى تغبط نفسها على جمال الفتاة ، وتمنى نفسها بأن ترى أثره على الآخرين ٠٠ فان ما خالته من فتور لدى همنالينى ، أيقظ الأمومة فى أعماقها ، فرأت فى اظهار الفارق بين الفتاتين نوعا من الثأر لما اعتقدته اهمالا نحو ابنها من ضيفتها ! ٠٠ وبالفعل ، أذهل جمال كمالا الحضور !٠٠ وشعرت كشمنكارى بالفوز ٠٠ فما كان أحد ليرى كمالا دون أن يؤمن فى قرارة نفسه بأن جمالها هبة من هبات الآلهة ٠ وما لبثت السيدة ان قالت لها : « خذى

هيم الى غرفتك ، وسأعد المائدة بنفسى » • وكانت لحظة حرجة لكمالا • فقد راحت تسائل نفسها عما قد يكون رأى همنالينى فيها ، وهى التى لن تلبث ان تدخل الدار زوجة لنالليناكشا ، وسيدة للبيت ! وأبت ان تقر نفسها على انها هى السيدة الشرعية للبيت !•• وأخذت أوصالها ترتجف وهى تبرح الغرفة مع همنالينى ، التى راحت تقول لها فى لطف : « لقد عرفت كل شىء عنك من الآم ، وأرجو ان تعتبرينى أختا لك يا عزيزتى ! اننى لم أحظ بأخت ، وقد ماتت أمى فى طفولتى• وكم من مرة تمنيت لو كانت لى اخت ابثها ما فى نفسى ، سواء فى سعادتى او فى حزنى ! »

وتطرقت فى الحديث الى الزواج ، فسألتها عما كان عليه زوجها • ولم تشأ كمالا أن تجيب على السؤال مباشرة ، بل قالت : « ما عرفت اننى يجب ان اذكره يا أختاه !•• وعندما ذهبت للعيش فى دار عمى ، توثقت الصلات بينى وبين ابنة عمى سايلاجا ، فرأيت بنفسى كيف تكرس حياتها لزوجها ، واذ ذاك تفتحت عيناى الى ما ينبغى على الزوجة نحو زوجها • **اننى لم أر زوجى حقا ، ولكنى مع ذلك تعلمت كيف أعبده بكل قلبى • ولقد كافأنى الله على هذا الولاء ، اذ أصبحت أتمثل فى ذهنى صورة واضحة لزوجى • انه لم يحظ بزوجة فى شخصى - فى الواقع - ولكنى أرى الآن اننى قد عثرت على زوجى !** » •• ووجد ولاؤها هذا استجابة من قلب همنالينى التى قالت : « اننى أفهم ما تعنين •• ان الحصول على الشىء بالطريقة التى ذكرتها هو الفوز الحقيقى •• اما أى نوع آخر من الزواج ، فمجرد علاقة مادية لا يمكن ان تدوم ! » •• فأطالت كمالا النظر اليها لمدة دقيقة أو اثنتين ، ثم قالت : « اننى لا أحزن لفقده الآن ، فأنا جد سعيدة ، وأرى فيما حصلت عليه جزاء حقا ! » •• فقالت همنالينى : « ان استاذى يقول انه اذا استوى الكسب والخسارة لدى المرء ، فهذا هو

الكسب الحق !٠٠ لو انني حصلت على قدر ما لديك من قناعة ورضى لكنت مجدودة حقا ٠ أتعلمين يا عزيزتي ان قلبي كان مثقلا اليوم ، ولكن الهم زال عنه مذ رأيتك ، وأصبحت أشعر بأنني أسترداد قواي النفسية ! »

الفصل التاسع والخمسون

◆ عندما عادت همناليني من دار كشمنكاري، وجدت على مائدة غرفةالجلوس مظروفا سميكا يحمل اسمها بحروف عرفت فيها خط رامش ، فتسارعت دقات قلبها ، وحملت المظروف الى مخدعها ، حيث أغلقت الباب ، وأقبلت تقرأ محتوياته ، فاذا رامش قد أفضى اليها بكل قصته مع كمالا ، دون أن يكتم شيئا. واختتم رسالته بقوله : « لقد فسخت الظروف ذلك الرباط الذى وصلت السماء به حياتي وحياتك ، وها قد منحت قلبك لرجل آخر ، ولست ألومك مطلقا على ذلك ، ولكن يجب أن لا تلوميني أيضا ٠ ومع انني وكمالا لم نعش يوما كزوجين ، الا انني أرى ان اعترف لك بأنني كنت أميل اليها مع مرور الزمن ٠ ولست أدري بالضبط حقيقة مشاعري اليوم ، ولكن قلبي كان خليقا بأن يجنح الى مرفأ حبك ، لو لم تنبذيه ٠ وبهذا الأمل هرعت اليك في حيرتي وأشجاني، فلما سمعت أنك قبلت الزواج من رجل آخر ، عاودتني كل هواجسي وحيرتي ، ووجدت ان ليس بوسعي أن أنسى كمالا ، ولكن أحدا في الدنيا لن يتعذب لذلك سواي ٠ أما انني أتعذب ، فلأنني لن أنسى المرأتين الوحيدتين اللتين قدر لهما أن تعمرا قلبي ، وستظل ذكراهما مبعث سعادة لا تقدر لي ، طوال حياتي ٠٠ ومن ثم فانني أودعك وأنا قرير البال ، فشكرا لك ولها ، وشكرا للقدر الذى يجعلني لا أحس شقاء في ساعة الفراق هذه ٠ واني لأتمنى لك كل سعادة وهناء ، وأرجو أن لا تقسى على في تفكيرك ، لأنني لم أرتكب ما يدعوك لهذا ! »

وانزعج أنادا بابو حين رأى همناليني تدخل عليه فجأة ، فسألها : « أأنت بخير يا هيم ؟ » ٠٠ قالت : « أجل يا أبت ٠٠ لقد تلقيت خطابا من رامش بابو» ٠٠ وناولته الخطاب ، فقرأه ، ثم أعاد قراءته ٠ وكانت همناليني قد عادت الى غرفتها ، فأرسله لها مع خادم ، وجلس يفكر ٠ وما لبث أن قال لنفسه : « لا بأس ! ٠٠ ان نالينا كشا خير من رامش ! » ٠٠ وفي اللحظة التالية ، أقبل نالينا كشا بالذات ٠ وعجب الشيخ مما دفع بالشاب الى المجيء ٠ وقبل أن يرسل في استدعاء ابنته ، بادره نالينا كشا قائلا : « هناك مشروع لزواجي من ابنتك يا أنادا بابو ، على انني أريد أن أروى لك - قبل أن نسير خطوة أخرى في هذا

الصدد ـ حديثا لابد لك من أن تعرفه ! » ٠٠ وعجب الطبيب حين أجابه أنادا بابو بأنه يعرف قصة زواجه الأول ، فقال : « المهم أنكم تعتبرون زوجتى الأولى فى عداد الأموات ، ولكن ليس ثمة ما يؤكد ذلك ، بل اننى أعتقد انها على قيد الحياة » ٠٠ وهتف الشيخ وقد أومض فى ذهنه خاطر : « اسأل السماء ان يكون هذا حقيقة ٠٠ هيم ! ٠٠ هيم ! » ٠ وأقبلت الفتاة ملبية نداءه ، فقال لها : « ان فى الخطاب الذى كتبه اليك رامش ٠٠٠ » ، فدفعت اليه الخطاب ، وناوله بدوره الى ناليناكشا ٠ وحين قرأه هذا بامعان ، سلبه الذهول كل مقدرة على الكلام !٠٠ وما لبث ـ بعد فترة واجمة ـ ان نهض منصرفا ٠ ولمح فى طريقه همنالينى واقفة فى الشرفة ، فاذا منظرها يسترعى انتباهه٠ وساءل نفسه :كيف تقف هكذا هادئة ، فى الوقت الذى يجب أن يكون قلبها فى مهب العاصفة !٠٠ وحدثته نفسه بأن يذهب اليها فيواسيها ، ولكن قلبه الحائر هتف به : « لا ٠٠ ان الحواجز التى تقوم بين نفس بشرية وأخرى لا يمكن اختراقها ٠٠ يا للوحدة الرهيبة التى تحيط بالنفس ! » ٠٠ وتعمد أن يمر أمامها وهو فى طريقه الى عربته ، فاذا بها تبادر الى دخول الغرفة ، فقال لنفسه : « ليس من اليسير لنفس أن تلتقى بنفس أخرى ، فان الرابطة التى تقوم بين انسان وآخر من أشد الروابط تعقدا ! » ٠٠ وسار الى عربته بقلب مثقل !

★ ★ ★

◆ ولم يكد ناليناكشا ينصرف ، حتى أقبل جوجندرا ، فهتف أبوه حين رآه : « أعدت وحيدا يا جوجن ؟ ٠٠ وأين رامش ؟ » ، فأجاب الشاب : « ان لقاء مثل الذى استقبلتماه به كفيل بأن يجعله يدرك لنفسه قدرها ، ولست أدرى ماذا فعل ، اللهم الا أن يكون قد فاز بالراحة الأبدية ، بأن ألقى نفسه فى (الجانجز) ٠ اننى لم أره ثانية ، ولكنه ترك لى قصاصة قال فيها : « اننى راحل ـ رامش » ! ٠٠ اننى لم أقو قط على استمراء هذه المأساة العاطفية ، وسأرحل أنا الآخر ! » ٠٠ فصاح أنادا بابو : « وهيم ؟٠٠ يجب ان نقرر ٠٠٠ » ٠ولكن جوجندرا قال : « ما الذى بوسعى أن أفعله ، وأنتما تحرصان على أن تفسدا كل قرار أتخذه ٠ أرجو أن لا تقحمانى فى الأمر مرة أخرى ٠ لسوف أرحل فى صباح غد ، وسأعرج فى الطريق على بانكيبور »

ولم يجد أنادا بابو ما يفعله سوى أن يمسح رأسه ، وان يتخبط فى افكاره ٠ كانت دنياه مليئة بألغاز استعصى عليه حلها !

الفصل الستون

◆ ذهبت « سايلاجا » مع أبيها الى بيت ناليناكشا ، بعد يومين او ثلاثة ٠ وجلست سايلاجا مع كمالا فى احدى الغرف الجانبية ، وأخذتا تتهامسان ،

بينما استغرق تشاكرابارتي في الحديث مع كشمنكاري ، فقال لها : « لسوف أعود الى غازيبور غدا ، فاذا كانت هاريداسي تضايقك ... » ، وصاحت السيدة : « ها أنت ذا تعود ثانية لهذا الموضوع . ما الذي ترمي اليه يا سيدي العزيز ؟.. أهي حيلة لتسترد ابنة ابن عمك ؟.. لقد كنت صريحا معي حتى الآن ، وأصارحك بأنه ليس أشهى على النفس من ان يحظى المرء بربة بيت شابة مثل هاريداسي ، و ... » . فقال تشاكرابارتي : « حسنا ، لنكف عن هذا الموضوع .. انها كانت حيلة مني لاسمع مديح هاريداسي على لسانك . بقي أمر واحد يشغلني ، هو ان ناليناكشا بابو ربما وجدها مبعثا لضيقه والحد من حريته في البيت . ثم انها مرهفة المشاعر ، ولو ان ناليناكشا ابدى أتفه ما ينم عن غضب ، لحز ذلك في قلبها ! » ، فصاحت السيدة : « عجبا ! .. أيغضب نالين ؟.. انه لا يملك ان يغضب » . فقال العم : « أصبت !.. ولكني كما تعلمين شديد الحب لهاريداسي ، ومن ثم لا يسهل علي أن اطمئن الى حالها . وليس يكفيني ان تقولي أن نالين لا يغضب قط ، وانه سيتجاهل الفتاة فلا يحس بوجودها مطلقا . لن أهنأ حتى أعرف انها - في مقامها بهذه الدار - تشعر كما لو كانت هي وهو فردين في أسرة واحدة !.. انها ليست قطعة من أثاث ، وانما هي كائن بشري .. فاذا هو تجاهل وجودها ... »

فقطعت عليه كشمنكاري استرساله قائلة : « لا تشغل بالك يا سيدي العزيز . لن أتردد في أن أؤكد لك أن نالين يعدها من أفراد الأسرة ، وليست العبرة بالاهتمام الظاهري ، فأنا واثقة من انه بحث أمر هناءتها وراحتها . وليس من المستبعد أن يكون قد اهتم بعمل أشياء من أجلها،دون ان ندري ! » .

فقال تشاكرابارتي : « يسرني ان أسمعك تقولين هذا . ومع ذلك فاني أرى أن أتحدث مع « نالينا كشا بابو » على حدة قبل رحيلي . ان الرجال الذين يحملون مسئولية سعادة امرأة ما ، قليلون في الدنيا !.. واذا كانت السماء قد انعمت على نالينا كشا بابو بهذه الشيمة التي تدل على رجولة حقة ، فأحب أن أوصيه بأنه ينبغي في البداية ان لا يبقي هاريداسي بمنأى عنه ، تحت سلطان الحياء الكاذب ، وانما يجب ان يعتبرها ويعاملها كعضو حقيقي في الأسرة ! »

وبعثت هذه الثقة - من الشيخ - بنالينا كشا ، شعورا من الزهو في صدر أمه ، فقالت : « بل انني كنت أخشى ان لا تقر اختلاطهما ، فكنت أستبقي هاريداسي بمعزل عن نالينا كشا اذا ما كان في البيت ، وان كنت أعرف ابني، وأثق في رجاحة عقله ! » ، فقال تشاكرابارتي : « اذن ، سأصارحك بما في ذهني . لقد سمعت أن « نالينا كشا بابو » سيتزوج ، وأن عروسه أكبر سنا مما ألفنا أن تكون عرائسنا عليه ، كما أنها أوفر ثقافة .. لذلك ظننت أن

هاريداسى ٠٠٠ » ٠ فقطعت عليه الحديث قائلة : « انني أقدر هذا ٠٠ لابد ان ثمة داعيا يدعوك للقلق فى هذا الصدد ، ولكن هذا الزواج لن يتم ! » ٠٠ وصاح الشيخ : « هل فسخت الخطبة ؟ » ، فأجابت : « انهـــا لم تقم حتى تفسخ ٠٠ لم يكن « نالين » راغبا فيها على الاطلاق ، وكنت أنا التى استحثته، ولكنى عدلت عن الضغط عليه ٠٠ اذ لا جدوى من دفع الناس الى ما لا يحبون ٠٠ وقد أفارق الحياة دون ان أراه متزوجا ! » ٠٠ وصاح تشـــاكرابارتى : « لا تتحدثى هكذا » ٠٠ قالت : « ان نالين يكبر مع السنين ، وقد أكربنى ان أشعر بأن عدم زواجه راجع الى أنا ، ومن ثم اندفعت ـ فى عجلة ـ أبحث له عن عروس ، دون أن أجيل البصر حولى أولا ، وأتأمل ، وأفكـــر ! » ٠ وقال الشيخ : « لسوف تقرى عينا بشريكة حياته ، وانى لأعرف النوع الذى يروق لكما ٠٠ ليست صغيرة جدا ، ولكنها قادرة على أن تؤدى واجباتها ، وعلى ان تطيع ٠٠ دعينا نبحث عن عروس من هذا النوع ، ولا تشغلى بالك ! والآن ، اسمحى لى بأن أوصى هاريداسى قبل انصرافى ، وسأرسل لك سايلاجا تؤنسك» ٠٠ فقالت العجـــوز : « بل تحدثوا ثلاثتكم معا ، وســـوف أؤدى أنا بعض الأعمال »

★ ★ ★

◆ ووجد تشاكرابارتى الفتاتين معا ، والدمـــوع تترقرق فى عينى كمالا ٠ وبادرته سايلاجا قائلة : « كنت أقول لكمالا يا أبت ان الوقت قد حان للافضاء لناليناكشا بابو بكل قصتها ، فاذا بها تثور على ! » ٠٠ فهتفت كمالا : « لا يا ديدى ٠٠ أتوسل اليك ان لا تفضى بشىء ! » ٠ وصـــاحت « سايلاجا » : « يا لك من رعناء ! ٠٠ كيف تجلسين ساكنة وتتركين ناليناكشا بابو يتزوج من همنالينى ؟٠٠ لقد عانيت منذ زواجك أفظع التجارب ، حتى أوشكت ان تلاقى حتفك ، فكيف تريدين ان تتحملى عذابا جديدا ؟ » ٠٠ وهنا قال تشاكرابارتى : « حسنا ، ليتبارك الاله ، فان الزواج الذى ذكرته لن يتم ٠٠ لا تخشى شيئا يا عزيزتى كمالا ، فقد انتصر الحق ! » ٠٠ وحملقت فيه كمالا ، عاجزة عن ان تفقه ما كان يعنى ، فعاد يقول : « لقد فسخت الخطبة ، لا لأن ناليناكشا لا يوافق عليها فحسب ، وانما لأن الأم أيضا عادت الى رشدها ! » ٠ فهتفت سايلاجا فى صوت متهدج : « لقد نجونا يا أبت !٠٠ اننى لم أنم الليل بعد أن علمت بنبأ الخطبة ٠ ومع ذلك ، فهل ستظل كمالا تعيش غريبة فى البيت الذى هو بيتها شرعا ؟ » ٠٠ فقال أبوها : « لا تتعجلى الأمور يا سايلاجا » ٠

وقالت كمالا : « ولكنى قانعة بالوضع الحالى ، ولا أريد تبديلا ٠٠ ارجوك يا عمى العزيز ان لا تنبىء أحدا بشىء ٠ كل ما عليكما هو ان تتركانى فى ركن من البيت وتنسيانى ٠٠ فانا سعيدة بهذا ! » ٠٠ وتدفقت الدموع من عينيها،

فأخذ تشاركرابارتى يواسيها • وفى هذه الأثناء ، اندفع اومش الى الغرفة مبتسما وقد فغر فمه عن آخره ، فسأله العم عما هناك ، واذ ذاك قال الصبى : « ان رامش بابو فى الطابق الأرضى يسأل عن السيد الطبيب »

وغاض الدم من وجه كمالا ، وقفز العم قائلا : « لا تنزعجى يا عـزيزتى ، سأهبط وأسوى الأمر معه » • وهبط السلم ، فتنـاول ذراع رامش قائلا : « تعال نتمشى يا رامش بابو ، فان لى معك حديثا » •• وصـاح رامش فى دهشة : « من أين أتيت يا عماه ؟ » •• قال : « انما انا هنا من أجلك ، وكم يسرنى ان قابلتك • تعال ، فلابد من ان نسوى هذا الأمرقبل فوات الوقت »• وجر الشاب الى الحديقة ، ثم سأله : « ما الذى أتى بك الى هذه الدار يا رامش بابو ؟ » •• قال رامش : « جئت أسعى للقاء نالييناكشا بابو ، فقد قررت أن أصارحه بكل شىء عن كمالا ، لأننى لاأكف عن الاعتقاد بانها علىقيد الحياة !»• فقال الشيخ : « وهب انها على قيد الحياة ، وان نالييناكشا التقى بها ، فهـل من الخير ان يسمع القصة من فمك أنت ؟•• ان له أما عجوزا ، وقد يشق على كمالا لو أن السيدة عرفت الحقيقة ! » •• فقـال رامش : « انما أردت ان يعرف نالييناكشا ان ليس على كمالا ظل من شك أو لوم••فاذا كانت قد غادرت الحياة ، فان شهادتى ستجعله يقدس ذكراها ! » •• وصاح العم : « عجبـا يا ابناء العصر لتفكيركم • اذا كانت كمالا قد ماتت ، فلست أرى داعيا لأن تزعجه بذكراها ، لا سيما وانه لم يكن زوجا لها لغير ليلة واحـدة • أترى البيت القائم هناك ؟•• اننى أنزل فيه ، فاذا جئتنى صباح غد ، رويت لك كل شىء • على أن لا تسعى للقاء نالييناكشا بابو قبل ذلك ! » •• ثم عـاد « العم » الى كمالا ، فقال لها : « أريدك على ان تأتى لدارنا صباح غد ، فقد اعتزمت ان أجعلك توضحين الموقف لرامش بابو بنفسك •• اننى اؤمن بأن هذا هو الحل الأخير ، فان شباب اليوم لا يراعون قيم الماضى وأساليبه • لا تحفلى يا عزيزتى ، اذ لا ينبغى ان تدعى سواك يستحل حقوقك ، ومن حقك ان تتولى الايضاح بنفسك ! » •• ولم ترفع كمالا بصرها عن الأرض ، بينما استطرد الشيخ : « لقد طهرنا الأرض ، فلا تترددى فى كنس العقبات القليلة الباقية ! »

* * *

◆ وسمعت كمالا فى تلك اللحظة وقع قدمى نالييناكشا ، فرفعت بصرها ، فاذا نالييناكشا واقف فى فراغ الباب • والتقت عيناها بعينيه ، فلم يبادر الى الاشاحة بوجهه كما كان يفعل فى المرات السابقة ! ولم تدم النظرة لأكثر من لحظة ، ولكنها بدت وكأنها كانت تضم وجه كمالا بدلا من ان تقصيه كما كان الحال من قبل !•• ولمح نالييناكشا فى اللحظة التالية « سايلاجا » ، فهم بان

يتراجع ، لولا ان صاح به العم : « لا تهرب يا نالِيناكشا بابو ، فنحن نعتبرك واحدا منا • هذه ابنتي سايلاجا ، التي عالجت انت ابنتها منـذ ايام » •• وانحنت له سايلاجا ، فرد التحية متسائلا عن الطفلة • وقال الشيخ : « انك لا تتيح لي مطلقا فرصة للشبع من صحبتك ، فلتدع لي هذه الفرصة الآن ! »•• وحمله على الجلوس ، ثم التفت فاذا كمالا قد تسللت من الحجرة •

كانت نظرة نالِيناكشا قد بعثت في نفسها ما لا قبل لها باحتمـاله من الدهشة والفرح ، فسعت الى خلوة تستوعب فيها المفاجأة علـى مهل !•• وأقبلت كشمنكاري في تلك اللحظة تدعو تشاكرابارتي الى ان يعود لمجالستها في غرفة الجلوس ، فصحبها مع نالِيناكشا • وما ان وصلوا الى الغرفة ، حتى قال العم لصاحبيه : « سألحق بكما سريعا » •• وغاب دقيقة أو اثنتين ، ثم عاد ممسكا بيد كمالا ، تتبعهما سايلاجا • وشرع تشاركرابارتي يقول : « يجب ان لا تعامل ابنتنا هاريداسي كما لو كانت غريبة يا دكتور •• ان كل ما تنشده كمالا هو ان تتاح لها الفرص لتخدمكما معا ، ولن ترتكب قط خطأ عن عمد ! » •• فصاحت كشمنكاري : « لا داعي لأن تقلق يا سيدي الجليل ، لقد انزلنا هاريداسي منزلة الابنة في دارنا ، ولم يعد لي مكان في المطبخ ومخزن المـؤن اللذين ظللت كل هذه السنين لا أفرط فيهما !•• بل ان الخدم لم يعـودوا يعتبرونني سيدة الدار ! ان هاريداسي قد سلبتني كل سـلطاتي ، فأي شيء آخر ترجوه لهذه السارقة ؟ » •• فاجاب نالِيناكشا : « وانتمـا بدوركما فرضتما عليها سحرا أنساها وجود أي امرىء سواكما في الدنيا !••يا للمسكينة، لقد عانت أوقات عصيبة ، وآن لها أخيرا ان تطمئن ! » •• واغرورقت عيناه

وكان نالِيناكشا ينصت في صمت وهو شارد الفكر • فلما انفض الجمع ، سار في تثاقل الى غرفته • وكانت شمس ديسمبر تجنح للمغيب فتملأ الحجرة بفيض من الضوء الارجواني الشبيه بحمرة الخجل على وجه عروس !•• وكانت كمالا قد بثت له الورد في ارجاء الغرفة ، فاذا ارجوانية الشمس وعبير الورد يثيران أحاسيسه • لقد ظل طيلة السنين الماضية يرى الدنيا عالم زهـد وتقشف ، أما الآن ، فقد خيل اليه ان أذنيه تفعمان بأنغام أخذت تتردد في الكون كله ، يخالطها صليل الصناجات (الصاجات) في ايدي راقصـات مستترات !•• وتحول نالِيناكشا عن النافذة ، فوقع بصره على الورود المنسقة عند رأس سريره ، فبدت له كعيون تتطلع اليه في رجاء صـامت مس أبواب قلبه • وأمسك بوردة لم تتفتح اكمامها ، وقد بدا لونها ذهبيا غير براق •• واذ أخذ يداعبها بأنامله ، خيل اليه انها تستجيب له بملمس بشري ، فسرت في جسمه رعشة ، وضم الوردة الى شفتيه ، ثم مس بها جفنيه !•• وعندما هم بأن يغادر الحجرة ، سار الى السرير ، فرفع الغطاء ، ووضع الوردة علـى

الوسادة . وعندما رفع رأسه ، وقع بصره على شبح منكمش فى أحد الأركان. كانت كمالا ، وقد غاب وجهها فى طيات خمارها ، وأوشكت أن تنهار على الأرض حياء . فلقد كانت فى الغرفة عند مقدمه ، فلم تجد فرصة للتسلل ، ومن ثم ظلت منزوية فى أحد الأركان والحياء يكاد يخنقها ! .. وأسرع ناليناكشا نحو باب الغرفة ليعفيها من خجلها . ولكن فكرة خطرت له حين بلغ الباب ، فتوقف لحظة مترددا ، ثم استدار نحو كمالا قائلا : « انهضى .. لا تخجلى منى ! »

الفصل الحادى والستون

❖ ذهبت كمالا فى الصباح التالى الى منزل العم . وما أن سنحت لها فرصة حتى انتحت بسايلاجا جانبا ، فسألتها هذه : « ما الذى يسعدك اليوم ياحبيبتى ؟ » .. فقالت الفتاة : « لست أدرى يادیدی، ولكننى اشعر كأن متاعبى قد انتهت ! .. اننى أشعر أنه قد صار رجلى الآن بالفعل ! لقد أشفقت على السماء أخيرا ! » .. قالت سايلاجا مداعبة : « ما ينبغى أن تخفى عنى أمرا » . فقالت كمالا : « لست أخفى شيئا ياديدى . لقد خيل الى - عندما استيقظت اليوم - أن الحياة أصبحت تحمل معنى جديدا لى . شعرت أنى أكثر هناءة ، وانى لا أطمع فى مزيد ! كل ماأخافه الآن هو أن افقد ما حصلت عليه ! »

وأقبل العم عند هذا الحد من الحديث ، فقال لكمالا : « يجب أن تأتى الآن لحظة ياعزيزتى ، فان رامش بابو هنا » . وكان «العم» قد تحدث الى رامش عند وصوله فى ذلك الصباح ، وقال له : « اننى أعرف حقيقة علاقاتك بكمالا ، ونصيحتى لك أن تبدأ الحياة من جديد ، وأن تنفض يديك من هذه المسألة . واذا كانت ثمة مشكلة باقية ، فدعها للقدر يحلها ، ولا تحاول أنت أن تعالجها!» .. فأعرب رامش عن أنه انما أراد أن يروى القصة كلها لناليناكشا ، ليبرىء كمالا من أى ريب ، وليرضى ضميره . وهنا ذهب « العم » لينادى كمالا - كما أسلفنا - فوقف رامش فى النافذة يسرح بصره فى المارة وهو شارد الذهن ، حتى سمع وقع أقدام ، فالتفت خلفه . ورأى فتاة تنحنى أمامه تحية ، حتى اذا رفعت رأسها ، صاح مأخوذا : « كمالا ! » .. وقال العم : « شكرا للسماء يا رامش بابو ، لقد انقضت متاعب كمالا ونحس طالعها .. لقد أنقذتها أنت حين كانت معرضة للأخطار ، فجلبت لنفسك التعاسة !.. أما وقد آن لكما أن تفترقا ، فانها لم تشأ أن تصمت على ماهى مدينة لك به ، فجاءت تودعك ! » .. وجاهد رامش حتى انبعث صوته من حلقه قائلا : « ليباركك الله يا كمالا . اغفرى لى ماقد أكون ارتكبت من أخطاء فطنت لها أو صدرت عفوا ! » . فاستندت كمالا الى الجدار ، ولم تنبس ببنت شفة . واستطرد رامش بعد لحظة : « اذا كان ثمة سوء تفاهم أستطيع أن أجلوه ، فليس عليك سوى أن تأمرينى ! » ..

فضمت كمالا راحتيها الى صدرها وقالت : « أرجو ان لا تنبس بكلمة لأحد » ٠ قال : « لقد ظللت زمنا طويلا لا أبوح لأحد بكلمة عنك ، ومكثت صامتا ، حتى عندما كان الصمت سببا فى تعاستى ٠ ولم أرو قصتك الا منذ أيام قلائل ، حين اطمأننت الى أنك بمأمن من كل سوء ٠ وحتى اذ ذاك ، لم أروها الا لأفراد أسرة واحدة ٠ وأعتقد ان هذا لن يضرك فى شىء ، بل أعتقـد أنه قد ينفعـك ٠ فان « العم » يدرك كل شىء ٠٠ أما أنادا بابو وابنته ٠٠ » ، فقال العم : « هل سمعا القصة ؟ » ، قال رامش : « أجل ، واذا كان ثمة شىء آخر تحبـان أن أضيفه لهما ، فأنا على استعداد لأن أفعل ٠ أما من ناحيتى ، فلست أرجو شـيئا ٠ لقد فقدت قطعة من حياتى ، ومن عواطفى !٠٠ وكل ماأصبو اليه الآن هو أن أتخلص من أى شىء يثقل ضميرى ! »

فشد العم على يده قائلا : « لا يا رامش بابو ٠٠ لسنا نطمع فى شىء منك ٠ لقد تعذبت كثيرا ، بل أكثر مما تحتمل ، وانى لأدعو السماء أن تجعل حياتك منذ الآن سعيدة لاتعترضها المتاعب أو الهموم ! »

قال رامش : « سأفارقكم الآن » ٠٠ وتحول نحو كمالا ، فلم تفتح فمهـا ، ولكنها انحنت أمامه فى احترام ٠ وانطلق رامش فى طريقه وكأنه فى حلم ، وقد راح يردد لنفسه : « اننى مغتبط لأنى قابلت كمالا ، فان هذا اللقاء خير ختام للفصل الذى انقضى ٠ والآن ، لم يعد هناك من يحتاج الى ، ولا من يريدنى ٠ فلأنطلق فى الحياة ، ولأشق طريقى ٠٠ ولاضرورة لأن ألتفت الى المـاضى كى أنظر اليه ! »

الفصل الثانى والستون

◆ وجدت كمالا – حين بلغت البيت – أن أنادا بابو وهمنالينى كانا يجلسان مع كشمنكارى ٠ وقالت السيدة العجوز بمجرد أن رأتها : «هاهى ذى هاريداسى» ٠٠ ثم التفتت اليها قائلة : « هلا اصطحبت صديقتك الى غرفتك ياعزيزتى ريثما أقدم الشاى لأنادا بابو ! »

وما أن اصبحت الفتاتان فى غرفة كمالا ، حتى تحولت همنالينى فطوقت عنق صاحبتها ، وضمتها اليها هاتفة : « كمالا ! » ٠٠ فسألتها كمالا دون أن تبدى أية دهشة : « كيف عرفت أن هذا اسمى ؟ » ٠٠ فقالت همنالينى : « لقد روى لى شخص ما كل قصتك ٠٠ وما أن سمعتها حتى أيقنت أنك أنت كمالا ، وان لم أدر كيف أبرر يقينى !» ٠٠ وعندئذ قالت كمالا: «لاأحب أن يعرف احد اسمى، فان اسمى الحقيقى هو مبعث أساى ! » ٠٠ فجادلتها همنالينى قائلة : « ولكنه يساعدك على اثبات حقوقك ! » ٠ وهنا هزت كمالا رأسها ، وقالت : « لست أنظر للأمر من هذه الناحية ٠٠ ليست لى حقوق أثبتها ، ولا أنا راغبة فى أية حقوق ! » ٠٠ فصاحت همناليني : « ولكن ، اي مبرر لديك في أن يبقي زوجك في الظلام ؟

.. لماذا لا تصارحينه بكل شيء ؟ .. ما ينبغى لك أن تكتمى عنه شيئا ! »

وغاض الدم من وجه كمالا دفعة واحدة ، وتطلعت الى همنالينى فى حيرة وعجز ، وكأنما كانت تبحث فى محياها عن رد ، دون أن تجد . واستندت الى السرير تتشبث به ، ثم قالت : « لا يعلم الا السماء سر ما بى من خجل . على انى لم أرتكب ذنبا ، فلماذا أتلقى القصاص وأنا بريئة ؟ .. كيف اجسر على أن أروى له قصتى بأسرها ؟ » .. فتناولت همنالينى يدها ، وقالت : « انه ليس قصاصا ، وانما هو اختبار وتطهير . على أنك الآن مقيدة بأغلال غيرحقيقية، ولن تتحررى حتى تطلعى زوجك على كل شيء .. فتوكلى على القدر ، وحطمى أغلالك ! »

وقالت كمالا فى حيرة : « ان ما يستل قواى هو الخوف من أن أفقد كل شيء الآن . على اننى أدرك ما تعنين . يجب أن لا أخشى ما يخبئه لى القدر ، وأن أقص كل شيء عليه .. هو ، اذ لا ينبغى أن يبقى فى الظلام بعد الآن ! » . وضمت يديها الى صدرها فى حزم وعزيمة . فسألتها همنالينى مداعبة : « وماذا كنت ترجين اذن ؟ .. أكنت راغبة فى أن يتولى سواك مصارحته ؟ » .. ولكن كمالا هزت رأسها بقوة ، وقالت : « لا ، لا .. يجب ان لا يسمعها من أحد سواى . أنا التى سأخبره بنفسى ، فلا تظنينى عاجزة ! » .. فقالت همنالينى : « هذا أفضل .. لست أدرى ان كنا سنلتقى مرة أخرى ، أو لن نلتقى .. فقد جئت لأذكر لك اننا راحلون ! » .. فسألتها كمالا : « الى أين ؟ » ، قالت : « الى كلكتا . والآن ، ما أرى أن أشغلك طويلا ، فلديك أعمال الصباح تنتظرك ، ولذلك يحسن بى أن أنصرف يا عزيزتى . ولا تنسى أننى أخت لك ! »

وأمسكت كمالا بيدها ، وقالت : « لسوف تكتبين لى .. أليس كذلك ؟ » .. فوعدتها همنالينى بذلك .. وعادت الفتاة تقول : « يجب أن تكتبى لى ، وان تنصحينى فى أمرى .. فانى أعتقد ان خطاباتك ستكون مبعث تشجيع لى ! » . وابتسمت همنالينى قائلة : « آه ، حسنا .. ولكنك ستعاشرين من هو أسلم منى مشورة ونصحا ! »

★ ★ ★

◆ ولم يرتح بال كمالا الى حال همنالينى .. كانت رغم الهدوء الظاهرعليها، لا تتمالك من الاتيان ببعض حركات تنم عن حزن دفين ، مما أثار حنان كمالا واشفاقها . ولكن همنالينى كانت تحيط نفسها بجو يجعـل المرء يتردد فى مفاتحتها ، ويحجم عن سؤالها . ومع أن كمالا فضفضت لها عن كل ما كان فى صدرها فى ذلك الصباح ، الا أن همنالينى غادرت الدار وهى ملتفة فى عين التحفظ والتكتم اللذين أقبلت بهما . كانت تكسو محياها مسحة من حزن روحي رفيع ، بدا بالنسبة لمحياها كشفق دائم علي قسماتها !

وظلت كلمات همنالينى العذبة، وعيناها الهادئتان، تلاحق كمالا طيلة يومها ، كلما فرغت من أحد أعمالها • لم تكن تعرف عن ماضى همنالينى شيئا ، اللهم الا حقيقة واحدة ، هى أن خطبتها الى نالينا كشا قد فسخت •

وكانت همنالينى قد أحضرت معها فى الصباح سلة مليئة بالزهور ، فجلست كمالا ـ بعد أن اغتسلت فى الأصيل ـ وأخذت تنسق عقودا من تلك الزهور ، وكشمنكارى لا تكف عن الحديث : « أواه ! •• ليس بوسعى يا عزيزتى ان أصف ما خالجنى من شعور حين ودعتنى همنالينى اليوم • ومهما يقال ، فانها فتـــاة لطيفة حقا • اننى لا أملك نفسى من التفكير فيما كنت أستشعره من سعادة لو انها تزوجت من ابنى • لا أحد سواه يعرف السر فى تحوله عنها ! » • والظاهر ان كشمنكارى كانت لا تقوى على أن تصارح نفسها بانها قامت بنصيب كبير فى فسخ الخطبة !

وانبعث وقع قدمين فى الخارج ، فصاحت السيدة العجــوز : « أهذا أنت يا نالين ؟ » •• وأسرعت كمالا ، تلف الزهور والعقود فى طرف ثوبها ،وتسدل الخمار على وجهها • ودخل نالينا كشا الحجرة ، فقالت له أمه : « لقد رحلت هيم وأبوها •• ألم ترهما ؟ » •• فاجاب : « بل قابلتهما حين انصرفا من هنا • فرافقتهما الى دارهما فى عربتى » • قالت الأم : « قل ما شئت يا فتى ، ولكنى لا أعتقد أن فى الدنيا كثيرات مثل هيم ! » • وكانت تتكلم وكأن نالينا كشا لا يرى رأيها ، ولا يكف عن معارضتها ! ولكنه لم يقل شيئا ، بل اكتفى بأن ابتسم ، فصاحت : « أو تبتسم ؟ •• لقد خطبت لك هيم وباركتها ، ثم اذا بنحلة تطن فى رأسك ، فتفسد كل ما أعددت •• ألست آسفا على ذلك ؟ »

وأجفل نالينا كشا ، وألقى نظرة على كمالا ، فلاحظ أنها كانت تنعم النظر نحوه ـ خلال خمارها ـ والتقت نظراتهما ، فودت كمالا لو أنها تضاءلت حتى تتلاشى فى الفضاء ، وأسرعت تغض بصرها • وقال نالينا كشا : « لماذا ظننت يا أماه ان ابنك أهل لتلك المتعلمة ؟•• ثم ان الناس لا تنساق للحب بالعصا!» •• وهنا رفعت كمالا بصرها ، واذا بنالينا كشا يلقى اليها بنظرة أخرى مليئة بالحبور ، فشعرت بأن الفرار من الغرفة خير مسلك تسـلكه • بينمـا قالت كشمنكارى لابنها : « اجر الى غرفتك ، ولا تتكلم ، فانك تغضبنى ! »

★★★

عندما خلت كمالا الى نفسها ، أكملت تنسيق زهور همنالينى فى عقود ، ثم جدلت العقود فى اكليل كبير وضعته على السلة ، ثم رشته بالماء ، وحملته بعد ذلك فوضعته فى غرفة مكتب نالينا كشا • واغرورقت عيناها حين ذكرت ان الاكليل الكبير صنع من زهور الوداع التى قدمتها همنالينى ! •• وما أن عادت كمالا الى غرفتها ، حتى استغرقت فى نوبة طويلة من التأمل • وراحت تسائل

نفسها : ما الذى كانت تحمله نظرات ناليناكشا اليها ؟ .. وما رأيه فيها ؟ .. لقد خيل اليها ان عينيه تغوصان الى أعمق أفكارها الخفية . لقد كانت من قبل فى راحة ، حين كانت تتفادى الوجود حيثما وجد هو . أما الآن ، فقد أصبحت تجد نفسها فى مواقف حرجة متزايدة .. وكأنما كان هذا الحرج عقابا لتسترها على حقيقة شخصيتها !

وقالت لنفسها : « لا بد ان ناليناكشا يسائل نفسه : « من اين أتت آمى بهذه الفتاة هاريداسى ؟.. اننى لم أر أقل منها حيـــاء ! » .. أواه ! اننى لا أحتمل أن يداخله هذا الرأى لحظة واحدة ! » .. وعندما أوت الى فراشـــها فى تلك الليلة ، كانت قد عقدت العزم على أن تنتهز أول فرصـــة فى غدها ، فتكشف سرها ، وتتحمل العواقب أيا كانت !

ونهضت كمالا مبكرة فى الصباح ، فاغتسلت فى (الجانجز) ، واحضرت ملء جرة صغيرة من مياهه لتغسل بها غرفة مكتب ناليناكشا ، قبل أن تقوم بأى عمل آخر من أعمال البيت ! هكذا كانت قد اعتادت . ولكنها فى ذلك الصباح ، فوجئت بناليناكشا يشغل الغرفة مبكرا ، على غير عادته . وأسفت كمالا لعدم استطاعتها أداء مهمتها ، فتحولت فى خطى بطيئة . ثم مرقت فى ذهنها فكـرة كوميض البرق ، فوقفت مسمرة فى مكانها !

وفى بطء ، ارتدت عائدة الى الحجرة . ووقفت مرة أخرى لدى بابها ، اذ لم تقو على أن تمضى خطوة أخرى ! ولم تدر ما الذى غشيها ، وانما خالت ان الدنيا باسرها تسبح أمامها فى ضباب .. ولم تعد تشعر بالزمن فى انصرامه !

وانتبهت فجأة الى أن ناليناكشا قد نهض عن مقعده ، وانه كان يقف أمامها.. وقفزت كمالا ، ثم جثت على ركبتيها ، وأحنت رأسها حتى مست قدميه .. وتهدل شعرها الناعم ، المبتل - الذى لم تكن قد عقصته بعد الاغتسال - حتى غطى قدميه . وما لبثت أن نهضت ثانية ، فوقفت أمامه جامدة ، وكأنها تمثال، وقد نسيت ان قناعها سقط عن وجهها ، ولم تفطن الى أن ناليناكشا أخذيتفرس بامعان فى ملامحها . بل انها لم تعد تعى شيئا من العالم الخارجى . وفجأة ، مرق فى فكرها قبس من الالهام ، فقالت دون أن يتهدج صوتها : « أنا كمالا !»

على أنها لم تكد تنطق بالكلمتين ، حتى بدد صوتها النوبة السحرية التى كانت قد أنستها الدنيا ، فسرعان ما ذابت عزيمتها . وأخذت كل جارحة فى جسدها ترتجف . وسقط رأسها على صدرها ، ولم تستطع أن تحير حراكا ، رغم ان الفرار كان خير مسلك ينقذها من الحرج !.. كانت قد حشدت كل قواها وعزيمتها فى تلكما الكلمتين : « أنا كمالا » .. فلما نطقت بهما ، تسربت معهما القوة والعزيمة ! .. وأحست بخزى وحياء بالغين .. لم يبق لها ماتوارى به خجلها عن ناليناكشا !

أما هو ، فقد رفع يديها فى بطء الى شفتيه وتمتم : « لقد عرفت ذلك ! .. أنت كمالا .. زوجتى ! .. تعالى معى ! » .. وأخذها الى الحجرة ، فأحاط عنقها بأكليل الزهور الذى جدلته بيديها ، وقال : « تعالى نسجد للاله ! » . وكان شعاع الشمس يسقط على صفحة من رخام ناصعة البياض فى أرض الحجرة ، فسجد الزوجان ، وأسلما جبهتيهما الى تلك الصفحة الرخامية .. والشمس تتدفق على رأسيهما !

وحين نهضا ، عادت كمالا تركع عند قدمى نالىناكشا فى توقير عميق . فلما استوت قائمة على قدميها ، كان خجلها قد كف عن تعذيبها . ولم يكن فرحها منفعلا ، مهتاجا . وانما غمرت كيـــانها كله راحة وادعة ، وسكينة كضـــوء الصباح . وملأ كل ركن من نفسها شعور بالتقوى الخالصة ، وخيل اليها أن الخليقة بأسرها تحترق بخورا لمعبودها !.. وانبثق جدول فياض من الدمع ، من عينيها ، فأخذت القطرات تتساقط دون رادع .. تلك كانت دموع الفرح تبدد غيوم الأسى التى خيمت على حياتها من قبل !

ولم ينبس نالىناكشا ببنت شفة ، وانما رفع الشعر الندى عن جبينها بحركة سريعة ، ثم غادر الغرفة . ولم تكن كمالا قد استنفدت كل ما فى قلبها من عبادة، فتاقت الى شىء تسكب عليه ولاءها .. ومن ثم سارت الى مخـــدع نالىناكشا ، فغمرت نعليه القديمين بزهور من الاكليل الذى طوق زوجها عنقها به ، ثم ألصقت جبينها بهما فى ورع وتبجيل !

وعادت الى أعمالها المنزلية ، وكأن كل عمل منها لون من العبـــادة تؤديه لاله معبود .. كأن كلا منها صلاة ترفعها الى السماء على أجنحة الفرح ! .. وهتفت بها كشمنكارى : « ماذا تفعلين يا عزيزتى ؟ .. ان الذى يراك تغسلين، وتكنسين ، وتنظفين ، يخال أنك تحاولين أن تجددى الدار كلها فى يوم واحد!» .. وما لبثت كمالا أن فرغت من أعمالها المنزلية ، فاحتبست نفسها فى غرفتها وألفاها « نالىناكشا » هناك حين أقبل حاملا ملء سلة من البنفسج ذى الأريج العطر .. وقال : « ضعى هذه فى الماء يا كمالا لتحتفظ بنضرتها .. فاذا حل المساء ، فلنتقدم بها الى أمى ونطلب منها أن تباركنا ! » .. قالت كمالا وهى تغض بصرها : « ولكنك لم تسمع القصة كلها بعد ! ».. فأجاب نالىناكشا: « لا حاجة بك الى أن تذكرى شيئا ، فاننى أعلم كل شىء !. »

وأرخت كمالا قناعها على وجهها قائلـــة : « ولكن الأم ... » . ولم تتم حديثها ، اذ مد نالىناكشا يده ، فأزاح النقاب ، وهو يقول : « لقد غفرت أمى فى حياتها الطويلة كثيرا من الذنوب . وليس من شك فى أنها ستغفر لك ما لم يكن من الذنوب فى شىء على الاطلاق ! »

« تمت »

هل قرأت من قبل قصة طويلة من الأدب الهندى؟..
وهل استمتعت بالأسلوب الشاعرى لأديب الهند
الأكبر "رابندرانات تاغور"؟

ان (مطبوعات كتابى) تتيح لك المتعتين معاً، فى عددها الحالى الذى بين يديك .. بعد أن قدمت لك فى أعدادها السابقة نماذج من كل من : الأدب الانجليزى، والفرنسى والايطالى، واليونانى، والنمسوى .. وهى تعدك بان تقدم لك فى اعدادها القادمة نماذج من الأدب الألمانى، والروسى، و... الخ

فاحرص على اقتناء هذه السلسلة كاملة، تؤسس لبيتك وأولادك أنفع وأمتع مكتبة للثقافة العالمية باللغة العربية

